الجبل والسهل

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كوردستان العراق
ص.ب رقم: ١
www.araspublisher.com

محى الدين زەنگەنە

الجبل والسهل

قصص قصيرة

اسم الكتاب: الجبل والسهل- قصص قصيرة
كتبها: محى الدين زەنگەنە
من منشورات ئاراس رقم: ١٢٤
التصحيح والتصميم: عبدالرزاق عبدالله
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: نسار عبدالله+ كەڤى محفوظ+ نادية عزيز
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
عدد النسخ: ١٠٠٠
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٢٠٠٢/٦٤

نثارات حلم تبحث عن حالم

عثرت على نفسي، بعد طول ضياع ولهاث وإختناق، فوق تلّة، مسكوناً برعب شديد، أجهل باعثه. وعبثاً أحاول، عاصراً ذهني أن أجد بين تلافيفه سبباً يبرره. أو، في الأقل، يحمل إليّ بعض القناعة والإطمئنان.

صحيح أن التلة عالية وكبيرة، ويخيّل إليّ انها تعلو وتكبر رويداً رويداً. حتى لتكاد تستحيل جبلاً شاهقاً موحشاً، مفرغاً من الإنس والجن، يفترش فضاءً هلامياً مرشوشاً بالضباب أو بما يتراءى لي كالضباب. ضباب كَثيف معتم، تلتمع خلال نسيجه الدبق اللاصق بالجلد، نقاط مضيئة، تبرق بين الفينة والفينة مثل شموس نارية صغيرة الحجم. متناهية في الصغر كأنها جمرات نيران تتوقد، ترسل شواظاً، تقتحم عينيّ كلما فتحتهما، فأتجنّب فتحهما ماأستطيع.

بيد أن "ماأستطيع" في إطاره الزمني الذي يتحقق فيه، لايتجاوز بضع ثوان، إذ سرعان مايستبد بي فضول قويّ جبّار، تنهار كل مقاومتي أمام قوته وجبروته، فأفتح عيني بين هنيهة وأخرى، لأرى التلة تغطيها، وتوشك أن تغطيني معها، أعشاب متيبسة. تنكسر تحت قدمي إذ أسير فوقها، فأسمع لتكسرها صوتاً مخنوقاً، شبيهاً... بأنين متوجع لكائنات تحتضر، بلغ بها اليأس من الخلاص من معاناتها، مع التشبث الطبيعي بأذيال الحياة، حد الإستنجاد بي. بي أنا الذي يملأني الهلع من إحساس ينبثق من داخلي، بأني قد غدوت على حين غرّة كائناً بلا حول ولا قوة، عاجزاً عن تقديم العون حتى لنفسه. فأقفز فوق الأعشاب، يحدوني أمل في تحقيق رغبة خرافية... أن تُنبت لي قوة سحرية ما أجنحة تحلق بي. طائراً فوقها ولا تدعني أدوس عليها، على هذه المخلوقات البائسة اليائسة... أو أستحيل بفعل فاعل، أعني بقدرة قادر هواءً رقيقاً لايلمسها ولا يمسّها. وإن مسّها أو لامسها... فبرقّة متناهية، لاتشعر به... ولا تتالم من عناقه. ولكن كيف السبيل الى تحقيق هذه الرغبة... وأين هو ذلك القادر القدير... الذي يشفق عليّ... ويغيّر حالي من حال الى حال؟

وفجأة، وما أكثر المفاجآت... وما أشد قسوتها على النفس، في عالم غاب... أو غُيّبَ... عنه وفيه، العقل والمنطق. وخالفت قوانين العلم والمعرفة نفسها، ألفيتُ الأرض المكسوة بالأعشاب تستحيل غابة من الشوك والعاكول. تمتد مايمتد البصر،

كرات من الشوك محمولة على سيقان رفيعة ضعيفة من القلغان. ملفوفة بخضرة فاقعة... ذات فراء شوكي... تتخلله خيوط عديدة مصبوغة بلون بنفسجي أخّاذ... تقتحمني رغبة مهووسة في أكل واحدة من هذه الكرات، وإذ أفعل سريعاً، بلا تردد ولا تروٍّ، تبرز دفعة واحدة مئات المخالب الشيطانية المختبئة في مكان ما من جسد ما... المتكور... سكاكين حادة تتصدى لقدمي العارية... فأطلق صرخة خرساء مبلولة بالدم، مشحونة بالألم الذي تفجر في سائر أنحاء جسمي وفي الوقت الذي انتظر... أو آمل، في الاقل، أنْ يتصدع الكون لهول صرختي وعنفها. تروح ترتد الى جوفي، صمتاً بلا معنى... مخنوقاً داخل حلقي... بلا رجاء...

مدفوعاً بشعور خفي، لاأعرف كيف إنبثق من مكان ما من داخلي بأني أحلم... وأن الأمر كله، بالرغم من كل ما فيه من الآلام والأوجاع غير المعقولة، لايعدو كونه بأني واقع تحت تأثير حلم مزعج... أو كابوس ثقيل ضاغط على الروح والجسد... وسرعان ما ينتهي، إذ أصحو فأنجر من بين براثنه... أتجاوز آلامي وأوجاعي، أو بالأحرى أعطلّهما، واتكور على قدمي التي غربلتها أشواك لا عدّ لها ولا حصر. ولكني إذ أتحامل على رجلي الأخرى السليمة، يختل توازني واسقط فوق الأرض المزروعة بالأشواك والعاكول والصبيّر والابر والدبابيس وحافات السكين الحادّة وكل المخالب الإبليسية الأخرى، فيصرخ كل جزء من أجزاء جسمي... ويعيط ويولول. تخترقني موجة عارمة من الجفاف. تتدفق بها عروقي وكل نبضة من نبضاتها. وبإحساس عنيف بالعطش... وتلهفاً الى قطرة ماء تبلل حلقي إثر الجفاف الذي إحتواه وشرع يمتص صوتي وصراخي... أمد يدى لأقطف من بين النسيج البنفسجي خرنوباً، تخطف خضرته الريانة بصري، غير حافل بالابر التي تمزق جلدي.

مع القضمة الأولى يمتلئ فراغ فمي بمرارة شنيعة، لا أظن بحراً من السمّ يمكن أن يحوي هذا القدر البشع من المرارة، فابصقها بسرعة، وبحرقة شديدة. مصحوبة بدم أسود وبقطع سوداء، قد تكون اجزاء من كبدي الذي لابُدَّ ان يكون قد تفتت، أو إحترق في نار العطش المتأججة في داخلي.

من بين الأعشاب الأليفة المدجنة والاشواك المتوحشة، ترتفع بضع شجيرات... تشدني اليها بقوة... كأني أراها للمرة الأولى. فتهفو اليها روحي وتتلهف. ويخف بي أمل عميق أن ابلغها وارتمي تحت ظلالها... ناجياً ولو لبعض الوقت من نار الشمس الحارقة وسهامها اللاهبة المصوبة نحوي، بيد اني ولفرط يأسي وغيضي أيضاً لا أقوى على رفع جسدي المسجّى، المتهالك على نفسه. المثقوب والمبلول بالدم والألم، فأسير نحوها زحفاً على بطني تارة وعلى ظهري تارة اخرى، ساحقاً الادغال المبينة. فاتحاً اليها طريقي بصعوبة بالغة غير مبال بايّ شيء، عدا التنفيس عن

الرغبة المجنونة التي تتعملق في داخلي كلما يلوح لي ظل شجرة ما. ولكني إذ اقترب منها تصعقني الدهشة فأصرخ، يا لها من اشجار غريبة ترى اية اشجار هي؟ ما نوعها؟ ما اصلها؟ ما فصيلتها؟ ما؟ ما؟؟؟ خضرتها الداكنة واوراقها الكثة الصغيرة وأغصانها المتشابكة، توحي للناظر في الوهلة الاولى بانها اشجار زيتون. ولكن ثمارها المتدلية المختفية بين وريقاتها منها، والظاهرة للعيان تحمل على الاعتقاد بانها ليست اشجار زيتون، فحبات الزيتون لاتكون عادة بهذا الحجم. بحثاً عن يقين، يرش قلقي الملتهب، ببضع رشقات باردة من الإطمئنان، امعن النظر بدقة متناهية في العناقيد المتدلية أو فيما يبدو لي انها عناقيد متدلية، أقول لنفسي إنها اشجار كروم وأن العناقيد إنما هي عناقيد عنب. إلاّ أني إذ اتلمسها بأنامل مرتجفة أجد حباتها قوية صلبة لاتمت الى حبات العنب بصلة. ومخافة أن أنفجر في دوامة جديدة من الاضطراب الذهني والجهل ونفياً لكل الشكوك التي تغزوني، وتتقاذفني امواجها، اقرر متسرعاً وانا اتحسس هذه الحبات التي تستطيل إنها أشجار بلوط، نعم لابدّ أن تكون أشجار بلوط. اكرر ذلك بيني وبين نفسي بضع مرات زيادة في التأكيد وإقناع الذات. ولكن ما هي إلا ثوان حتى أجد نفسي مضطراً، رغم أنفي، على الإقرار بجهلي، والاعتراف بفشلي الأكيد في التعرف عليها... يا ربي ما هذه الأشجار؟ لماذا كلما حسبت بأني اقترب من معرفة حقيقتها تركلني قدم لامرئية وتبعدني عن هدفي المنشود؟ أهي مجموعة جنيات؟ زمرة ساحرات؟ تتغير وتتبدل، لاتستقر قط على حال تطمئنني الى الصورة التي أتوصل اليها بصددها. لماذا تعود الثمار الطويلة تقصر وتتكور على نفسها حتى تغدو... شبيهة بـ... بـ... بالجوز... بل... بل هي ثمار الجوز. والأشجار إنما هي أشجار الجوز والجوزات تتدلى من بين أوراقها عناقيد وفرادى، تضئ بخضرة قاتمة حيناً... وفاقعةً حيناً آخر بتناسب مشهدي رائع، مع حزم الشمس واشعتها وخيوطها المتسللة... خلال الوريقات والأغصان المتعانقة أو...أو لابُدَّ أن تكون كل شجرة من هذه الأشجار الغريبة، أربع شجرات في آن واحد وفي شجرة واحدة، والا كيف يتسنى لها أن تحمل أربعة أنواع مختلفة من الثمار؟ وهل أن ما تحمله ثمار حقاً؟ بل، بل هل هي اشجار أصلاً؟ أشجار حقيقية ذات أوراق وأغصان وجذور وفروع ولحاء و... وثمار؟ وسائر العلامات الدالة الأخرى، التي تشكل إذ تتشكل، هوية الشجرة

وصنفها المميز؟ أم... أم انها اشياء أخرى، لاتمت الى صنف الأشجار وفصائلها وأنواعها بوشيجة قربى؟

لا أدري... لا أدري...

وآه... وألف آه... من هذا "اللاأدري" من هذا الضباب الذي يغوّش الرؤية... ويفتت العقل ويرشه بالملح، ويحفر في الروح جرحاً لايندمل... وألماً لاينتهي، يخيّل اليّ انها إذ تلملم الشمس عنها وشاحها. وينحسر عنها ضياؤها، تشرع تغير حالاتها... تخرج منها، تغادرها تماماً وتستحيل أشياء أخرى. كائنات ظلامية... وموجودات معتمة... ككتل سوداء قاتمة... غير متناسقة في أشكالها متنافرة في ألوانها وأحجامها حيث يرتمي بعضها الى جانب البعض، أو يتكدس بعضها فوق البعض على نحو يعطي لاتناسقها هيأتها مزيداً من اللاتناسق والفوضى... مثل مقبرة الشيخ محي الدين التي تتوسد مدينتي الحبيبة كركوك منذ صارت تعرف بإسم كركوك، وربما منذ كانت تعرف في العهود الغابرة بأسماء أخرى، أرافا... أو كرخابيت سلوخا... أو أربخا... أو بيت نار گرگرا... أو قبلما تكون أساساً ويكون لها أيّ أسم، والتي تستقبل القادم من الشرق، بدلاً من باقات الزهور... مجموعة هائلة من القبور مجللة، إذ ترتدي المدينة ليلها بحجرة نيران بابا گرگر الأزلية المشتعلة ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، قبر لصق قبر... قبر فوق قبر... قبر تحت قبر... قبور... قبور ولا شيء سوى القبور التي بات عددها يزداد على مرّ الأيام وساحتها تتسع وهي تمضغ لحم المدينة وضحاياها يكثرون وهي تفتك بالأحياء، حتى غدت المقبرة، في داخلها بين أحشائها في موضع القلب من المدينة، هل المدينة توسع بيوت احيائها... تبذرها هنا وهناك لتحتضن بيوت موتاها، أم المقبرة توسع بيوت نزلائها الدائمين لتطرد المدينة؟ وتواصل زحفها السرطاني نحو القلب فتصرعها وتحيلها مقبرة واحدة لايحدّها حد مزروعة بقبور لاعَدَّ لها ولاحصر، منها الصغير الصغير الذي لفرط صغره لاتراه الأقدام فتدوسه دون أن تشعر به ومن غير أن يحسّ الدائس بأنه قد داس على فم طفل رضيع، لم تنبت له بعد أسنان، لتسد بوابة فمه ولا تدع رائحة الحليب تسيل مخترقة طبقات التراب والرمل المهالة فوق جسده الغض الذي هو من الغضاضة والهشاشة والرقّة

بحيث لايطيق ثقل الهواء والنسيم الهاب فيعبّق جو المدينة... عفواً جو المقبرة بعبق خاص لاتنشره سوى أجساد الأطفال أو أجساد الطفل المتشظي- أو جسد الأطفال المذابين في بوتقة. أو المحشورين في قبر كالاسماك في علبة. ومنها الكبير... الكبير الذي يرعبني كبره ويروعني عنه غالقاً الطريق أمامي... فأتساءل ترى كم ألفاً يسكن هذا القصر الشيق القائم في هذا الخواء المخيف؟ بخطوات متعثرة مرتجفة أقترب منه... تسقط يدي على صفيحة حديد أو ذهب أو تنك، باردة برودة الموت الذي يملأه، فأقرأ بمعونه نور باباگرگر الخالد... لاأحد... سوى أحد... سوى الأحد... فأنكفيء على نفسي مصعوقاً... آه إن الحياة الثانية تواصل سيرة شقيقها التوأم بكل تفاصيلها ودقائقها حتى لاتبقى ثمة غير حياته... واحدة... سوى حياة واحدة... وحينما تعددت صورها واشكالها وتباينت الوانها وخطوطها فلها وجه واحد... هو وجه الأحد هو الوجه الواحد... كثير التجاعيد كثير الأقنعة... ولكن في النهاية كما هو في البداية هو هو. آه أين المفر... أين المفر... من الوجه المختبئ خلف آلاف الأقنعة؟ كيف الخلاص من آلاف الأقنعة التي تخفى الوجه الواحد؟ كيف... كيف... أين... أين؟؟؟؟ وفجأة وما أقل المفاجآت السارة وما أقصر زمانها ولكن بالرغم من ذلك، بل، ربما بسبب ذلك: ما أشد إمتلاءها بالسعادة والفرح... وما أعنف التلهف والإشتياق اليها...

يتسلل الى روحي الملتهبة هدوء... ناعم رقيق مثل نسيم شتوي في جو تموزي قائض. تسدل أجفاني المقّرحة... بحنان أمومي فائق العذوبة... أنامل نعاس ملائكية، فأستسلم للنوم.

النوم؟

وأنتفض، ما معنى النوم؟ ألست نائماً الآن؟ وكل ما يجري لي مجرد أحلام؟ وهل يحلم الا النائم؟ و... و... ولكن... أأحلم حقاً؟ أم أن مايجري لي هو الواقع... صور مختلطة... متداخلة من الواقع... وأنا يقظان. وهل يمكن لليقظان أن يحلم... أم يمكن للحالم أن يحلم بأنه يحلم؟ آه... آه... ما أغرب كل ذلك. وما أشد وقعه على العقل والروح!! أين الحقيقة من الوهم... أين الواقع من الحلم... أين تتوقف تخوم النوم؟ أين تبدأ تخوم اليقظة ما الفرق بينهما؟

ما طعم كل واحد منهما؟ كيف أميّز ذلك؟ انيّ استذوق كلاً منهما إذا كانا متداخلين الى هذا الحد؟ لكن مالك وكل هذه الأسئلة التي تنزلها على رأسك مطارق تشرخ حياتك... تهشم النوم في عينيك... إستمتع بنومك يا غبي. فالنوم وحده القادر على إنقاذك من بحر مخاوفك وفضاء أوهامك. تشبث به... بأنيابك وأظفارك ولاتدعه يفلت منك أبداً... استغرق فيه وإنزل الى أعماقه... أعمق أعماقه... نَم. نَمْ وسوف تستيقظ ذات حين لتجد نفسك مغسولاً من أوجاعك مطهراً من شكوكك محصناً بشجاعة نبيلة... تملأ أرجاء نفسك القلقة المضطربة. أغمض عينيك... أغمضهما جيداً. وهل هما مفتوحتان كي أغمضهما؟ كفاك يا هذا كفاك... أقلع عن الأسئلة التي لاتؤدي إلاّ الى المزيد من الجهل ولا تورثك إلاّ المزيد من العذاب والمعاناة. استسلم وأغلق كلتا عينيك... ولكن الفضول فيهما يغدو قذى وحفنة املاح يستحيل معهما توفر القدرة على اقتطاع اي جزيء من جزيئات الزمن للإبقاء عليهما خلاله مغلقتين... أنا اعرفهما وأعرف مدى الفضول فيهما...

أفتحهما بسرعة... الى آخرهما... فأرى التلة أو المقبرة حيث أقف... ضائعاً... مرتعداً... كأنها لم تعد التلة نفسها... ولا قبور... الشيخ محي الدين ظلت القبور نفسها... وإنما استحالتا بقعة من الأرض زالت عنها الوحشة، وغدت أليفة جداً وقريبة الى الروح أشد ما يكون القرب... إذ انها تبدو شبيهة، الى حد كبير، بالقلعة العملاقة التي تنتصب وسط معشوقتي كركوك منذ أقدم الأزمنة وأبعدها قلباً نابضاً بالحياة والمحبة... ببيوتها الصغيرة الجميلة... المتلاصقة حد التغلغل في جسد وروح بعضها البعض... بمحبة ومودة يفتقر كل العالم الآن وربما قبل الآن أيضاً الى القدر الأولي منهما... أرى بوضوح تام أزقتها الضيقة الليّنة الملتفة حول البيوت تخترقها... سواقٍ رفيعة طويلة تبدو المياه فيها إذ تجري بهدوء وطمأنينة، سلاسل وقلائد من فضة... تتلوى على نفسها وعلى مَنْ... وما حولها، تسبغ عليهما الجمال والفتنة... بنفس القدر الذي تمنح الحياة لأعشاب طرية بريئة... إتخذت ضفتيها مأوى ومسكناً آمناً... بين زهور يافعة طرية انشقت عنها الأرض ولم تمسها يد.

رداً على وساوس ماكرة خبيثة، تحاول أن تثقب قناعاتي وتهزها أقول

لنفسي بحزم وإصرار بل هي القلعة... القلعة العنيدة نفسها أعرفها جيداً مثلما أعرف باطن كفي... أعرفها بكل خفاياها وأسرارها ودروبها الملتوية والمستقبحة وبكل بيوتها العامرة والخربة المتهدمة والساقطة أو الآيلة الى السقوط والتهدم... والمهجورة بسبب ذلك تحديداً ولزوماً وليس لايّ سبب آخر. فما من أحد يهجر بيتاً قائماً آمناً قوياً متيناً يوفر الراحة والكرامة والسعادة والعيش الرغيد، راغباً أو حتى راضياً... ولكنه يهجره قطعاً وينفيه عن وجوده أو بالأحرى ينفي وجوده عنه وفيه مرغماً مضطراً، إذا ماتهدم أو تساقطت أجزاء منه وأجزاء ولم يعد بوسعه إصلاحه أو بناؤه من جديد لضيق ذات اليد أو لمنع مانع عنيد أو لقهر قاهر غشوم. أليس الامر كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس...؟

ما أكثر ما لجأت الى هذه الأمكنة الخربة المهجورة بإنتظار زمن اللقاء بفتاتي... وما أكثر ما لجأ اليها ايضاً زملاء وأصدقاء لي عديدون مدفوعين بالأمل نفسه دون أنْ أدعهم يرونني أو يدعوني أراهم مع أني أعرف حق المعرفة إنهم خلف حائط مهدم أو وراء باب موارب... ومع أنهم يعرفون حق المعرفة اني مختبئ في مكان معلوم. فتقاليد الفروسية حسب فهمنا الطفلي البرئ لها ولأصولها وقوانينها تعني من جملة ما تعني أن لايصدر من أيّ منا سلوك أو تصرف وحتى صوت أو همسة يسبب أي قدر من الإحراج للآخر... والويل كل الويل لمن لايلتزم بهذه التقاليد أو يخلّ بها... إذ سرعان ما ينبذ من الجميع ويبتعد. فهذه الخرائب التي نلوذ بها، وكلنا يعرف ذلك، قد غدت مرتعاً خصباً، ثراً للهوى والشباب وللقاءات طريّة مكتنزة ليست كلها بريئة... وإن كانت في مجملها تفتقر الى الخبرة العملية في شؤون الحياة... كالتي يعتنى بها الاكبرون منا حين يختلون بمن يسمى الجنس الآخر.

الجنس الآخر بالنسبة لنا، نحن الفتية، يتمثل تحديداً وقصراً في فتيات وصبيان... بأعمار الورود المتفتحة توها، للحياة للعشق... نصطحبهن راغبات أكثر الأحيان وممتعضات أو مرغمات بعض الأحيان بسبب من ضيق الوقت. الذي بالرغم من ضيقه، يمتلئ بفضاءات من القلق والخوف والإضطراب لاتسعها دهور برمتها. فنجرهن جراً ونجبرهن إجباراً... بين قبول ممتنع أو

إمتناع ينطوي على القبول والرغبة أكثر مما ينطوي على الرفض والكره... الى هذه البقاع الخالية من الطير والبشر، الزاخرة بالقطط والخفافيش. بعيداً عن عيون الأهل والرقباء والحساد... دخولاً في المناخ الملائم لخلوات قصيرات نادراً ما تتجاوز الدقائق المعدودات، أو يتعدى الفعل فيها حدود تماس اليد باليد وإحتضان الكف الواحدة المرتعشة المرتبكة اللينة... داخل كفين ليستا أقل إرتعاشاً وإرتباكاً وإن كانتا أكثر خشونة وأقل ليونة... ثم... ثم... انطلاق الرعدة الالهية التي تكهرب البدن كله... من أعلى شعرة، مدهونة معطرة مرتبة بعناية في الرأس حتى أخمص القدمين المسجونتين في حذاءين مشققين... وتفجرّ الرعشة الربانية اللذيذة التي تجعل الكيان كله يرتج... يختض يرتجف حتى النخاع... مثل عصفور صغير مبلول ناشه فجأةً برد قارس شديد.

وإذا لم يسعف الزمن العاشقين، وهو عقاب كثيراً ما يجود به الزمن الشحيح البخيل... إذ يتقلص ويضيق بالرغم من سرمديته ولا نهائيته... فلابدّ من اغتنام الفرصة وعدم تركها تسيل هباء بالقبض على الزمن الهارب وتجميد، بل تحنيط بعض جزئياته... وهنيهة صغيرة، مهما صغرت وقصرت كافية لتسليم وتسلّم ورقة وردية مصبوغة بلون القلب... معطرة بعبق الحبيب بحجم وردة الرازقي ملفوفة على نفسها وعلى مشاعر وأحاسيس طفلية صغيرة في ساحتها... شاسعة لانهائية فضائية في امتدادها وسلطانها وقدرتها على التربع على عرش النفس الأخرى... وغالباً ما تكون محروقة في أطرافها بنار الحب ولواعجه محروثة بخربشات ورسوم ذات مدلولا ت مختارة، قلب يخترقه سهم مدمى، حمامة تحمل رسالة شوق وتوق. أو تكون مبذورة بكلمات وعبارات مصاغة بلغة حرّة متحررة من كل قواعد اللغة وقيودها التي تغلها وتسجن شحناتها المندفعة بالعاطفة... مطرزة بمفردات أغان شائعة متداولة أو بأشعار قديمة وحديثة تراثية ومعاصرة... وكالعادة مسوّرة بالجهل في استيعاب معانيها ومراميها ورموزها التي يقصدها اصحابها.

أما إذا جال بخاطر الزمن، ذات يوم، أن يرحم... فيغفل أو يتغافل عنا بعض الوقت، وهو أمر لايحدث عادة إلاّ بمقدار مايحدث أن ينجو إنسان لايعرف السباحة من الغرق في بحر هائج عات. فتنطلق الجرأة من عقالها وتكسر كل

قيودها وتقتحم اللاممكن واللامسموح وتخدش الحدود في موضع صغير كان لخطف قبلة على أحد الخدين. لا أدري لماذا كانت قبلتي المسروقة من عين الزمن والناس تلك تخطئ طريقها دائماً... فتسقط على الجبين أو الحنك أو الأنف، أو تضيع في حقل السنابل الحريرية المحمولة فوق هامة حبيبتي. ولم يحدث قط ان بلغت وهي في سيرها، اعتقد المتردد، هدفها المنشود ولثمت الشفتين المكتنزتين أو حتى أحد الخدين الموردين. ربما بسبب الارتباك الذي كان يشملني من فروة رأسي حتى آخر ذرة تراب عالقة بقدمي الحافية... أو بسبب الرجفة الغريبة التي تسري في عروقي منذ اللمسة الأولى التي تتحسسها وتنشر بها انامليِ المرتعدة إذ تتصل بأيّ جزء من أجزاء ذلك البدن الرجراج ذي السحر الخاص. غير أن القبلة، مع ذلك أو بالرغم من ذلك ومن الإحباط الذي كان يحيق بها، كانت مترعة باللذة مشبعة بالفرح. قادرة ان تجعلني أحب بعد وقوعها، كأيّ حدث تاريخي استثنائي في حياة الفرد، أياماً عديدة قد تمتد أسابيع وشهوراً على طعمها... وعلى رائحة ذكراها العطرة المشحونة... والشاحنة بالمباهاة والزهو... دونهما مباهاة الطاووس وزهوه بألوانه التي لايمتلكها من بين كل خلق الله مخلوق سواه، وبروح الخيال المنطلق الجامح المجنح يرسم ويبني عوالم وعوالم من السعادة... أختال فيها فارساً وحيداً ذا امتياز لايملكه أحد من اقراني سواي حتى... حتى...

حتى تروعني ضحكة خجول أو قهقهة ساخرة مستهزءة من أحد أصحابي مصحوبة أو متبوعة بإستنكار شديد وإستهزاء وقع "قبلة... قبلة حسب؟ وأين؟ على... على الأنف"؟؟؟

ها ها ها... ها ها ها..."

ويضج أكثر من واحد من رفاقي بضحك داعر... فيهتز وجودي وتضطرب لغتي وتضيع كلماتي...

"و... و... وماذا أكثر من... من..."

ويمتص جواب المقابل بقايا زهوي وخيلائي... التي عبثاً أناضل للاحتفاظ به...

"إنبطاح على الأرض... تمرّغ فوق التراب... و... و... ثم... ثم من يضيّع رحمة

اغدقتها عليه السماء...؟ من يهدر خلوة كالتي تحققت لك... ويكتفي بقبلة... مجرد قبلة... و... و... على الأنف..."

"وا... خيبتاه... وا... خيبتك يا ولد!!"

فأطأطيء راسي... وأنكمش على نفسي... مدحوراً مخذولاً محسوراً خارجاً بل مقذوفاً خارج اللحظة التي كانت حتى وقت قريب جداً... ممتلئة بكثافة وجودي وثقل انتصاري وانجازي مع تصميم ينخر فيه الشك مثل دود نهم ان لاأدع فرصة اخرى إن تهيأت ثانية... أن تضيع أو تقتصر على تماس سريع بين الشفتين الملتهبتين وبين ارنبة الأنف الباردة الخامدة وحسب.

وفجأة... وما أكثر المفاجآت وما أبشعها أكثر الأحيان... يتلاشى عندي الإحساس بالأمان والألفة... وينكسر جناحاي المحلقان بي في فضاءات الخيال السعيد ويداهمني الخوف مجدداً... ولكن الخوف ممَ؟ من المكان؟ أما بات المكان معروفاً؟ أليست المعرفة حتف الخوف؟

وتروح الأسئلة- تدوي في ذهني، وهي تتناسل في داخلي بشراهة... ثانية. وثانية أيضاً لاأجد لها أجوبة ... ولا حتى جواباً واحداً شافياً أو نصف شاف... فأقذف بنفسي خارج كوابيس الأسئلة الدبقة وشرنقتها الخانقة... هارباً من لزوجة مديات الخوف التي تنسجها حولي... والقي بنفسي ومخاوفي في نهر الذكريات وأبذل المستحيل لجعله يتدفق مرة أخرى... علّه يحررني من اغلالي اللامرئية... يغسلني من كل ادراني... وعساه يغرقني أو يلطمني بقسوة الأم المنبوذة على إبن زوجها... بموجه وشطآنه... فقط... فقط... ليجرفني ويحملني بعيداً بعيداً. ولكن ما هي إلاّ هنيهة حتى يتوقف النهر... وينقطع عن التدفق وارتطم بصخرة حادة ذات نتوءات تشبه الحراب، ويثب على الخوف من مكان ما... كالصقر... ينشب مخالبه في جسدي ويطبق على خناقي، فأروح ألهث ويتكثف إحساسي بالضياع. ترى ماسرّ كل ذلك؟ أهو يكمن في هذا السكون المريع الذي يشرنق كل شيء... في هذا الصمت الذي يخيم على كل شيء؟ حيث لاحركة... لانأمة... لاصوت... لانسمة... ولاهمسة؟ وكل السكون مخيف؟ ولماذا هذا السكون الغريب المطبق على الكون؟ على قلب الكون الذي لم يعد ينبض... على رئة الكون التي لم تعد تتنفس؟ ألقي نظرة بانورامية شاملة على

ما حولي... فارى الأبواب مفتوحة على مصاريعها... والنوافذ مشرعة الى آخرها... وحتى الجدران وكل الحواجز الأخرى اراها. كأنها ليست جدراناً ولا حواجز... ولم تكن ذات يوم أبواباً وحواجز مادية قط، بالرغم من اطنان الحجر والطابوق والأسمنت والجص والحديد التي تكونها وتقيمها. فأنها تبدو شفافة مثل مستويات صافية من الزجاج تخترقها العين بكل يسر وسهولة... تخترقها الى أبعد مدى دون أن تصطدم بشئ، أي شيء من أيّ جنس أو صنف.

أغرق في... في نفسي ثانية... اخوض فيها اسبح في أعماقها متسائلاً ترى هل تصبح الرؤية العميقة، ذات المديات البعيدة المتعلقة التي لايمدها حد ولا يوقفها سد... مبعثاً للمخاوف والأفكار أو بالأحرى، الأوهام السوداوية والتوقعات المتطيرة الخرافية التي تنافي العقل والمنطق؟

محاولة شبيهة بمحاولا ت هرقل الأسطورية التي كان يحاولها في أفلام مغامراته العديدة، يكسر السلاسل والقيود الحديدية الضخمة التي كانت تقيده... ويحطم جدران السجون والقلاع والحصون المحكمة التي كانت تسجنه، احاولها أنا الآخر، ولكن ليس لاطلاق حريتي المسجونة... وجسدي المقيّد المغلول... كما كان البطل الأغريقي يعذب... وإنما على العكس تماماً لسجن وتقييد وغلٍّ... رؤيتي المندلعة باندفاع أهوج... لتهشم كل الحدود وتسبح في سماء بلا ضفاف، فاسدّ كلتا عينيّ بقوة، ولكني إذ أفعل أكتشف، ويالهول ما أكتشف، إن عيني بلا جفنين. بيد أني حين أتحسسهما بأناملي أجد الجفنين لايزالان في موضعهما... فتتضاعف هواجسي ووساوسي. إذن ما الأمر؟ لماذا لم يعودا يقومان بواجبهما؟ لماذا لايحجزان عنهما الرؤية؟ لماذا لايمنعانها من هذا الإنطلاق الإختراقي اللامحدود؟ هل استحالا الى جفنين من السليفون الشفاف؟ آه... يا الهي... كيف السبيل الى وقف الأشياء والموجودات الخارجية من زحفها العدواني الى داخل عينيّ؟ تقفز الى ذهني اجابة سريعة... خانقة بذور القلق المنبثقة بين طيات ارض ثرة ولو.

"كفّاي... ما زلت أملك كفين..."

وهما مصنوعتان من عظام ولحم وجلد وعروق... و... وكلها أشياء معتمة أعني غير شفافة... تحجز الرؤية وليس بوسع العين أن تخترقها... ولكن...

ولكن ما هذا؟ ما هذا الذي يحدث... آه... لا لا أن هذا أمر لايصدق البتة... إنه... إنه... غير معقول غير معقول تماماً... إن الخوف، كل الخوف، وبابشع صوره وحالاته يتمثل فيه...

الخوف... الخوف ثانية... يكاد يلاشيني...

وخوفاً من أن يقضي عليّ الخوف ويلغى وجودي تماماً... وحرصاً على نفسي ونوعي من الانقراض الأبدي يفرز تشبثي المشروع بالحياة... حياة نظيفة... خالية من الخوف. فكرة... فانساق وراءها راكضاً لاهثاً حتى اقبض عليها واروح اشبعها درساً وتمحيصاً... وصولاً الى الإقتناع بها والإستسلام لها. وأتساءل بجديّة... لماذا لاأقهر خوفي؟ أعني لماذا لاأخيف خوفي وأجعله يرتعد فرقاً ورعباً ويهرب مني... ينهزم بكل جبن وخسة أمام جبروتي و... سطوتي... ولايجرؤ بعد ذلك عن الإقتراب مني... ناهيك عن إقتحامي وملئي بنفسه وبأنفاسه الكريهة... ومخالبه الاخطبوطية؟ اطلق خوفي المتليء بكل مخاوفي، اسفجنة يابسة جافة، في بحر خوفي... لتجففه... تيبّسه تماماً... بلا رحمة ولا شفقة... تمتصه كله تشربه حتى آخر قطرة من قطراته... فتظهر في أعمق أعماقه الحصى... تموت فوقها عطشاً سائر الكائنات التي تحيا فيه وتعتاش عليه... وعلى مايوفره لها من طعام وشراب. لهنيهة قصيرة تبتلّ الأسفنجة وتخضلّ حين تمتص كمية من مياه الخوف حولها... ويثقل وزنها الى حد ما. فأقول في نفسي ذلك حسن... وإشارة طيبة الى أن فكرتي ناجحة وبوسع الأسفنجة أن تشرب مياه البحر... ولكن المياه بلا مدى... ولكن البحر بلا حدود... والأسفنجة صغيرة... ناعمة قليلة الحيلة... وإذ تظل تشرب وتعبّ يكبر حجمها ويزداد ثقلها... وتغدو كتلة ثقيلة من طين... من صخر... بل... بل من رصاص وحديد وفولا ذ وكل المعادن الثقيلة وتجثم على صدري، تسدّ كل مسامات جلدي... تخنق انفاسي وعبثاً أبحث عن وسيلة ما... لزحزحتها... والخلاص من ثقلها الخرافي. حتى أعواني... حتى ما كنت آمل منه العون والمساعدة في محنتي يستحيل ضدي... يعمل على تدميري آه... آه... لاأملك غير أن أصرخ آه... آه... وأكرر صراخي دون أن يجديني فتيلا...

أعطي ايعازاً ليدي... بدفع هذه الكتلة المهاجمة عليّ، وإبعادها عني قبلما

أختنق... بيد أني أرى يدي... بل كلتا يدىّ، بكل ما فيهما من أوردة وشرايين وأظفار وجلد ولحم وعظم... قد تحولتا الى ماسورتين من زجاج صافٍ شفافٍ لاتشوبه شائبة... كنبعٍ من ينابيع المياه الرقيقة الرقراقة التي تثرى بها قمم ئاوەگرد وسەفین وپیرەمگرون... والتي كثيراً ما كنت أركع أمامها... لعلي أرى صورتي على صفحاتها وما آل اليه شكلي بعد شهور عديدة من الانقطاع عن المدينة والانزواء الى الجبال والوديان وتأسيس علاقات صداقة ومحبة حقيقية فيها... فلا أرى في قاعها المكشوف سوى أحجار وحصى صغيرة متناهية في الصغر... اجتمعت فيها ممتزجة ومنفردة كل ألوان الكون... تختال خلالها اسماك بحجم النمل... وهي تلهو وتلعب آمنة مطمئنة أنْ لاعابث يعكّر مزاجها.

ترى هل أن يديّ وحدهما قد صارتا بهذه الحال الغريبة أم أن كل كياني قد بات كذلك؟ وإذا كان ما حدث ليدي قد حدث لجسدي برمته... فما العمل؟

يجب منع عيني من النظر الى أعضاء جسمي بأيّ ثمن. ولكن كيف؟ ان في عيني فضولاً يضاهي فضول كل فضوليي العالم، ستسرقان مني غفلة من غفلاتي التي لاتفارقني، وتشبعان كل جسمي فحصاً وتمحيصاً وتدقيقاً آه... الكلبتان... يتحتم عليّ قلعهما قبلما تشرعان بالسرقة... وبدون اي تردد وبتصميم صارم... انقل الفكرة الوليدة لتوها الى يديّ لتنفيذها. إلا انهما لدهشتي الصاعقة، تمتنعان أو بالأحرى- تتوقفان في منتصف الطريق... نصف مشلولتين، يشلهما سؤال مريع، وبعدما أفقأ عينيّ... هل أحيا حياتي التي لاأزال اجهل أيامها ولياليها... بلا عينين؟ وما قيمة حياة بلا عينين؟ ويرد على السؤال سؤال أكثر خطورة، ما قيمة عيون تخترق الموجودات كلها دون تفريق أو تمييز، كما تخترق السهام المنطلقة أحشاء الهواء، بلا مانع ولا حاجز ولا حتى رادع؟ ماذا افعل بعيون شبيهة... بعيون الموتى المدفونة معهم تحت التراب. تنفذ الى أعمق الأعماق ولاتتوقف عند حدود المسموح والممنوع. ويتسلل الى داخلي في فوضى الأسئلة المعلقة بلا أجوبة سؤال، وهل عيون الموتى كذلك حقاً... فصعقني الأمر... واسرع بالإجابة لابُدَّ ان تكون كذلك. وإلاّ فلماذا تظل عينا الميت مفتوحتين الى آخرهما حتى يتطوع أحد بإغلاقهما

وإسدال الجفنين فوقهما... كما تسدل الستارة على المسرحية بعد نهاية فصلها الأخير... ولكن ماأدراني أنا بكل هذه الحقائق ثم... ثم... هل هي حقائق أم مجرد خرافات وأوهام؟ انى لي ان أعرف، ما دمت أنا نفسي لم امت قط، ولا حتى مرة... واحدة طيلة حياتي التي تبلغ نصف قرن من الزمن... مثلما لم أكن بالمتطوع الذي يغلق العيون ويسدل الأجفان.

آه... ليتني أعرف... ليتني أعرف، فمن شأن معرفتي بهذه الأمور أن توجه ارادتي الوجهة الصحيحة... اما وأنا لاأعرف... فمن المستحيل أن اتبين الصحيح من اللاصحيح.

في مكان ما من تلافيف دماغي وأحشائه الحبلى بالأفكار والمشاريع والوساوس، تلد فكرة، أن أجرّب عينيّ في أمر آخر... فأنت منذ حللت في هذا المكان تنثر نظراتك المنفلتة فوق البيوت والجدران ولم يحدث أنْ تأملت الأرض التي تقف عليها، ومن لحظة ولا دتها... تدخل الفكرة الجديدة، صراعاً مع ترسانة الافكار الأخرى المترسخة، غير حافلة بحداثتها وقلة خبرتها وضآلة تجاربها، إزاء قلعة أفكار أكثر قدماً ومكراً... وأشد قدرة على التملص من أية مواجهة... غير مضمونة النتائج، ولكن ربما لأنها مقحطة بالخوف، فسرعان ماتنخذل وتنهزم... وتستحيل الفكرة الوليدة أمراً ملزماً... هيا... هيا... أمعن النظر في الأرض... اغرس فيها نظراتك... ولكن ماذا لو اخترقت نظراتي... النافذة كالطلقة... طبقات الأرض الجيولوجية. ونزلت عميقاً... عميقاً، مخترقة كل ما تصادفه من رمال وصخور ومياه ونفوط وأشجار متحجرة... وحيوانات منقرضة من ديناصورات... وماموثات... وكائنات ولا كائنات... وعبرتها الى اكوان أخرى، وكائنات ومخلوقات اخرى في كواكب وحجرات ارضية، لم يرها حتى غاليلو، طيب الذكر، الناظر دائماً الى السماء الزاخرة... بالنجوم والأقمار، قبل الصناعية، ولم يكتشفها اي ميكرسكوب أو تلسكوب. أو أي كوب آخر، بعد غاليلو... وناظوره الفكاهي... "لا... لا... لن أفعل..."

وأظل أحدق في الفضاء... وأرنو الى المجهول... أسدّد نظراتي الى الأفق الأبعد... والأبعد، باستقامة، يبدو تلسكوب غاليلو نفسه، ازاءها شيئاً مبتذلاً... يقدمه لك هذه الأيام، اي مقهى مع قدح الشاي.

لكن الأمر يمتشق حسامه في وجهي، ويتصدى لي بجبروته المعهود وروحه الدكتاتورية الطاغية، حرك رأسك نحو اليمين، ادرها الى اليسار... انظر الى الأمام... التفت الى الخلف... ازرع عيونك في الأرض. جرّب يا هذا... جرّب كل الاتجاهات... جرّب كل المسالك... كل الدروب ماذا يضيرك... ما الذي تخسره إن جربت... الناس هذه الأيام، يتخذون الناس حقولاً لتجاربهم، في المختبرات والطبيعة... وعلى أرض الواقع ايضاً. فلمَ تخشى انت سقوط نظراتك على الأرض الصلدة... أسقِطها... يا رجل... أسقِطها.

بعد تردد طويل ... وطنين الأمر الآمر... لاينقطع عن اذني... وبوجل شديد... تسقط مني نظراتي على الأرض، ادعها اول الامر تنسكب... نقطة... نقطة... قطرة فقطرة... ثم تشرع، على الرغم مني تسيل وتنزلق فوقها... من غير أن تخترقها وتنفذ خلالها... بل حتى من غير أن تخدشها... إذ تلامس القشرة العليا... وتتكوم على نفسها... وبإرادتي، هذه المرة، ارادتي الشخصية البحت، أبثّ فيها الحركة... وأشحن فيها القوة والقدرة على كسر إطار المكان المحدد، وتحطيم القيود التي تغلها... وتربطها الى بقعة معينة. فأتعرف إذذاك، على جغرافية المكان بصورة أفضل... هذا هو الشارع الأسفلتي المجدور... الذي يلتف حول خصر القلعة... المنتفخ الجاثم على الأرض... التفاف حزام جلدي متشقق مرّقع بألوان شتى... يربطها مع بعضها البعض لون واحد... يغتصب صبغته الاساسية من اللاتناسق والتنافر. وتشد اجزاءه المفتتة... ثلمة هنا... ثقب هناك... تهروء في مكان آخر... كما لو كان حبل اعدام تراثي عتيق هرّأته كثرة الرقاب المظلومة التي إلتف حولها... يتأفص حول رقبة عجوز، انتزعت منها اسنانها عنوة، واقتلع شعرها اغتصاباً، إلاّ خصلات باتت تتوزع فروة الرأس القرعاء، التي تكشف عن عيوب وعورات، عبر مساحات اوسع وأكبر من تلك التي تسترها... خجلاً من العيون التي تحدق فيها وترنو اليها... بدافع الفضول أو الرثاء... أو الشفقة والاحسان.

بمحاذاة الشارع الحلقة الداخلة نهايته في بدايته، وعلى مبعدة امتار وحسب... وبالتحديد... في أشد انحناءاته انتفاخاً، ارى بوضوح نهر "خاصة صو"... ذلك الشيخ الهرم الذي إمتصت الرمال لعابه فتلاشت فيه الرطوبة...

ولم يعد ثمة غير الشقوق والأخاديد والحفر، وبات النهر العتيد فاتحاً شدقيه... كفكي تمساح خرافي يملأ جوف فمه آلاف... بل ملايين الأسنان الحجرية الناتئة. ثابتة ومتحركة... مترامية على مدّ البصر المتقلب في سائر الاتجاهات، تحيط بها الأتربة والحصى الناعمة التي داستها أقدام الزمن الثقيلة... وطحنتها طحناً... فأحالتها الى رمال، دونها رمال الصحارى. وأشد مناطق الجفاف جفافاً ويبساً... آه... ما أبشع وأوجع على القلب... أن يستحيل نهر ما، أي نهر الى صحراء قاحلة يفترشها العطش... ويتآكلها التشقق. وتنتحر فوقها الجمال ونباتات الصبير... تموت فوقها الشمس والقمر والنجوم وتدفن نفسها في مقابر الكثبان المبثوثة هنا وهناك بصمت. وبلا حزن ولادموع... ولاتشييع ولاعزاء، ومن غير مجالس فاتحة يسفح خلالها الأهل والأقارب والأصدقاء مشاعرهم الدفينة... المحبوسة... فتخفف بعض الشيء، من ألم المصاب الجلل. والحدث الفادح... والفجيعة الكبرى.

مؤلم... مؤلم... حد القتل... أن التقي بنهري الحبيب، بعد فراق طويل وهو على هذه الحال البائسة... من البؤس والعري والموت البطئ... وقد حفرت فؤوس الزمن خندقاً عميقاً بينه وبين تاريخه، القريب والبعيد، الملئ بالأمجاد أعني بالمياه والحياة. فقد كان ذات يوم، ضاجاً... صاخباً... كأي شاب في عنفوان قوته وشبابه... يتدفق نشاطاً وحيوية... يملأ الدنيا ضحكاتٍ وقهقهاتٍ. تستيقظ كركوك كلها على كركراته، مثلما كانت كرخا بيت سلوخ منذ قديم الزمان تستيقظ... وتهرع أول ماتفيق متوشحة... بالغلالة الرقيقة الحمراء، التي تنشرها نيران باباگرگر فوق المدينة الى لقائه... وعناقه... في مشهد إحتفالي يزدري بأضخم المهرجات وأكثرها بذخاً وتبذيراً...

وحتى وقت قريب، ظلت النسوة... يملأن الجرار من خيره الثرّ وعطائه الدائم اللذين لم يعرفا التوقف ولا الإنقطاع... وينزع الصبية والفتية والشبيبة ملابسهم... وتلتمع بشراتهم بالحمرة الگرگرية الجذابة... قبلما... يحتضنهم النهر ويروح يغطيهم... بأرديته الرقيقة الناعمة... وحنانه الأبوي والاموي... ويدلك لهم اجسادهم الفضية بامواجه وانامله الروّمات... ينظفها مما يعلق بها عادة، من أتربة وأوساخ... وهم يمارسون طقوسهم البريئة في اللعب واللهو... ولا

يدعهم يغادرون احضانه الرحيمة الشفيقة... إلا بعدما يجعل الشمس الكريمة السخية... تلتمع فوق جسومهم الطرية... ليعودوا بعدها الى بيوتهم ومدارسهم وكتاتيبهم خفافاً نظيفين... وهم على موعد لقاء اكيد... غير معلن ولكن متحقق حتماً، مع النهر الحنون في اليوم التالي فلا هم يملّون... ولا النهر الصبور الحليم يضجر.

وللرجال مع النهر... علاقة عشق من نوع آخر... علاقة كدّ وعمل ونصب... وصولاً الى القوت اليومي... المعجون بالعرق والتعب... يسرعون اليه... مع الرشقات الأولى من وهج الشمس... ليفتحوا المديات والمماشي التي... تمتد خلالها أذرع النهر حاملة رسالة الماء الى الطير والشجر والبشر... والجماد والنبات والحيوان، عبر السواقي والنهيرات التي يشقونها في جسد الأرض... ليرووا عطش الثمار والخضار والأزهار... الرافعة رؤوسها وقطوفها على اطرافها... بالتناوب... مع بعضها البعض... وأحياناً في الآن نفسه... كالأم التي لاتفرق بين اولا دها... وتغدق عليهم حبها ووفاءها... بسخاء وكرم... لا حدود لهما... ويقضي النهر النهار كله... حتى تجر الشمس آخر خيط من خيوط ضيائها... يسقي المزروعات، المختلفة المتنوعة، التي تزخر بها ضفتاه... أو تتشكل لوحات... ولوحات... وحقولاً وحقولاً... على أطرافه، ومع هبوط الليل... ينحسر عنها... ليتركها تنام... ولكن دون ان يفارقها... إذ يظل رابضاً على مقربة منها... يحرسها... يعطر لها أنفاسها... ويغني لها... تنويمته الحنون... على انغام عزف خريره الشفاف... الذي لفرط شفافيته... يكاد يُرى... و... يُلمس.

آخ... آخ... وألف آخ... كيف شاخ هذا النهر، الآن؟ [عندما في العلى لم تكن هناك سماء، وفي الاسفل لم تكن هناك أرض. وأبسو الأولي "الماء العذب" الذي منه سيولد الآلهة. والوالدة تيامات "الماء المملح، مصدر كل حياة" التي ستلدهم جميعاً. كانا يمزجان مياههما معاً. وإذ لم تكن المراعي مجتمعة ولا القصبات منظورة، وإذ لم يكن قد ظهر أحد من الآلهة، ولم يكن قد... حظى باسم ولا بمصير. إذ ذاك من احشائهما، خُلقت الآلهة] آخ... كيف شاخ... خالق الالهة... وتساقطت اسنانه... أحجاراً وحصى ورمالاً... منثورة هنا وهناك... وتفتت جسده اشلاء ومزقاً... مبثوثة هنا وهناك... بإنتظار... ساحرة...

تجمع له اجزاوه المفرقة... وتنفخ فيه الحياة من جديد، ليعود هو بدوره، يبث الحياة في كل من وما حوله من الانسان والنبات والجماد والحيوان، بإنتظار... تموز... "دومو- زي- أبسو" الإبن الاصيل لأبسو، رمز النبات والخضرة التي تموت وتختفي... ثم تولد وتخضر من جديد" ليعيد الى الحياة... وجهها الجميل... جمال وجه الشاب دموزي... فدموزي لم يمت... دموزي يحبسه... ايركالا "إله العالم السفلى" تموز... لم يمت... تموز يحبسه خنزير بري... وسيخرج من احشائه ثانية... والانتظار لن يطول... لن يطول أكثر مما طال... فقد طال حتى قضم طوله... حتى أكل صبره وهضمه... وتقيأ جفافاً يكاد يخنق أبسو نفسه... عطشاً... وليلاً اسود... يوشك أن يطفئ ضياء بابا گرگر...

يفصلني عن نهري- حيث يرقد أبسو، نهر الصخور والرمال والأحجار... غير الكريمة... أعني غير الثمينة التي لاتباع في أسواق البورصة والشورجة... والبازار... ولا يتكالب عليها السماسرة والسمسارات... مثلما لاتحفظ في صناديق الأمانات في المصارف والبنوك... وتغلق عليها الأبواب والفتحات. كما لاترضى أية غادة من الغيد الحسان... وغير الحسان ايضاً. أن تزين بها جيدها... إبتداءً من إينانا التي ألقت بالشاب تموز الى العالم السفلى... حتى حفيدتها التي تحرق الشباب في العالم العلوي- شارع مهدّم... هو الشارع الطوق... الشارع الحلقة... الشارع الدائرة المتصلة نفسه، الذي كثيراً ما حرقته قدماي... جيئة وذهاباً... غير أن الشارع على خلاف عادته التي أعرفها فيه، أراه خالياً... مدقعاً... لاإنس ولاجان لابشر ولاحيوان... لاطير ولاشجر... لاشمس ولاقمر... بينما كانت الشمس إذ تجدني ادبُّ فوق الشارع... تلقي بنفسي، دعابة أو بحكم الضرورة أمام قدمي... حتى لأكاد اطأها... كلما سرت نحو الأمام... أو تلقيها خلفي... وحين ألتفت وأراها ورائي... أتركها... وأواصل سيري... وسط سيول بشرية، لاأدري من أين تتدفق. ولا الى أين تتجه... وكلهم يلاحقون أنفسهم التي ترخيها الشمس أمام عيونهم... أو يسبقونها إذ تتخلف عنهم... أو تسبقهم مرتسمة على ظهور اقرانهم الذين يتقدمونهم... سوداء قاتمة... كأنها خرجت لتوها من تنور مسجور.

وفي الليالي، لاتتغير الصورة كثيراً... إلاّ في انحسار بعض الحشد،

وإستحواذ الظلال التي يرسمها القمر أو بابا گرگر... ويلقيانها... أمام اصحابها أو خلفهم... على ساحات أوسع... والسائر في الليل يجد نفسه في ظله... كأنه ليس نفسه، وأنه قد دخل قاعة من قاعات المرايا العاكسة... التي لاتعكس الحقيقة أبداً... تماماً كعين المبغض... أو كعين المحبّ.

ولكن الليل فوق هذا الشارع... أقصر عمراً... من الليل فوق أية بقعة من بقاع المعمورة... إذ لايمكث ابداً اطول مما يمكث الشبع في بطن المعدم... وسرعان ما يجرفه سيل متواصل لسيارات مجنونة... بأضوية قوية أكثر جنوناً... أو سير متقطع لأقدام تبحث أو تروح لتصنع لقمة تلقيها في الأفواه التي تحملها... أو الأفواه التي تركها مغلولة بالمرض أو الضعف... مملوءة بالنوم المتقطع بالتأوهات والآهات... وهي تسير الى جانب أو أمام أو خلف عربات... تجرّها خيول أو بغال... أو حمير... هزيلة... نحيلة، تعاون الجوع والتعب... والسياط المسلطة على ظهورها... وهي تأكل من لحومها... وتترك آثار أسنانها على عظامها... في رسم أشكالها الكاريكاتيرية... التراجيكوميدية. وأحياناً ترى رجالاً أو... صبياناً... أو حتى نساءً... يجرّونها... وهم جميعاً... لبسوا أحسن حالاً من الدواب... في هزالهم وجوعهم... وساعات بحثهم وعملهم الدائب... المتواصل.

تسحق العربات نفسها بنفسها... وتلقى ببقاياها في حفر منتشرة على امتداد الشارع المتآكل... متفاوتة في مديات فتحات افواهها الفاغرة، على الدوام، التي ما تكاد تفرغ من مضغ الأرجل المطاطية حتى تمتلئ بكائنات ومخلوقات ومصنوعات... أخرى وأخرى، في حركة دائبة... نشطة... لاتعرف التوقف ولا تمنح نفسها فرصة لإلتقاط أنفاسها اللاهثة... المتلاحقة... ولا تفكر حتى هنيهة واحدة، في الركون الى الهدوء... وإسترداد بعض الراحة... وتجديد شيء من العافية والنشاط... اللذين هي بأمس الحاجة اليهما... لمدّ الحياة في اليوم الثاني... الذي سوف لايختلف عن اليوم أو الأمس... إلاّ بكونه أكثر مشقة وأقل راحة... وأشد استهلاكاً للطاقة البدنية... للرجال والنساء... والعربات والخيول على حد سواء... أو بتفاوت قليل... لصالح الحيوان والجماد... اللذين باتا يشكلان هذه الأيام، رأسمالاً... أثمن من الإنسان.

بينما غدا الشارع الآن يلفه... ويلف معه الحياة المتدفقة الضاجّة الصاخبة... صمت... أقسى وأمرّ من القسوة التي يلف بها نفسه ويلتف حول قلعة كركوك العملاقة... يملؤه فراغ لايوازيه ولا يدانيه إلاّ الفراغ الذي يسير فوقه... يتخلل سائر اوردته وشرايينه... يتجسد في نومه... ويقظته... و...

و... فجأة... وماأكثر المفاجآت وماأشد وقعها على النفس...! ! يهزّ الكون... ويهزني معه... صخب وضوضاء... وضجيج... واصوات. و... و... و... لا ادري ماذا ايضاً... فالأشياء، كل الأشياء، تبدو متداخلة... ومتشابكة... ومختلطة... الى حد تفقد مسمياتها... ولا تستقر اية تسمية على ايّ منها... وإنما تنزلق بسرعة هائلة... لتفرز أو تكتسب لها مسميات أخرى... لاتلبث ان تتغير وتتلاشى... لتحل محلها... اسماء جديدة... لا اعرفها ولا عهد لي بها من قبل... فالكلمات تهرب أمام الزحف اللامنطقي للأصوات، حتى تكاد تختفي وتضيع في خضمها... إلاّ صرخة واحدة تنشق من اعماقي وترتدي جلداً من كلمات منسوجة من خيوط الدهشة:

"لقد دبت الحياة في النهر، في جسد أبسو الميت، في نهر... الصخور... والأحجار... والرمال والأتربة..."

شرعت الحياة تحيا، من جديد، ضاجّة صاخبة، يصم صخبها الآذان، يصدم ضجيجها المعقول... يهزّ عنفها الجنان.

ايّ نبع إلهي تفجر في السماء، وصبّ كل مياهه في النهر الشيخ فتدفق بذلك القدر المجنون من الجنون؟ هل افاق دموزي وكسر اغلاله وقيوده... وبث الحياة مجدداً في أبسو، الماء العذب... في الوالدة تيامات، الماء المملح... مصدر كل حياة... وأخذا يمزجان مياههما معاً، مرة ثانية، مثلما كانت الحال قبل آلاف الأعوام... عندما لم تكن في العلى سماء... ولم تكن في الأسفل... هناك أرض؟ ولكن ماهذا...؟ ماهذا؟ يادموزي... إن ما إنشقت عنه السماء، أو انفجرت به الأرض... وفاضت منه ضفتا النهر... ليس مياهاً... ليس أبسو الممتزج بتيامات... إنما هي أحجار... أحجار مغسولة بمياه لا وجود لها... وماهذا بفعلك يا بن أبسو الأصيل. آه... آه... الأحجار تسيل... لا... لا إنها لاتتدحرج... وانما تجري وتسيل... ألوف الأحجار... ملايين الأحجار...

بلايين الأحجار... متباينة في احجامها... مختلفة في الوانها... متفاوتة في سرعتها... منها الكبير الضخم الذي يندفع بسرعة خارقة مثل طيش الشباب... ومنها الصغير الرضيع الذي يحبو ويجاهد مستميتاً... للحاق بالكبار، تارة بالتسلل بين الفتحات والفراغات التي يتركونها... وأخرى بتسلق الاكتاف... وثالثة بالقفز فوق الظهور، ولكن بلا جدوى ولا نفع... إذ تظل، وعبر مسافة، تتقلص حيناً... وتتسع احياناً... تلهث وراء الأحجار الكبيرة... التي تتضخم... وهي تتراكض... تتسابق... تتسارع الى... الى المجهول... وفي سباقها الطائش اللامعقول... يسحق يعضها بعضاً... يهشم بعضها بعضاً... دون اية مراعاة لفارق الحجم... أو السن... أو التاريخ... كل يريد أن يكون هو، لاغيره، في المقدمة... ويروح يبذل المستحيل في سبيل تبوّء... تلك المكان، وحيداً بلا شريك، مع ان كل قوانين الدنيا وربما الآخرة ايضاً، تنص على ان ثمة البعض في المقدمة وآخرون في المؤخرة، إذ لايمكن ان يكون هذا العدد الهائل، كله، في المقدمة في صف واحد، لايتقدم احد، ولا يتأخر أحد.

على ذكر التأخر والمؤخرة... يداخلني فضول... بأن القى نظرة على مؤخرة هذا السيل الغريب... وعلى المتخلف من اللحاق بهذه... القافلة... المجلجلة الصاخبة... فارى احجاراً أكثر عدداً... أكبر حجماً أشد تسلطاً... أقل تسامحاً... تتدافع... تتصادم، مصممة لاعلى اللحاق بالأحجار التي تسبقها وحسب، وانما على قهرها ودفعها الى الوراء... وان ابت ان تتراجع... وتفسح لها الطريق... طواعية، فسحقها... والسير فوق جثتها... وفي سبيل هدفها هذا... تدخل معها صراعاً مريراً... دموياً... جثثياً... تتضارب معها... بكل ما أوتيت من قوة وعنف وضراوة... فتتساقط... أشلاءً... أشلاء... دون ان يروّع ذلك أحداً... بل دون أن يعني ذلك شيئاً... لأحد.

يستمر تدفق الأحجار... من ينبوع ، أو مستودع... لايمكن تحديد مكانه. ويتواصل مع التدفق الجريان الذي لايتوقف إلاّ لحظات قصيرات، لحسم معركة طارئة، أو لتصفية حساب قديم... أو الأخذ بثأر أكثر قدماً... أو التنفيس عن انتقام مكبوت حتى... حتى يمتلئ النهر، كما لم يمتلئ... طوال تاريخه.

ماذا لو فاضت مياه النهر؟ أعني أحجار النهر... وتكومت الأحجار فوق

الأحجار... الصخور فوق الصخور... وألغت عمق النهر... ومحت حدوده القائمة... وغزت الشارع المجدور... من كل موقع... ثم راحت تتسلق اكتاف وقامات بعضها البعض... أكثر فأكثر... وبلغت القلعة حيث أقف متفرجاً... على هذه المأساة المريعة... التي تجري فصولها أمامي... وثم... تجرفني السيول الحجرية معها... وتسحقني في زحفها الكتلوي، الذي لايلوى على شيء... يحرق الأخضر قبل اليابس؟

لا... لا... أنفي مخاوفي بهزة من رأسي، قوية، كما لو كانت ذبابة لحوحاً... ملتصقة بنقطة دبس فوق ارنبة انفي... اطردها فتعود اطردها وتعود... اين السبيل الى طرد مخاوف متجذرة في الجسد والروح، يسقيها كل مايحيط بي، بأسباب الحياة والقوة؟

خارجاً من كابوس الأسئلة المرعبة التي لايرعبها شيء، أغرق في حركة الأحجار... فأرى سرعة جريها قد تضاعفت اضعافاً... مضاعفة... واتخذت، جراء ذلك، هيئات واشكال كائنات ومخلوقات غير مألوفة... أهي مجموعة حيوانات شرسة مفترسة متوحشة... يدفعها جوع خرافي الى وليمة دسمة، تحت رعاية قانون الغاب وشرائعه وطقوسه السماوية والأرضية، التي... ما أنزلت بها السماء ولا اقرّتها الأرض؟ كل حيوان يسابق وينافس أخاه أو أباه أو أمه أو أبنه... أو... أو... أو... ليكون هو الفائز... بكرسي الصدارة، على المائدة المنصوبة، في عراء ما أو في غابة ما ، زاخرة بألوان الطعام واشكاله المتعددة المتنوعة. مهلاً... مهلاً... ايها السادة الوحوش... ايها الوحوش السادة... فان الكرسي الذي تتسابقون من اجل الوصول اليه، ويسحق في سبيله بعضكم البعض أو كلكم الكل... ويدوسه بلا رحمة ولا شفقة... محجوز... محجوز منذ زمن طويل قبلما تكونون نطفاً في ارحام امهاتكم... بل وحتى قبلما تكونون افكاراً، أو مشاريع حياة في أذهان ابائكم، ان كان لكم آباء وامهات كسائر المخلوقات، منذ عهد قابيل وهابيل... وقابيل المتربع فوقه بكل جبروت، المستمتع بكل مايمنحه من امتيازات ومغانم، لعلى استعداد... للفتك... بألف هابيل، من اخوته وبني جلدته... ولا يتزحزح عنه قيد شعره... ولا يشارك في مجلسه مخلوقاً... مهما كان حجمه أو موقعه... فتوقفوا... توقفوا... ولا

تتناطحوا... ولا تتقاتلوا من اجله، على هذا النحو الوحشي الشرس. فأنتم في النهاية لستم بشراً... كي تخلو قلوبكم من الرحمة... الى هذا الحد المريع... ولا تشفقوا على بعضكم البعض... ولا ترأفوا بحال بعضكم البعض وتستحيل أرواحكم الى احجار وصخور... مجرد أحجار وصخور، خالية حتى من عاطفة الحجر أزاء الحجر... من تعاطف الصخرة مع الصخرة. بحدة وانفعال شديدين... وتأثر بالغ... أصرخ بهم:

"توقفوا... هيا... هيا... توقفوا... توقفوا... يا هؤلاء..."

وأضيف مهدداً... وإلاّ... وإلاّ... ثم لا ألبث ان ابتلع بقايا تهديدي... ويخفت صوتي حد الإختناق في جوفي... وهو يتحول الى سؤال منطقي... وإلاّ... وإلاّ...ماذا؟ ماذا بوسعي ان افعل ان لم يتوقفوا... واطلق صفير استهزاء واستخفاف بتهديدي... وبنفسي ايضاً... واتساءل مجدداً... ماذا بوسعي ان افعل... أنا... العاجز عن حماية نفسي من زحف المجهول المرتقب عليّ في أية لحظة... ويلذّ لي الصفير... فاتبعه بآخر... وآخر... وبغتة اقرر: "سيتوقف"

اجسّد كل ما اتمنى وارجو وآمُل في "سيتوقف". أقولها بيقين غريب... واكررها بيقين أشد... ولكن سرعان ماأمقت يقيني الغبي هذا الذي لاينطلق ولايستند على أية ركيزة من علم أو معرفة يمكن ان تمنحه قدراً من الصواب... وتعطيني الحق... في الجهر به والإعلان عنه... بهذا الشكل المجاني... الذي بات يلوّن كل شيء حولي.

بحثاً عن... أو خلقاً... أو حتى اختلاقاً لركيزة... مستند... دليل... ينتشل يقيني من مجانيته... افرّق نظراتي هنا وهناك... ازرعها في كل مكان يقع تحتها... وإذ تعلق بجسر يتراءى لي من بعيد، يتسلل اليّ خيط من السعادة... وأخيراً قد تحقق لأمنيتي مايرفعها الى درجة الواقع... اعززها على الفور بالقول، سيصطدم بالجسر. ويتوقف، الجسر واطئ... لايعلو عن الأرض أكثر من مترين، بينما النهر يعلو ويرتفع... يرتفع ويعلو... وبما أن الغني لايدخل ملكوت الله... إلا إذ عبر من ثقب الابرة... كما يقول السيد المسيح، وان الجمل لايعبر خرم الابرة... كما يقول المثل المعروف، فان هذا السيل الحجري العرم، لايمكن ان يعبر من تحت هذا الجسر ذي الفتحات الضيقة القليلة، المتوجة

باقواس واطئة... اشبه باقواس المساجد الصغيرة. ولكن هل سيصمد الجسر نفسه، هل سيصمد هذا البناء الضئيل المتهريء أمام سيل الأحجار المتدفق؟ ويثور في نفسي جواب حزين، سيهدمه، ويكسبه الى جانبه، محيلاً إياه قوة اضافية... مضافة الى قوته الشيطانية العارمة، مثلما يفعل السرطان... حين يستوطن جسداً ما... مثيراً حرباً طاحنة بين خلايا الجسد نفسها... مشعلاً فتنة نذلة بين صفوفها... محيلاً بعضها ضد البعض الآخر دون هوادة... وإذا ماصادف وعجز عن تهديمه فسوف يمتطيه ويواصل سيره العدواني... اللاأخلاقي... ولكن السيل يتوقف... آه... لقد توقف السيل حيث تماسه مع الجسر... تماماً مثلما توقعت ورجوت. ومع ان نتيجة كهذه من شأنها أن تشحنني بفرح غامر... إذ انها توجت توقعاتي وصدق حدسي... إلا ان موجة من الغم... تعصف بي مثيرةً الخوف الذي ساورني منذ قليل... وتمكن مني... وعشعش في داخلي... من ان النهر سيمتلئ بالمياه، عفواً، بالأحجار... ويقبض على الجانبين ويغطي الشارع البائس صعوداً... حتى يبلغ القلعة ويجرفني معه ولاأعود... بعد ذلك سوى مضغة في أفواه هؤلاء المدعوين. الى وليمتهم الشاذة، المتسارعين نحوها... بقوة وعزم دونهما قوة وعزم أبي... الذي باع دارتنا الوحيدة، وإشترى بثمنها المنقوع بعرقنا ودمنا... زيارة الى بيت الله الحرام... قبل بضعة أعوام... ملقياً بنا في العراء... ملفوفين بالجوع والبرد والتشرد، دون ان يحفل بمصير أيّ منا...

تراجعت الى الوراء، هلعاً... فما وجدت شيئاً الوذ به، اندفعت الى الأمام... نحو بوابة القلعة العملاقة، آملاً أن أتسلقها وأبلغ قمتها... متذكراً سيدنا نوح الذي صنع على وجه السرعة. سفينته لينقذ نفسه واهله من الطوفان وأهواله التي عمت الكون.

بذلك، بذلك فقط. اقول لنفسي بإيمان قوي، يكون بوسعي أن أمنح حياتي التي تسيل من مسامات جلدي وسائر فتحاته الأخرى، ويكاد هيكلي الآدمي يفرغ منها، بضع ساعات أو حتى دقائق اضافية... قد يتمخض عنها، أو خلالها، حل معقول للكارثة التي تحدق بي من كل حدب وصوب بعيون ملؤها التصميم على الفتك، فألهث نحو البوابة... ولكن أصابعي تنزلق عنها

فالعمود الرخامي الذي تستند عليه، أملس صقيل، كصفيحة من زجاج مبلول بالزيت... لاتثبت عليها حتى النملة... فكيف بي أنا... أنا الذي أزن، بالرغم من هزالي ونحولي، آلافاً مؤلفة من النمل.

لا بد من أحد يعينني، فالسيد نوح لم يبني سفينته البدائية المضعضعة وحده. ولكن مَن؟ مَن يعينني... فأنا لاأرى مخلوقاً من مخلوقات الله، عدا الأحجار. لأجمع بضعة أحجار... أحجار كبيرة ضخمة، أكوّمها فوق البعض... بشكل متدرج، لعلي أبلغ فتحة البوابة، غير أنّ الأحجار هي الأخرى، ملساء... لأثبّت أحدها فوق الآخر... فكيف السبيل؟ آه... أين السبيل... لو أعثر على حجر مدبب من النوع الذي كان جدي الأكبر يستخدمه في الحصول على قوته اليومي... والدفاع عن نفسه، ازاء أحداثه، فأحفر في العمود يضع حفر أو ثقوب... تكفي لأصابع قدمي وحسب... ولكن أين هو الحجر المدبب هذا... كل الأحجار مدوّرة... مكوّرة على نفسها، مثل كرات زجاجية.

في لحظة غضب عارم يتلبسني... بفعل اليأس الذي يحتويني... أنهال على الكرات ركلاً بالأقدام وسحقاً... وضرباً بالأيدي، فيتطاير بعضها كما تتطاير الورود الشوكية... المحمولة على سيقان القلغان ... ولكن شظايا الزجاج تلمس قدمي... وتتساقط فوق رأسي... كنتف من الثلج... أو من القطن المندوف... وقبلما ألحس بقايا دهشتي... واستوعب هذه الحالة الغريبة... حيث قطع الحجر... تتحول الى شظايا زجاج... لتستحيل هي بدورها الى قطع من الثلج المفتت... أو نتف من القطن... تتغير الحالة، أو بالأحرى... الحالات كلها... الى حالة جديدة... أشد غرابة وإثارة للدهشة الصاعقة... إذ يستحيل كلها الى قطع من نقود... نقود... نقود ... نقود معدنية. نقود فضية... نقود ذهبية... نقود رصاصية. نقود حجرية... تنهال على يافوخي من ثقوب في السماء... لاعدّ لها ولاحصر... ولاتلبث ان تحيط بي من كل جانب... فاشعر بنفسي غارقاً في بحر لجبٍّ... صاخب من المياه النقودية... تتقاذفني أمواجه... حتى تكاد تجرفني... فألوذ بجرف صخري مختبئاً، واترك المياه الذهبية والفضية تجري وحدها، حريصاً ان لاأدعها تمسني ناهيك ان تعلق بي قطرة واحدة منها... الى مستقرها الأخير... في جحيم العالم السفلي... يطفي خريرها الخشن، أو بالأحرى،

خرخشتها واصوات احتكاكها ببعضها البعض، على قهقاتي... التي أجاهد لإطلاقها على إثرها... ولكنها تختنق في صدري... قبلما تبلغ حنجرتي المتيبسة... كقصبة ممتلئة بنشارة الخشب... فأندب حظي العاثر... إذ يتضاعف جهلي... بمصيري المجهول.

و... فجأة... وما أكثر المفاجآت... وما أوجعها على النفس... تتغير احوال احجار النهر... مثلما تغيرت احوال احجار القلعة، بتغيرها... هي أو يغيرها لها أحد ما كما يغيّر الممثلون على خشبة المسرح، ملابسهم، أو يغيّرها لهم أحد إذ تتغيّر أدوارهم، تغدو الأحجار... اشياء أخرى ولا تشبه الأحجار من بعيد أو قريب، لا في بناها الداخلية ولا في أشكالها الخارجية... انها تشبه الى حد كبير مجموعة من الخرفان... ترتدي أردية صوفية بيضاء نظيفة... مغسولة بعناية شديدة وأهتمام فائق، تتراكض على أربع قوائم... ترتقي الجسر... تعبره الى الجانب الآخر... مؤديه المهمة التي عجزت الأحجار عن تأديتها... أو مكملة الدور الذي لم تكمله الأحجار، وفقاً للدور المرسوم لكل منهما... قطعان عديدة تتسابق مع بعضها... كما كانت اصولها الأحجار تفعل، وهي تزيد سباقها عنفاً ماتستطيع... كي تزيد إنتماءها الى روح العصر الدموية... فتروح تتناطح في سبيل بضع سنتمرات من المكان... والويل كل الويل لخروف يتلكأ، بسبب كونه طفلاً صغيراً رضيعاً... أو شيخاً مهندماً ضعيفاً. أو لعناد في طبعه وتمرد في سلوكه... إذ سرعان ما يصبح هدفاً لطعنات الحراب الحادة كالمدي، التي تحمله الخرفان في رؤوسها... وإذذاك يغدو الخروف المسكين بين أمرين لاثالث لهما؛ إما أن ينهض على قدميه، عفواً على قوائمه الأربع، متحاملاً على نفسه ومتحمّلاً جروحه، مستمداً منها قوة ما... مثل قوة المقبل على الموت تواتيه فرصة غير متوقعة لحياة إضافية لم تكن في الحسبان... فيطلق قوائمه للريح... أو أن يتلقى طعنات وطعنات أخرى وأخرى ويصطبغ رداؤه النظيف بالدم... ويسقط على الأرض مسحوقاً مُداساً... طريقاً وحيداً مطروقاً لسائر الخرفان... وبعد ثوان وحسب، يمحى أثره تماماً... ولا يبقى من دليل يدل على وجوده الذي كان متحققاً ذات يوم... ولا من إشارة تشير الى الجريمة التي وقعت في وضح النهار... أمام عيون الخلق كلهم... سوى أحذية حمراء ينتعلها إخوته الآخرون... من الخرفان الآخرين الذين سرعان مايبدّلونها بأحذية أخرى

باللون نفسه... ولكن بدمٍ أكثر طراوة وقانيّة... إذا ماتوقف أخٌ آخر له في مكان آخر... من المسيرة الجماعية القطيعية... التي من شروط ديمومتها وأسباب إستمرارها ضرورة ان لايشذ عنها احد... ولا يخرج أو يتلكأ أحد... في الايمان بها... والرضا التام عنها....

من بعيد ألمح... كبشاً غريب الهيئة... شاذ الخلقة... متوجاً بقرنين... اشبه بحسامين يقطران دماً... يصعد ظهور الخرفان... كما لو كانت جسراً معبداً له... كاشفاً، بتعمد، أو زهو، عن أرجل مصبوغة من بدايتها الى نهايتها بالدم. وهو يثغو بعواء متقطع... ويشير بظلفه الذي يسيل دماً... الى جسد خروف ممزق... كأن مجموعة ذئاب غادرته للتو... ويقول بكلام فصيح... هذا عقابي... ابسط عقاب واكثره رحمة... انزله بكل من يخرج على الإجماع الخروفي في عالمي الجديد... هيا... هيا... اسرعوا ولا تتوقفوا...

أصرخ من مكاني، فيتغلغل ثغائي في ثنايا نبرات صوت الكبش الصارخ، القوي، الواضح... أسرعوا... أسرعوا... اسر...

انتبه لنفسي مصعوقاً... ماهذا ؟ ماالذي يحدث لي...؟ هل... بتُّ، اخر عمري، كهفاً يردد صدى اوامر الكبش، وتعليماته الكبشية. وأجيب على نفسي بسرعة، ولم لا...؟ أن وجهة نظر الكبش في المسألة المطروحة على بساط البحث، أعني بساط الواقع والتنفيذ صحيحه جداً... وسالمة مائة في المائة... لايثلمها ولا يعيبها شيء. وما دام الأمر كذلك... فلماذا لاأؤيده... وأضم صوتي الى صوته، أقصد الى ثغائه... واسير خلفه، أنا وعشيرتي، التي لاأعرف منها أحداً، وأهتف له... وأصفق أيضاً... حتى تدمى كفاي... فالأكف التي تصفق طويلاً هي التي يعيش اصحابها طويلاً ورغداً... ثم... ثم... اني إذ أعلن عن تاييدي المطلق أو المقيد له... لا أنطلق من خوف منه... أو من ضرر يمكن أن يصيبني... وإنما... إشفاقاً ورأفة... بحال هذه المخلوقات البائسة النظيفة، التي لاحول لها ولا قوة... يسوقها قدر غاشم عاتٍ... ويقودها الى مجاهل مجهول... لايعرف مدياتها... حتى القدر القائد نفسه، ولكنه في كل الأحوال، وفي أسوأ الإحتمالات والتوقعات... أرحم من تلكؤها... وتوقفها عن المسيرة الكبشية... الهادرة... مشكلاً بذلك عقبة كأداء أمام جريان المياه،

الخرفان... وجعلها... إذ ذاك تفيض على ضفتي النهر... وتغطي الشارع المجدور وتصل قلعه آرابخا... أعلى موضع في القلعة... حيث أقف... كما كان سيدنا نوح... في سفينته... يقف فوق اعلى قمة من قمم جبل زاگروس... هيا... اخوتي... هيا... اسمعوا... نصيحتي ولا تتوقفوا... اسرعوا الى الأمام... الى الأمام... بلا تراجع ولا توقف. ففي توقفكم، مجرد توقفكم، هلاككم المؤكد... وهلاكي المتوقع، فارحموني... ارحموني... ولا تضيعوني مثلما ضيعني أبي... والقى بي، بلا رحمة ولا شفقة، في دنيا الضياع ومتاهاته الخانقة... ويضيع ثغائي، في خضم خرير الخرفان الصاخب، الذي يصمّ الآذان ويغلق كل فتحاتها...

أجل... أجل... خرير... خرير... لا... لا... ليس ثغاءً ذلك الصوت، أو تلك الأصوات المتناغمة الموسقة التي تطلقها حناجر الخرفان والأكباش. أنا من سلالة فلاحية رعويه... ما زال دموزي الراعي العاشق يسكنني ويتنفس تحت جلدي، أميز ثغاء الخرفان من بين ملايين الأصوات... بل بوسعي أن أميز ثغاء الخروف عن ثغاء النعجة... بنفس القوة التي أميز بها تساقط مياه شلال بيخال أو گلي علي بيك. عن خرير نهر جار... فبالرغم من إمتلاء كلّ كياني بأصوات تساقط المياه من الجبال وقممها الشمّاء... ما زلت قادراً... على التعرف بوضوح ودقة على الأنغام التي يعزفها نهر خاصة... وتمييزها عن تلك التي يعزفها نهر سيروان أو يتغنى بها الفرات... أو دجلة... أو الخابور... أو الزاب...

ولكن هذا الخرير، خرير الخرفان هذا، إذ اصغي اليه بانتباه يبدو خريراً غريباً، على مسمعي، في مخارجه الصوتية، وفي مواقع الاستماع ومواضعه التي يختارها، داخل أذني أولاً... ثم متجاوزة إياها حتى تشمل الجسم كله، فيهتز كل مافيه من أوتار قابلة للإهتزاز وترديد الصدى داخل الهيكل العظمي المكتسي بطبقات خفيفة من اللحم والشحم، والمنطوي على قدر ما من المشاعر والأحاسيس، ربما بقصد امتصاصها، ودفنها، ومنع امتدادها الى كائنات أخرى ومخلوقات مختلفة، قد تبنى بينها وبينهم... جسور تفاهم وتعاطف، تعبر فوقها، قوى مساندة تنتصر لها، وتدفع الظلم عنها، ولعل غرابة هذا الخرير تكمن في كونه شبيهاً بذلك النوع من نداءات الإستغاثة التي

تطلقها السفن والبواخر، الآمنة المسالمة الموشكة على الغرق قبلما تغرق، شفرات خاصة لايملك القدرة على فك ألغازها وفهم مراميها، إلاّ أناس محدودون، لايشكلون في مجموعهم، خطراً كبيراً، على الأمور ومساراتها العادية... ومتعهدي الحفاظ على استمراريتها وديمومتها. لهذا السبب، لايحفلون بها كثيراً ويدعونها تنطلق على هواها وهوى اصحابها المخدوعين، حسني النية... طيبي السريرة الذين تبلغ بهم السذاجة حد التصور... بانه ما زال في هذا العالم... احد... يمكن أن يغيث أحداً ويهبّ لنجدته....

تقطع النداء... سكاكين ألم... فتفوح رائحة الدم... توشك أن تخنقني... تملأني بالغثيان... فاتجشأ... وأتقيأ... ولا يخرج من جوفي غير الهواء... فاروح أدور حول نفسي وأدور... لعلي أجد، مهرباً... منفذاً... ثقباً... ألوذ به... أدخله بكل جسمي، ولا تدخله الرائحة الكريهة... ولكن بلا جدوى... فالرائحة مبثوثة في تلافيف الهواء وفي ثقوب الأرض والسماء... وبيأس شديد يتشعب في داخلي، يستقي من الينابيع التي لاتشح مياهها... أتوقف عن الدوران حول نفسي، وفي الوقت نفسه أمنع عيني من جولا تهما العبثية... اللامجدية هنا... وهناك، بحثاً عن بارقة أمل في الخلاص. وأجمد في مكاني... بانتظار مصير محتوم أكيد... أجهل تفاصيله تتجسد كل مشاعري ازاءه في بضع كلمات... تتسلل من تلقاء نفسها... ليكن مايكون... وليحدث ما يحدث... ماذا بوسعي أن أفعل، على أية حال، ومتى كان بوسعي فعل شيء... أي شيء إزاء جبروت الأشياء وطغيانها المدّمر للروح والأمل؟... استسلم للامبالاة صقيعية قاتلة... ولكني إذا كنت امتلك بعض القدرة على جسمي وعيني وأفكاري المنفلتة وأنجح، بعض الوقت، في تجميدها... في الحالة الصقعية التي اخلقها لها. فاني وكما اثبتت الوقائع فيما بعد... لاأملك أية قدرة على أذني وأراني عاجزاً تماماً... عن تحويل ارادتي الى قطعتي فلين أو كمية من القطن... احشوها فيهما... حاجزاً... أمام الأصوات التي تقتحمهما... وتستقر في الأعماق... في النخاع اصوات شتى... هابّة من امكنة شتى... تطغى على خرير الخرفان... بل أن الخرير نفسه، أراه... قد غير أنغامه ونبراته... أو إستعار أنغاماً ونبرات... وأصواتاً... غريبة عنه... عواء... نهيق... مواء... نقيق... خوار... انين... بكاء... عويل... شهيق زفير... الخ... الخ... تتخللها أصوات أخرى... لا

أعرف لها أسماء ولا مسميات... كأن المدينة برمتها قد استحالت الى غابة، شديدة التنوع في مكانها وقاطنيها... أو أن غابة مليئة بكل أنواع الحيوان قد سكنت المدينة، بغتة، وألغت وجودها تماماً... وهي تعلن عن حضورها الطاغي، عبر تلك الأصوات، المتنافرة... الشاذة المتناقضة... التي يستحيل تواجدها في آن واحد، فوق بقعة واحدة.

تتجمع عندي، دفعة واحدة، كل مشاعر الإحباط واليأس والرعب والعجز، ممتزجة برغبة عارمة في الحياة، في ان أحيا وأعيش، وأن لا أنتهي بهذا الشكل البائس، ضحية مجانية، للأصوات المهاجمة، بهذا الشكل الوحشي المقيت، فتتبلور كل طموحاتي في التشبث بالحياة بالرغم من تعاستها، في محاولة اخرى... عزوم لتسلق البوابة، الأمل الوحيد، والطريق الأوحد للخلاص ولكن البوابة لاتزال كما كانت، ملساء تفشل حتى الذبابة في تسلقها والتعلق بها... بل اشعر بها كأنها زادت عما كانت عليه من قبل... كما لو أن أحداً قد طلاها... بزيوت ونفوط الدنيا من جديد... ومع هذا أصمم على التشبث بها، مثلما يتشبث المشنوق بحبل مشنقته، الذي سيلتف على رقبته. وهل يتشبث المشنوق يا ترى، بحبل مشنقته؟ وما أدراني أنا... فأنا لم يسبق لي أن شنقت مرة واحدة، ولا شاهدت أو سمحت لنفسي بأن أشاهد أحداً... يُشنق. وأمل أن لا أشنق... ولا أرى أحداً في حالة شنق... أبداً... ومع هذا فمن يدري... ما دمت أحيا في زمن... يؤرشف الأمل... كأثر تأريخي عتيق... أو يحنّطه... ويرمي به في متاحف المخلوقات المنقرضة جنباً الى جنب، مع هياكل الديناصورات... والماموثات... ويضعه فقرة اساسية من فقرات برامج الزيارات الرسمية وغير الرسمية....

يبث تشبثي بالبوابة، بوابة كرخا بيت سلوخا التأريخية العريقة... المتجذرة في أعماق الزمن، في نفسي وقفة إحساس بالأمان... فأن تحتضن وجوداً ضخماً بهذا القدر من الضخامة والصلابة... وأنت ذلك الكائن الهش الضعيف، مثل ريشة في مهب الزوابع... أمر يمنحك، أو يمنحني أنا على الأقل، ولا شأن لي بك أو بالآخرين... شعوراً بالإطمئنان الروحي. يزرع الثقة بالنفس... ويوطد الأمل في ما بعد الآن... أقصد في الآتي من الأيام... والمقبل من الزمان...

والقادم من الليل والنهار. أملاً في أن تلتقي نفسي نفسي... أن تعانق كفّي كفي... أن تلامس أناملي أناملي... فتذهب عني الوحشة... ويغادرني الإحساس بالوحدة والعزلة... امدّ من طول ذراعي حول البوابة ماأستطيع، وأدخل البوابة الصلدة، بكلّى حتى تشرع عظام صدري تطقطق ولكن بلا جدوى... ولو ربطت بكل ذراع من ذراعيّ القصيرتين خمسين ذراعاً أخرى لما لمست نفسي نفسي... لما شعرت نفسي بنفسي، في هذه المتاهة التي تخلقها البوابة... بين بعضي وبعضي ومع هذا اشعر كأن البوابة تهتز بين ذراعي... هل يعقل هذا؟ احرّك بوابة بذلك القدر الهائل من الضخامة والمتانة والثقل؟ لا... لا... مستحيل... مستحيل... إنه أنا... أنا الذي ما زلت أرتجف وأرتعد... والرجفة التي تسري في كل كياني، والرعدة التي تجري في كل عروقي، هما اللتان تخدعانني وتصوران لي كأن البوابة ترتجف... وهي التي لم تهتز حتى... أمام قوة عواصف الزمان العاتية... وزوابعه الهائجة... ولكن... ولكن... ترتجف بالفعل... ان هذه الكتلة الضخمة من الصخر الزجاجي... الأملس... أو من الزجاج الحديدي الصقيل، ترتجف تهتز... تتحرك....

أشعر بأصابع عديدة تدغدغ ظهري... تحك جلدي من مواضع كثيرة... ألتفت فاذا بمجموعة من الأذرع تلتف حولي... كأنها أذرع اخطبوط غير مرئي... أبذل المستحيل للفكاك منها والتخلص من دبق إلتصاقها... ولكن الأذرع الهلامية، التي يستحيل تقدير عددها... تتداخل وتنجدل... على شكل حبل متين طويل يلتف حولي... بل أن البوابة نفسها قد غيرت نفسها وإتخذت شكل بقرة ... ضخمة هائلة الضخامة... لم تقع عين على مثيل لها... وما بدا لي حبلاً... إنما هو ذيلها، الذي يواصل إلتفافه حول جسمي... بشدة وقوة يتناميان بإستمرار... يعصر لحمي... حتى يوشك أن يمزق أنسجته... وينفذ الى عظامي.

ألتفت يمنة ويسرى... بحثاً عن كائن ما... مخلوق ما... يعينني ويخلصني من هذا الذيل الرهيب... ولكن ليس ثمة أحد... لاأحد البتة. حتى البيوت الزجاجية المكشوفة احشاؤها للرائي، قد تغيرت وإتخذت هيئات وأشكالاً... غريبة....

شرعت البوابة تخور... ثم لاتلبث أن تسعل وتعطس عطسة عظيمة تتدفق

من خياشيمها... نافورات ماء اسود، اشبه بالقار السائل أو النفط الأسود... ثم تروح البقرة... تمطي جسمها المتهدل... وما هي إلاّ هنيهة... حتى ينبت لها جناحان... وتتخذ هيئة الثور الآشوري المجنح... ولكي أتاكد من صحة ماأرى وأحكم على مدى واقعيته... أتلمّس كتل اللحم المتدلية من البطن... ولدهشتي أصرخ... إنها أثداء... أعني ضروع... آه... يا إلهي من شاهد ثوراً بضروع...؟

يجرني الذيل الملتف حولي... يرفعني عن الأرض... ثم يحطّني أمام عينين... تبدوان كبحيرتي دم... فيهما خلق كثير أو... بالأحرى أشلاء خلق كثير... رؤوس مقطوعة... قطع من الكبد ممضوغة... قلوب مفتّتة... جماجم مهشمة... عيون مقلوعة... أيدٍ مقصوصة... أرجل مخلوعة... الخ... الخ...كما أرى بوضوح الى جانب الأشلاء والأجزاء البشرية المقطعة... مخلوقات، بأشكال وهيئات غير مألوفة... تحدث صخباً وضجيجاً كبيرين. كما لو انها في حفلة رقص وغناء وأنس وطرب....

تُخرج البقرة الثورية، أو الثور البقري... من فكيها الهائلتين بساطاً... منسوجاً من صوف خشن... مبلولاً بسائل دبق... يملأني بالغثيان... حين تبدأ تمسح به وجهي... فتتدفق الدماء من وجهي إذ يتمزق الجلد الرقيق الذي يغطيه... تماماً كما كان يحدث، حين كانت أمي، في حمام النساء... تحك قدميّ بحجر أسود تغربله الثقوب... وتكسبه خشونة فظيعة، لاقبل لأحدٍ بتحمل جولا ته العدوانية العنيفة فوق الجلد الرقيق، ربما يكون الحيوان بالرغم من كونه حيواناً... بل بسبب كونه حيواناً، قد رآني بحال وجهي وجلده المدمى... فكفّ عن مسحه بلسانه المبردي الشرس... وأخذ يضرب على ظهري ضربات خفيفة، تنشد المودة وكسب الثقة، وعرض مشروع صداقة وألفة، أكثر من كونها قاصدةً الأذى... ثم تحلق بي البقرة، عالياً... عالياً... وما هي إلاّ ثوان حتى تهبّ عاصفة شديدة، أرى القلعة برمتها، تتهاوى على نفسها... كما لو كانت بناء من خشب، إستوطنته الإرضة منذ زمن طويل. تنهار الجدران الصخرية الزجاجية... وتتساقط البيوت على بعضها. غير أن كتل الحديد والصخر والإسمنت، سرعان ما تتغير احوالها... وتستحيل الى كائنات متحركة... ترتدي أردية من الصوف المصبوغ بالدم... تختال تحت أنوار نيران باباگرگر...

التي توشح المدينة.

إذن فقد صدق حدسي المشؤوم... وفاض النهر... نهر الخرفان الصخور المياه... وغطى الشارع المجدور المرقع. وبلغ قمة القلعة... قلعة آرابخا... حيث كنت أقف... متوهماً... أو متأملاً... ان توفر لي بعض الأمان... من فيضان النهر... وغضب أبسو....

أشعر بإمتنان كبير... لهذه البقرة، التي أرى فيها رسولة العناية الإلهية... بعثها إليّ الإله تموز... حباً بي... لتنقذني من ذلك المصير الأسود... الذي كان يلوح لي، وقد جاءتني في الوقت المناسب... المناسب تماماً.

أبحث عن وسيلة للتعبير عن شكري وامتناني لها... فلا أملك غير ان ألثم بخشوع... الحبل الذي يغلّني... أعني الذيل الذي يلتف حول صدري... تخرج لي البقرة لسانها... إستجابة منها لشكري إياها... تضعه قبالة عيني تماماً، فأرى أمامي سبورة سوداء... كتلك التي كانت تصفع وجوهنا كل صباح، حين كنا تلاميذ ... صغاراً... وتقول لي دون ان تسحب لسانها الى جوفها، أو حتى تحركه اية حركة بنبرة واضحة، ولغة مفهومة... جداً:

إقرأ... فأتساءل متلعثماً... و... و... ماذا أقرأ... ليس على السبورة ما يُقرأ... فتكتفي بترديد. ما قالته، ولكن بصيغة أمر، هذه المرة، أقوى:

إقرأ... إقرأ...

فأمعن النظر في السبورة، من جديد. وألمح نقوشاً ورسوماً ورموزاً لاأظن البشرية كلها، عرفت أو شاهدت لها مثيلاً، منذ الخليقة وحتى غدٍ قريب... فأصرخ بإحساس عارم باليأس والعجز... لاأستطيع القراءة... لا أستطيع قراءة هذه اللغة الغريبة... ولا فكَّ الغازها. تبتسم البقرة... وتهدئ من روعي بأبتسامتها تلك وتقول، نبرة لينة...

أنا أقرأ... اسمعني...

فاستحيل كلّي اذاناً مفتوحة... يشرفنا حضوركم الحفلة المقامة على شرفكم... وبحضوركم تتم لنا الأفراح... ويتحقق الإنشراح... حفلة؟ أية حفلة؟

أتساءل برعب، أهي تلك الوليمة التي كانت الأحجار تسعى لها... ساحقة،

في التنافس والتسابق اليها، بعضها البعض؟

وقبلما... تتشكل أية إجابة في ذهني... تطير بي الغولة أعلى وأعلى... دون أن تحفل... برأيي في موضوع الدعوة...

تحين مني إلتفافة الى القلعة، التي لايزال حنيني يشدني اليه... بالرغم من تحولها الى أكوام من الحجارة... ودخولها بحكم ذلك... الى دهاليز التاريخ ومتاهاته... كأثر من الآثار التي تدلل على بشر ما كانوا هنا... ذات يوم... فأرى الأغنام قد إستحالت الى كتل لحمية تشبه الخنازير... خنازير برية بدينة قذرة، في غاية القذارة والقبح... ترعى اشجار الزيتون والجوز وكروم العنب والبلوط...أو بالأحرى تفترسها وتسحقها سحقاً محيلة المكان... الى صحراء قاحلة، إلاّ من الأشواك والعاگول والخرنوب والصبير... وأرى الناس من عليائي... أشبه بحشرات صغيرة جداً، متناهية في الصغر، تدب على أرجل خيطية رفيعة. ربما أبدو لهم، أنا الآخر، حشرة صغيرة، تطير بها... نحو المجهول حشرة... كبرى... وثم... و...

وفجأة... وما أندر المفاجآت... وما... و... و...

محاولة إقتناص حلم

حشد من المخلوقات، رجال ونساء، شيوخ وشباب، وجوه بشرية واضحة الملامح. وجوه غير بشرية واضحة هي الأخرى، في لابشريتها. جمع هائل من الناس، هائج، مائج، متلاطم يندفع نحو شيء لامرئي. يتدفق من أمكنة عدة... يسيل من مصبّات شتى. سؤال لحوح يسيطر على ذهني، ويفرض نفسه بقوته على اهتمامي، ترى أهي الكائنات الغريبة نفسها التي تغزوني، كلما أغمضت عينيّ. وتلاحقني كدائن شحيح، كلما فتحتهما. وهي تتلون وتتغير، فتتراءى في صورة جديدة، في هيئة متصلبة... كائنات حجرية وصخرية متدحرجة، حيناً، وفي هيئة جراجة... مخلوقات حيوانية، خروفية وبقرية وحتى خنزيرية... أحياناً أخرى. دون أن تستقر على حال، إذ سرعان ما تبدل حالها من حال الى حال... ومنها الى أحوال وأحوال... متباينة، مختلفة، لاحصر لها، وغير ذات علاقة بأصولها وجذورها... بل وغير ذات وشيجة ببعضها البعض. الوجوه التي تسعفني عيناي في التطلع اليها، ومن ثم التمعن فيها وتبين معالمها، تبدو لي وجوهاً إنسانية، أعني آدمية بشرية، ذات علامات مألوفة، تحمل، في بعض تفاصيلها على الأطمئنان. الأمر الذي يشحنني... بقدر غير متوقع من الشجاعة والجرأة، فأندس بين الجمع، أشق لي، خلاله، طريقاً بصعوبة جمّة. وأجاهد في سبيل الثبات فوق المساحة الضيقة التي إنتزعتها قدماي من أقدام أخرى. زحزحت جذوع أصحابها عن مواضعها... ولكني عبثاً أحاول أن أتوتد حيث أقف. أنّى لقطرة ماء أن تثبت أو تقف في خضم موج عات يعدو. فأندفع مع الموج وأعدو. وأتوقف، إذ يتوقف، رغماً عني.

يخطف نظري ويستحوذ على كل أهتمامي، بقوة وإصرار، شاب هزيل، غاية في الضعف والهزال. شاحب الوجه أصفره، بارز عظام الوجنتين غائر العينين، إن كان لابُدَّ أن نسميّ ذلكما الثقبين العميقين الضيقين، عينين. يتقدمهما،

حتى يكاد يغطيهما، أنف ذو فتحتين واسعتين، يبرز منهما شعر كثيف... أشبه بالصوف يتهدل فوق شفتين يابستين متشققتين. تبدوان كضلفتي باب، لم تتذوقا الدهان أو الزيت منذ زمن طويل، تطبقان على جوف فم هجرته. أسنانه.

لا أدري لماذا منحتني رؤيته إنطباعاً بأنه شاب دون الثلاثين. مع أن كل مافيه يصرخ نافياً ذلك، ويقول بكلام واضح مبين لالبس فيه ولا غموض بأنه كهل تجاوز الخمسين... من بين الحشد، تنطلق إمرأة عجوز شمطاء، عارية الرأس، شعثاء الشعر تصرخ وتولول بلغة غريبة، لاأعي منها حرفاً واحداً. ربما بسبب تساقط اسنانها، مما يجعل الكلمات تتشلّل من بين أسنانها كسيل متدفق متواصل بلا سدود أو حواجز، تفصل الكلمة عن شقيقها، حيث ينبغي. فيزاحم بعضها بعضاً... ويسابق الحرفُ الحرفَ، ويخرج الكلام كله دفعة واحدة، تهشم الكلمة شقيقتها... ويحطم الحرف شقيقه. كما هي الحال، في حرب طاحنة محتدمة بين مجموعة من الأعداء العقائديين الذين لاسبيل الى تهدئتهم، لبعض الوقت وحسب... ناهيك عن تحقيق سلام دائم، أو حتى شبه دائم بينهم.

أسأل بعضاً من الذين يمرّون بي... إذ يدفعهم الموج الى مقربة مني... أو يجرفني الموج معهم... عن سرّ هذه اللغة الغريبة التي تضع المرأة احشاءها خلالها وتلقيها مفتتة ممزوجة معها، على رؤوس الحاضرين. فيخيب سؤالي إذ لايحظى بأيّ جواب، ويضيع في خضم الإهمال الشديد الذي يلتف حوله من كل جانب. فأكرر السؤال... وأعقبه بآخر... وآخر فلا تعود سائر اسئلتي بأي جواب. بيد أنها تحضر في الوجوه التي تتصدى لها... علامات دهشة بالغة... تقول لي بلغة فصيحة صائتة... يا حمار هل يسأل أحد نفسه عن أسمه. وإذ ذاك أبتلع أسئلتي... كما يبلع الغريق... في قعر البحر... كمية من الطين...

تواصل المرأة العجوز تسللها... خلال الفجوات القليلة الضيقة التي تعثر عليها... أو تشغرها بين الحشد المتراص... كالبنيان المرصوص بانسيابية والتوائية لاتقدر عليهما سوى الأفعى، حتى تبلغ الشاب. فتلقى بنفسها عليه... تحيطه بذراعيها وتمطره قبلاً، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، دون

أن تترك أو تنسى أي موضع من مواضع جسمه الطويل السامق المنتصب كالقصبة. ثم تمدده، بخفة وسرعة، على الأرض. وتقعد لصقه مقرفصة... ترفع رأسه بعناية شديدة، تتأمل وجهه هنهية... ثم تعود تنزل عليه بالقبل... تصليه صلياً متواصلاً... ومن غير ان تبعد عنه الفوهة... التي تطلق القبل المتلاحقة ... ترفع عقيرتها... إذ يتحرر الجسد المسجى من اطلاقاتها، لفترة وجيزة، صارخة مولولة... فتعود اللغة المنكسرة المنهمشة المسحوقة بين لثتيها وشفتيها، التي لم يسكت رنينها، بعد، في أذني... ولم يجف دبقها بين طيات روحي، لتملأ الفضاء ثانية. بيد أني، هذه المرة، أفهم لغتها. لامن خلال كلماتها وأحرفها، التي لاتزال متداخلة، وإنما من الفعل الذي يعقبها، والذي يسرع البعض منهم بممارسته، بوضع إناء (طست) كبير ملئ بالماء، أمامها. فتتناول ذيل ثوبها الأسود الطويل، تغمره في الماء... تخرجه مخضلاً... تعصره على شفتي الشاب المطبقتين... اللتين تأبيان الإنفراج، فيسبح الماء على طرفي شفتيه.

تسري في جسدي أنا، ولا أدري لماذا، قشعريرة، فأرتجف في مكاني، بينما يظل الشاب نفسه جامداً... كقطعة خشب. لاترتعش فيه عضلة واحدة. يتحلق حولهما خلق كثير، في فضول كبير... يشرئبون بأعناقهم، يدخلون عيونهم في الإناء الذي أوشك أن يفرغ من الماء، ثم لايلبثون إذ تستقر نفوسهم المضطربة، أن يسقطوا جميعاً في خشوع تام، مجللين بصمت ثقيل، مقمطين بوجوم صارم، لاتتحرك فيهم سوى العيون القلقة، التي تنتقل بخفة وسرعة الى كل الأمكنة، بحثاً عن المجهول...

ما هؤلاء القوم؟

أتساءل بيني وبين نفسي... وأجيب نفسي بنفسي وأقول... لا شك أنهم مجموعة أناس بدائيين، لم تهبّ عليهم، منذ خلقوا نسمة حضارة واحدة... فخلت حياتهم من تأثيرها... مثلما يخلو... أقول جازماً، قاموسهم من لفظها وسائر اشتقاقاتهما اللغوية ومدلولا تها الإجتماعية، وهم مجتمعون هنا ليمارسوا طقساً من طقوسهم المقدسة، التي تتطلب من جملة ما تتطلب هذا الصمت الشامل الذي لايتحرر من سطوته وجبروته حتى أنفاسهم التي تكاد تختنق داخل جذوعهم المنطوية على نفسها....

داهمت الصمت المخيم، النابت في أرواحهم (هل لهم أرواح حقاً؟) جلبة وضوضاء عظيمتان، تسابقت عيناي للبحث عن مصدرهما، فاذا بهما تستقران بعد رحلة بحث قصيرة، على رجل طويل، طولاً غير معقول. زاد من لامعقولية طوله، نحافته والقلنسوة الخضراء التي تغيب فيها رأسه. أين كان هذا الرجل العجيب؟ وكيف إنبثق هكذا دفعة واحدة؟ أحسبه قد جاء أو جئ به للتو. وإلاّ لكنت قد رايته، فهيئته الغريبة ليست من النوع الذي يمكن أن يدع النظرات تنزلق من عليه بسهولة. بل على الضد... تلتصق به وتتكوم فوقه، رغماً عنه وعنها وعن صاحبها.

رفع الرجل الى السماء، ذراعين عاريين، خرجا من العباءة التي يرتديها... يغطيهما جلد أبيض تشوبه صفرة... تتوزعه شعرات طويلات، تداعبها الرياح الباردة التي شرعت تهبّ بين آونة وأخرى.

عبر الشق الذي خرج منه الذراعان، أبصر بوضوح جسد الرجل... فيصعقني مرآه... إنه عارٍ، عارٍ تماماً... لايغطي جلده عدا العباءة، شيء... أي شيء. وإثر الوقوف على هذه الحقيقة، يستبد بي فضول قوي، ان أتفحص الآخرين وأتمعن في اجسادهم جميعاً، واحداً واحداً، وفي أجسادهن، كلهن، واحدة واحدة، فأخرج بنتيجة ألوم نفسي وأقرعها لإغفالي عنها، بسبب الغفلة، طيلة هذا الوقت، وتدوي في أعماقي صرخة خرساء... تهتز لها جدران جسمي... عراة إنهم عراة... كلهم عراة... لاتغطي اجسادهم سوى عباءات سوداء شفافة... فضفاضة مشقوقة من جانبيها، بدءاً من تحت الإبطين... الى ما يقارب رسغي القدمين. حتى المرأة العجوز الشمطاء، التي ظننت انها ترتدي ثوباً أسود طويلاً... كما ترتدي عادة... النساء المفجوعات في مثل عمرها الآيل نحو الإنطفاء... أراها الآن لاترتدي شيئاً، عدا العباءة التي تغلف جسدها المتآكل.

إنتزعت نظراتي التي ساقتها رغبة مريضة الى مواضع من جسمها المتهري بسرعة. بقدر غير قليل من الندم والتقزز، ورحت أبحث عن أجساد أكثر طراوة وجاذبية. وبعد جولة قصيرة ولكن متأنية على أجساد فتيات جميلات، شابات في عمر الورود. إستقرت عيناي على كرتين صغيرتين، بحجم كفين صغيرتين مغلفتين. تتقدمان صدر شابة في العشرين، فأشعر بهما، بالرغم من

صغرهما، وربما بسبب صغرهما انهما تخلقان فيَّ نشوة عارمة، تعجز الكرة الأرضية برمتها وبكل اتساعها اللانهائي عن خلق مثيل لها، فامرح في فضائها ... وأغوص في أعماقها، أجوب بحر اللذة الإلهية، التي لاحدود لها... ممتطياً موجاً سحرياً، قوياً صلباً. ولكن وقبلما ابلغ مبتغاي... والتقط بشفتي بعض اللالئ المختبئة التي تناديني، تردعني صرخة زاعقة، فيتهشم الموج دون ارادة مني، بين فخذي... وأقفز الى السطح ثانية. مسطح الصمت والأجساد شبه العارية. لأرى ما الذي يجري، فإذا بالرجل الطويل يحرك شفتيه ويتمتم بكلمات غير مفهومة. وإذا بالناس قد غادروا جمودهم... ووجومهم... وراحوا يتطلعون اليه، بعيون ملؤها اللهفة والترقب ويصغون إليه بآذان مفتوحة الى آخرها، تلتقط الهمسة إن مرت بقربها، بنفس الحرص الذي تطبق على الكلمة إذ تسقط فيها، إلا أن الرجل سرعان ما عاد الى وجومه وصحته وجموده. وسرت حاله سريعاً في الآخرين، فاستحالوا جذوع نخل مقطوعة الجذور والسعفات، ولكن العيون، هذه الكرات الزئبقية الصغيرة التي تستحيل السيطرة عليها وجعلها تستقر على حال، شرعت تتحرك بعنف، ذات اليمين واليسار، يحركها القلق تارة، والتوقع الى سبق الواقع وسبر أغوار المجهول تارة أخرى، إلا أن شفتي الرجل الطويل المغلقتين بإحكام، ظلتا مغلقتين بإحكام، ثم وبعد فترة، لا أدري مداها، استجاب الرجل، لضغط العيون وتملقها، وثقل الاسئلة الصامتة اللجوجة التي تنطوي عليها، فرفع يده الى الأعلى، ورسم حركات هلامية، أشبه بدوائر غير متكاملة، يمكن ان تعني ايّ شيء وتدل على أي شيء. وتأمر بايّ فعل إلاّ ذلك الفعل الذي راح الجميع... يمارسه، إذ سقطوا على وجوههم ساجدين. وظل هو وحده... عموداً مغروساً في أرض صحراوية... ذرات رمالها اناس... ساجدون.

أخذت الرياح تلعب بفضل عباءته السائبة. وراحت شفتاه، أو بالأحرى فكاه. يلوكان كلمات مختنقة... ثم تقذفان بها، في مستنقع راكد... مياهه... أناس ساكتون... صفحته ساكنة، لاتخدشها سوى همهمات المرأة العجوز التي لم تنقطع... ووجيف قلبها المضطرب ودقاته المتتابعة التي باتت تسمع. تقدم الرجل العجوز من الشاب المريض وحمله على ذراعيه، مثلما... يُحمل عود مجوّف. رفعه الى الأعلى. بأقصى ما يستطيع. فنهض الجميع... وقد

استطالت اعناقهم، يرنون اليه. ثم مضغ بضع كلمات اخرى وتفلها عليهم، فخرّ الجميع... خاشعين... دفنوا وجوههم في التراب، بينما جلس هو القرفصاء ممداً الشاب على فخذيه، أشار اليّ رجل من الراقدين، يبدو انه لمحني بطرف عينه وهو راقد... أو لمحني قبلما يرقد واقفاً... ثم تأكد من حالي بأني لاأزال واقفاً... أشار اليّ... أن أرقد مثلهم، أن أمرغ وجهي في التراب مثلهم.

لم أستجب لطلبه، تظاهرت بأني لاأفهم اشارته الخرساء، فشدّني من ذيل سروالي الطويل بغضب، مشيراً الى الحشد الراقد الممرغ وجهه في التراب. رفضت بإصرار أن أتحول الى واحد منهم، مشيراً الى الرجل الطويل، الذي عاد في هذه اللحظة بالذات، منتصباً على قدميه... تاركاً المريض ممداً على ظهره فوق الأرض... وقلت بلغتي الخاصة مع يقيني الجازم، إنه لايفهم حرفاً واحداً من لغتي، مثلما لاأفهم أنا حرفاً أو حتى نصف حرف، من لغته ولغة قومه:

- سأبقى واقفاً مثله.

ولدهشتي البالغة، أجابني باللغة نفسها، لابسة نبرة غريبة، مسحوقة تحت اسنانه المطبقة:

- هو... شيء... آخر.

أجبت مسيطراً على دهشتي، وبلا أنفعال:

- أنا الآخر... شيء آخر.

إمتد... وانطلقت، من بين فتحات اسنانه، التي أخذت تصطك:

- إنقلع يا هذا... إنقلع من هنا.

قلت بسرعة... ولكن ببرود:

- لا... لن أنقلع... حتى ينشلع ذلك الوتد المزروع هناك.

قبض على رجلي بقوة يروم اسقاطي الى جانبه، وإذ عجز صرخ بغضب:

- اغرب عن وجهي... اغرب عن وجهي.

اطلقت ضحكة، بعدما حررت رجلي من قبضته؟

- وجهك... أين وجهك؟ وجهك هو الغارب عنك... وعني... في التراب.

إنفعل كثيراً... وأخذ يرفس ويضرب الأرض بقدميه وقبضته... فأثار غباراً

كشيفاً، ثم تناول حفنة تراب ورماني بها... إلاّ انني ادرت ظهري، في الوقت المناسب، ورحت ابتعد عنه.

قلت في نفسي، سيشي بي... بعدما عجز عن إلحاق الأذى بي... سيشي بي بكل تأكيد، عند من هو أقدر على ماعجز عنه هو، من الخير لي... أن أغادر هذا المكان... ولكن فضولي كان اقوى من الحرص على سلامتي... فاكتفيت بتغيير مكاني... بالقفز فوق الجذوع البشرية الراقدة... متنقلاً بينها. حريصاً، بفعل الخوف، ان لاأدوس على أيّ منها، أو حتى أمسّه.

أمسكت يد بقدمي اليسرى... فجأة، بقوة. كدت أسقط على وجهي. ولكنني... توازنت بسرعة، متفادياً السقوط، وإلتفتُّ، فإذا بفتاة شابة، على قدر كبير من الجاذبية، يتراءى لي جسدها اللدن البضّ، من خلال العباءة... الشفافة السوداء... بلون وردي مشرّب ببياض حليبي. جرتني نحوها بعنف وراحت تخاطبني هامسة، بنبرة ذات جرس خاص... حلو... تزيده بحة في صوتها حلاوة وخصوصية... وتسبغ عليه... وقعاً جميلاً... في نفسي:

- ماذا فعلت... ماذا فعلت؟

ولكي أزيد من استمتاعي بهذا الصوت ونبرته اللذيذة... أتساءل متصنعاً... الدهشة... ومتجاهلاً... ما فعلت:

- وما الذي فعلت؟

أجابت بسرعة:

- ألا تدري ماذا فعلت...؟ أنت تحفر قبرك... باظلافك؟

- أظلافي؟

صرخت بأنفعال... مستهجناً ومستنكراً.

- أظلافك... مخالبك حوافرك... أنت....

- أرجوك... أنا...

- أرقد... يا هذا... أرقد... كما الكل راقد...

جرتني من ذيل سروالي... بقوة... ولكني لم اطعها:

- لماذا لايرقد... هو؟

وأشرت الى الرجل الوتد المنتصب...

- وما شأنك به...؟ لماذا تقارن نفسك به...؟

- لا شيء...

قاطعتني... صارخة بي وهي تجرني... بكلتا يديها:

- أرقد... أرقد... والا مزقوك ارباً... ارباً...

سقطت على وجهي... رغماً عني...

- آه...

تساءلت برقة:

- اوجعتك؟

- أنت جلادة.

- جذابة؟

- قلت جلادة...

واضفت إذ ابصرت ثغرها ينفرج عن ابتسامه:

- أو... أو... لنقل... جلادة... وجذابة... جلادة جذابة...

- شكراً... ماذا بك...؟

- عيناي... امتلأتا بالرمل.

- امسحهما... خذ طرف ثوبي... وامسحهما.

لم أصدق ماسمعت، فقد كان عرضاً أكثر نبلاً مما توقعت. سحبت... عباءتها الى اعلى... كاشفاً عن مساحة من لحم فخذها البض المكتنز، متعمداً فتاججت في داخلي نار... أنستني آلام عيني ورمالها... فشرعت اقترب منها زحفاً... لاغياً الهواء بيننا. ملتصقاً بها تماماً... و... إنزلقت من تحتي بسرعة فائقة مثل سمكة على حافة نهر... وهي تقول بإمتعاض مصطنع وإغراء خفي:

- ماذا تراك فاعلاً يا هذا؟

لا أدري بماذا أجبت، ولكنني أدري جيداً أنني زحفت نحوها، برغبة... متأججة... هذه المرة، وبقصد وتصميم... أن أتسلق الربوة ثانية... وأن أعيد الكرة... وأعيد... فالحرب هكذا... كرّ وكرّ وثم كرّ. كما هي الحياة ايضاً...

والجسور واللحوح... من يفوز، في النهاية باللذات، دفعتني عنها، بطريقة كأنها... تجذبني اليها...

- حذار... يا هذا... حذار.

قلت بأصرار، لا معنى له:

- أنت حلوة.

وسرعان ما إكتشفت أن ما قلته شيء لامعنى له، هو الآخر. وفي محاولة لإكساء كلامي، معنى ما، إلتصقت بها... صرخت بي:

- أقلع عن محاولا تك المراهقية المجنونة... وإلاّ تركتهم يفترسونك.

وابتعدت عني دافنة وجهها النوراني المورّد في التراب الأغبر... فلاحقتها فارشاً لها كفّي تحت وجهها.

- حرام... والله... حرام ماتفعلينه بنفسك... ذرات التاب الخشنة تخدش بشرتك الرقيقة.

سرت أنفاسها الحارة في باطن كفي... تكويها فتشعل في عروقي نشوة عارمة... تحرق كل مخاوفي وترددي... فأتوسل اليها... آمراً:

- انقلبي على ظهرك...

- لا... لا... ما أنت؟ ما أنت؟ آه...

- سوف تخنقني. التراب يملأ فاك...

وتقفز كفي الى الدنيا المتكورة:

- كفى... كفى... أنت رجل فاسد.

تراجعت نبرة الغضب المصطنع في صوتها... وإحتدمت في جسدي الرعدة إذ راحت أناملي المرتعشة تغوص في لذات الدنيا التي تقبض عليها كفي... باستماتة... فيهتز كل كياني ويرتجف صوتي:

- آ آ آ... أنا؟

- وأنانيّ... ايضاً...

فأطرد الهواء الدخيل فيما بيننا... ثانية... وألتصق بها:

- قولي عني ما تشاءين... فأنا منذ اللحظة... عبدك... وأنا...

- المدينة في غمّ عظيم... وأنت لاتفكر إلا بنفسك ولا تبحث إلاّ عن ملذاتك.

- ومن في المدينة كلها... أجدر مني بـ...

- ومغرور أيضاً. مغرور جداً.

- بل ضعيف... ضعيف إزاء نفسي ورغباتها... فساعديني... أرجوك...

- مستحيل... مستحيل.

- ولماذا مستحيل... ثم ما هو المستحيل... لامستحيل أمام...

- لابدَّ أن تنزع المدينة عن نفسها الحداد... أولاً...

- لتذهب المدينة الى الجحيم... يكفيني أن تنزعي أنت عنك الحداد... أعني هذه العباءة التي...

- مجنون... أنت قطعاً مجنون... لايجدي الحديث معك...

رفستني بركبتها في خاصرتي فاطلقت صرخة ألم... بينما أطلقت هي صرخة مبتورة... وإبتعدت عني زاحفة.

أقلعت عن محاولاتي، لم ألاحقها، قبعت في مكاني... أفرك بطني... ريثما يسكت الألم الذي أثارته ضربتها القوية. وخوفاً من أن تفلت مني... نهائياً وتضيع بين الحشد الراقد، حرصت أن لاأدعها تغيب عن عيني. وبينما... اتعقبها بنظراتي، وهي تتسلل زحفاً بين الأجساد الممدودة، ابصرت الرجل الوتد... لايزال وتداً منتصباً في مكانه. والآخرون جميعاً في رقاد... عدا ثلاث رؤوس قد إرتفعت كرؤوس ثلاث أفاعٍ تبحث عن فريسة، تصنع في حركاتها نصف دوائر متتابعة، عادت الفتاة التي حسبتها سوف تضيع مني... من تلقاء نفسها... تحتكّ بي... وتتحدث اليّ ووجهها في التراب... بهمس مسوّر بالسرية والخوف:

- إنهم... يبحثون عنك.

- عني؟

- لو ظفروا بك... لقتلوك.

- لاأعرف أحداً هنا... لم أسيء الى أحد...

- بل أسأت. أسأت الى الجميع...

- كيف...؟ أنا...

– من الخير لك... أن تختفي... فوراً...

– وأنت؟

– ماذا؟

– أخشى أن ينقضوا عليك... ويفتكوا بك، في غيابي.

– لاتحفل بي... أنقذ نفسك.

– لايمكن... مستحيل... تعالي... معي.

– لاتربط مصيرك المجهول... بمصيري المعلوم.

– المعلوم أهون من المجهول. سأبقى معك، لن أفارقك مهما حدث.

– أسمع يا...

ولكنها قطعت كلامها فجأة. إذ بدأ الرجل الوتد يصرخ ويزعق. ويهتز... في مكانه... مثل غصن تعبث به الريح، تساءلت ببراءة:

– لماذا يولول...؟ ما الذي حدث؟ أمات له أحد؟

– هش... هش... انه يتلو صلواته.

– صلواته؟

– هش... هش...

رفع الرجل الوتد كلتا يديه الى السماء. وراحت الرياح تلعب بعباءته بينما راح هو يلعب بنبرات صوته، التي أخذت تعلو وتهبط... وتهبط وتعلو من جديد. وبين هبوطها وعلوّها تتوضح كلمات وتضيع كلمات، تصلني عبارات وجمل... وتتموّه عبارات وجمل... فلا أفهم منها شيئاً:

– يا رب... يا ربنا القادر القدير... يا رب الأرباب الأعظم، هذه حياتنا جميعاً... حياة قوم برمته... قد وضعتها بين يديك. وتحت رحمتك التي... (ضاعت مني الجملة التي تلتها ولم أستطع إلتقاطها) ان المدينة كلها. بكل مخلوقاتها وكائناتها الجامدة قبل الحية والميتة قبل العائشة، تتضرع اليك... وأنت يا (عبارة أخرى ضاعت) وجّه أمرك الى عبدك الحيّ الميّت... بصوتك القويّ المجلجل المتوغل في أعمق الاعماق. وقل له إنهض أيّها الميّت... انهض... فما أنت بميّت... (عبارة أخرى... لم أفهمها جيداً).

وبعدها... سكت الوتد، بطريقة. دراماتيكية غريبة، ربما لكي يعطي كلامه وقعاً خاصاً... مقصوداً. في نفس إلهه الذي يخاطبه. أو لكي يمنح إلهه وقتاً إضافياً... يراجع فيه الربّ نفسه ويشاور عقله، فيما إذا كان يتوجب عليه أن يلبي طلبه أو يرفضه.

أنا، في قرارة نفسي، أتمنى أن يتحقق الأمر الثاني، إذ ما الفائدة في بعث الحياة في جسد ميت... أو عاطل، عاجز عن أن ينفع حتى نفسه... وبينما أنا منكفئ الى داخل نفسي أحاورها... واقلّب الأمور بيني وبينها... غافلاً، أو شبه غافل، عما يجري حولي، فوجئت بأني قد بتُّ محاصراً من قبل الثلاثة الذين كانوا يرتعونني بعيون تقدح شرراً... تحملها رؤوس كرؤوس الافاعي.

ضربني أحدهم، بعنف، على رأسي، ضربني الآخر، على يميني بيساره. بينما اختار الثالث طرفي الأيسر لينهال عليه بيمناه. داخلني شعور بأنني هالك لامحالة... حاولت أن أنهض وأطلق ساقي للريح، بالرغم من كل الآلام التي غزتني. ولكن ذراعي الرجلين إستحالا... طوقاً... سقفاً حديدياً تستحيل زحزحته... فقبعت في مكاني مستسلماً لمصيري الذي كان مجهولاً ً، حتى هذه اللحظة، وقد بات الآن... معلوماً الى حد كبير، منكمشاً على نفسي بلا حول ولا قوة... كفأر في مصيدة، تتربص به ثلاث قطط مفترسة، إلاّ أن صرخة قوية انطلقت، من مكان قريب، انعشت في داخلي أملاً بالنجاة:

– دعوه.

رفعت راسي فاذا الفتاة، فتاتي، على مقربة مني، لايفصلني عنها سوى الرجل الممدود الى جانبي، الذي صرخ هو الآخر، بدوره:

– لابد ان ينال العقاب.

– العقاب؟ لماذا العقاب؟ ماذا فعلت؟ ماذا اقترفت.

– ألا تدري، ماذا اقترفت؟

– أدري اني لم اقترف شيئاً... لم...

– بل اقترفت... وما زلت تقترف... حتى اللحظة.

قالها بنبرة تأكيدية غريبة، أيقنت معها، إن العقاب وبأبشع صوره واقع عليّ لامحالة... ولكن الفتاة... وعيونها المحدقة بي... لاتزال تنعش فيّ الأمل...

وتشحنني بالشجاعة، فتساءلتُ:

- لغز؟ أهو لغز... هل تريدون ان ترعبوني... بالألغاز.
- الألغاز؟ على العكس... نحن واضحون...
- إذن قل لي... ماذا فعلت؟ ماذا اقترفت؟ وما الذي أفعله وأقترفه الآن؟ مما يستوجب العقاب.
- أنظر الى ملابسك... تعرف جريمتك....
- ملابسي؟ جريمتي؟

وكدت أُصعق... أتكمن جريمتي في ملابسي؟ ملابسي وحسب. أخذت أتأمل ملابسي بدقة، كأني أراها لأول مرة. وأردد بيني وبين نفسي... ماذا بملابسي... إنها نظيفة، عدا الأتربة التي علقت بها بسبب أوامرهم الغريبة... ثم... ثم إنها محتشمة جداً... وأنيقة جداً... سروال حليبي مشرب بلون القهوة... وقميصٌ ورديٌ بلون الحذاء الذي إنتعله. منحني وقوفي على هذه الحقائق غير المؤذية لأيّ إنسان... وكون جريمتي متقلصة في ملابسي... ملابسي فقط أنا الذي كنت أتصور بأني قد دست على أقدس مقدساتهم... وإنتهكت حرمة من أشد حرماتهم، جرأة فائقة:

- ماذا بملابسي... يا هؤلاء... إنها آخر موديل... وأنا...
- موديل...؟

صرخت الفتاة، تقاطعني بخيبة أمل. وأضافت بإستهانة:

- من يحفل بالموديلات هنا.

أوضح الرجل الثاني:

- ليس في كل ملابسك نقطة سواد واحدة.

قالت الفتاة، بعد هنيهة تفكير وكأنها تخاطب نفسها، بصوت مسموع:

- تلك مشكلة... مشكلة حقاً.

تحفز الثلاثة في آن واحد، صارخين بإحساس مترع بالانتصار:

- وإذن؟

وتدفقت شهوة الإنتقام من أفواههم، إلا أن الفتاة، فتاتي الحبيبة. أسرعت

تردعهم... بحكمة وتروٍ.

- على أية حال... هي مشكلة غير مستعصية على الحل.

وتعلقت عيناي وكل وجودي بشفتيها القرمزيتين المكتنزتين اللتين ليست فيهما نقطة سواد واحدة:

- قولي... قولي فدتك روحي.
- أأنت على أستعداد لـ...

وقاطعتها بلا أدنى شعور بالمسؤولية... وبلا أي تريث... لمعرفة المطلوب.

- كل الإستعداد... ولكل ماتطلبين.
- ولن تنكث بوعدك؟
- بوعد أقطعه لك؟ (وأضفت بحزن مفاجئ) يبدو أنك لاتعرفين المكان التي بوّأتك إياها... في نفسي...
- يعني؟
- يعني أنتِ الملكة وأنا العبد. أنت تأمرين وأنا أُطيع.
- ذلك حسنَ... حَسن جداً. هاتوا لهَ عباءة سوداء.

كم كان أهون عليّ... واخف وقعاً على نفسي، لو قالت لهم، هاتوا سكيناً وقطعوه ارباً ارباً... أو خذوه وأدفنوه حياً... ومع اني أعرف... حق المعرفة الغاية من طلب العباءة... فاني تساءلت... لكي أمنح نفسي وقتا ما... لهضم فكرة ارتداء عباءة سوداء... ما دام الأمر قد نزل عليّ كالقدر الصاعق الذي لامفرَّ من الرضوخ له:

- عباءة؟ لماذا؟

أجاب أحدهم، لم أتبين أيّهم كان:

- لكي ترتديها... وتغدو واحداً منا...
- آه...

أطلقت زفرة ندم. خرجت الآهة مني على الرغم مني. صرخ الثلاثة معاً:

- أتراك مستنكفاً أن تكون واحداً منا.

أسرعت بالإجابة. وأنا أرى ست كوىً من النار قد فُتحت عليّ:

– لا، لا، على العكس، على العكس تماماً.

ثم بررت ضعفي وخوفي منهم وإنخذالي أمامهم، بطريقة تحفظ ماء وجهي:

– لقد وعدت الآنسة... ولست بالذي يتنصّل عن الوعد.

– جيد جداً... فأنت تبدو...

وابتلع بقية كلامه. غصّ به حتى أوشك أن يختنق إذ علا صوت الرجل الوتد:

– إنه لايستجيب... الرب لايستجيب.

وإنتفت الأفواه المدفونة في التراب... عن صرخات زاعقة:

– والعمل؟ ما العمل؟

ثم تعددت مصادر الأصوات والصرخات وتعددت وتلونت النبرات:

– ابذل قصارى جهدك.

– أنت كاهننا الأكبر...

– بل كاهننا الوحيد... ليس لنا سواك.

– وحدك القادر على مخاطبة الإله.

– إنه... أميرنا... سيدنا... لاحياة لنا بدونه

– حاول... حاول... لاتعجز... لاتقنط...

– خذ حياة ايّ منا وأنفخها في جسده المنهوك.

– خذ حياتي أنا.

– بل حياتي أنا.

– لا بل حياتي أنا...

– بل أنا... أنا... فأنا الأولى... بالتضحية في سبيله.

وظلت الأصوات الصارخة... والصرخات الزاعقة... المختلطة بصخب وضوضاء هائلين، لفترة غير قصيرة، تصك الأذان. ثم... وكما تنزل سكينا مجززة عصرية على رقاب مجموعة من الخرفان لاتنقطع عن الثغاء، والشكوى، والتذمر. ترك كلام الوتد... على الحناجر:

– صمتاً... يا ناس... صمتاً.

وساد الصمت، وبات يُسمع صوت الشهقة والزفرة. حتى مزّقه بنفسه:

– ذلك أمر... يقدره الرب وحده.

فعلت الأصوات ثانية، بصخب وضجيج أشد:

– أذهب اليه واستشره.

– إختلِ به.

– إصعد الى التل وخاطبه... مثلما اعتدت أن تفعل في الملمّات والمحن.

– تحرك... يا كاهننا المبجّل... ماذا تنتظر.

– إنها محنة المحن وملمّة الملمّات...

– من لنا سواك... من لنا عداك... هيا... هيا...

وما زالوا يتضرعون اليه... ويتوسلون... حتى أخذ يتململ ويتحرك... ثم أخذ يسير... دائماً على الأجساد الممدودة المتلاصقة... نحو مرتفع داكن اللون... لايرتفع عن الأرض المستوية المتربة سوى بضعة أشبار. تساءلت في سرى... مستنكراً... أهذا تل؟ ... أيسمون هذا المرتفع الضئيل تلاً... ترى ماذا يسمون التل الحقيقي...؟ ورحت أمعن النظر فيه... ففوجئت بأن تلّهم ليس إلا مجموعة أجساد بشرية... إختارت لنفسها أو أُمرت... أن تتكوم على بعضها البعض... صانعة ما يسمونه... بالتل، بينما تكدست أجساد أخرى. بصورة متدرجة... مشكلة سلماً من بضع درجات يرتقيها الصاعد على هذا التلّ الغريب الذي لايتجاوز كل إرتفاعه المتر... همس في أذني صوت كالفحيح:

– هيا... هيا... إنزع.

– انزع؟

وتلفّتُ مرعوباً، فإذا بأحد الثلاثة، يقدم لي عبارة سوداء... ويقول مطمئناً:

– لكي ترتدي... عباءتك.

– آه.

وخشية أن ينتهك سرُّ آهتي... أسرعت أعلن رضوخي لأمرهم:

– سأرتديها... فوق ملابسي.

– لايمكن. مستحيل. فوق الجلد... ينبغي ارتداؤها فوق الجلد.

كم كانت دهشتي صاعقة حين إكتشفت ان الفتاة، فتاتي هي التي تقول ذلك، أضاف آخر:

- يجب أن لايبقى فيك شيء يختلف عنا... أيّ شيء.
- نحن نريدك مثلنا... مثلنا تماماً.
- هيا... هيا...

قلت بصدق. بنبرة توسل:

- أنا خجول... أخجل من نزع ملابسي أمام الآخرين.
- نحن ننزعها لك.

قالت الفتاة... دون أن تصيبني أية دهشة هذه المرة، وإمتدت ثمان أيدٍ... تنزعني ملابسي... قطعةً قطعة. حتى أحالوني. في بحر ثوان وحسب الى الحالة التي كنت فيها أول ما سقطت من جوف أمي. وبالسرعة نفسها و... وفي بحر ثوان أقل وجدت نفسي داخل عباءة سوداء... تفوح منها روائح منتنة شتى... هي مزيج من رائحة العرق والزنخ والروث... و و... لا أدري ماذا أيضاً... إذ اسرعت بدفن وجهي في التراب... هرباً منها...

- جميل... جميل... انه يتعلم بسرعة.
- ألم أقل لكم؟

قالت الفتاة بزهو... بينما قلت أنا بأسف:

- الفضل، كل الفضل للعباءة، فهي التي تعلم.

إمتدت يسرى الممدود على يميني، ويمنى الممدود على يساري، تربتان على ظهري، تباركان لي موقفي الجديد... بينما راح الثالث يداعب شعري بحنان كما يداعب عم ودود شعر أبن أخيه اليتيم. ثم انسلّ كل واحد منهم بعدما أطمأن كل الإطمئنان الى أنه قد أنجز مهمته خير انجاز... وادّى رسالته، إذ هدى بفطنته أو بقوته وعنفه إنساناً ضالاً الى طريق الهدى... فراح يزحف مبتعداً عني... ربما للبحث عن اناس آخرين من امثالي... وإن كنت أشك في وجود شخص آخر. في هذا الجمع الغريب، يشبهني من قريب... أو بعيد. تنفست الفتاة الصعداء، وهتفت بفرح:

- حمداً للرب الذي أنقذك من شرهم... كانوا يقتلونك لامحالة لولا ... العناية

الإلهية التي...

- وأنت أيضاً... إقتربي مني... أنا مدين لك بحياتي... إلتصقي بي...
- ليس الآن، ليس الآن... لقد عاد الكاهن محمّلاً برسالة الرّب...
- ولكن...
- هش... هش...

إرتفعت الرؤوس، الرؤوس فقط، بينما ظلت الجسوم راقدة، فبدت مثل رؤوس حرباوات، تتحفز لإقتناص ذبابة، وإرتفعت رأسي أيضاً بفضول حالها حال سائر الرؤوس الأخريات، لإلتقاط مضمون رسالة الرب التي عاد بها الوتد الكاهن، الذي توتّد في نفس المكان حيث كان متوتداً فيه من قبل، بمحاذاة المريض المسجّى على الأرض. فتعلقت الآذان والعيون بشفتي الكاهن، الذي راح باشارات خرساء من يديه، ينشر الصمت... دثاراً خانقاً يغطي الجميع... تلتهب تحته اللهفة والترقب، وتتضاعف اوجاع الأعناق التي تحمل الرؤوس المثقلة بالقلق والاضطراب... وبالسؤال الأثقل الأكبر الذي يجول باقدام الوحش في كل الرؤوس.

أخيراً... وبعد أن أطمأن الكاهن الى سكون الجميع... نطق وقال:

- الرب... يطلب... قرباناً.

هكذا... باقتضاب شديد... وبتواصل وفراغات بين الكلمات الثلاث التي لفظها... بتأنّ شديد... ونبرة متهدجة... متشنجة... صرخت، أنا، برعب، بصوت يخنقه الخوف والإستنكار "قرباناً؟"، بينما صرخ الآخرون، مستبشرين ومبتهجين بمن فيهم الفتاة، فتاتي، بصوت واحد... مخضل بالفرح:

- كلنا... قرابين.
- إختر منا... من تشاء.
- إخترني... أنا
- بل... أنا...
- لا... بل أنا...

تناطحت الأصوات وتشابكت، متشاجرة... مع بعضها البعض، في عراك محتدم. بدا لي واضحاً أنه سيكون ضارياً... دموياً. وسيكون ثمة جرحى وربما

قتلى وأشلاء. فيما بينهم... وهم في صراعهم من أجل نيل الشرف الذي يلّوح به الكاهن... لولا أن الكاهن نفسه، قد إستحال، مرة أخرى سكيناً قاطعة لأوتار الحناجر... ومصادر الضجيج والضوضاء:

- صمتاً... يا ناس... صمتاً.

وصمت الناس جميعاً، دفعة واحدة. كما لو كانت أصواتهم صادرة من محطات اذاعية، كثيرة الصخب، وأنقطع عنها فجأة التيار الكهربائي، بينما عاد صوت الوتد وحده، يهدر من جديد:

- إن من تختاره العناية الإلهية وتشمله الرحمة الربانية، وتصطفيه من الخلق جميعاً... لابُدَّ أن يكون شخصاً تتوفر فيه صفات وخصال خاصة.

عادت الأصوات تزعق:

- أنا من تتوفر فيه كل الخصال المطلوبة.
- أمنحني هذا الشرف، فأنا الأولى به...
- آه... لاتدع رحمة الرب تذهب عني... فأنا احمل لها...
- بل... أنا...
- لا... بل أنا...

واختلطت الأصوات وتداخلت من جديد... كما لو كانت أصوات قطيع متنوع من الحيوانات الجائعة المحاصرة... تلوح لها رابية خضراء... أو معلف دسم. مما حملني على الاعتقاد بأن هؤلاء القوم، لايعرفون معنى كلمة "القربان" أو... أو... انها تعني في لغتهم شيئاً آخر... غير الذي تعنيه في كل لغات العالم.

سألت الفتاة، فتاتي، ببراءة جمّه:

- أتعرفون حقاً... من اجل ماذا... تتنافسون وتتسابقون؟
- طبعاً... من أجل نيل شرف القربَنة.
- وأنت مستعدة لتكوني قرباناً... لذلك الجسد نصف الحي، نصف الميت.
- بالتأكيد... ولهذا تراني هنا.
- أتعرفين معنى كلمة القربان؟
- إخجل يا هذا إخجل... من هذا الغرور الذي يحتويك...

- لا أقصد الإستهانة بمعلوماتك... ولكن يخيل اليّ ان...
- هش... هش... الكاهن سيتكلم.

و... تكلم الكاهن:

- إن من إختاره الرب... هو بدر في ليلة تمامه.

سرى في الجميع همس... كما تسري الرعدة الكهربائية "بدر في ليلة تمامه".

- هل فيكم من يرى نفسه، أو يراه سواه، بدراً في ليلة تمامه؟

أوضح الكاهن، متحدياً الجميع، وبحركة سريعة خاطفة، ضممت الفتاة، فتاتي، اليّ... وغطيتها بعباءتي... لبطت... تريد التملص:

- ماذا تفعل؟ دعني... آه... دعني.
- اخفيك عن عيون هذا المتوحش فأنتِ أحلى من كل البدور في ليالي تمامها...

ولا أدري كيف تسلقت لساني عبارة، أمقتها أشد المقت، من كثرة ماسمعتها تتردد في الافلام والمسلسلات المصرية، التي تغزوني ليل نهار بتفاهاتها، التي تصل حد القرف وتتجاوزه:

- ... "أمر أربعتشر" أقصد قمر أربعة عشر.

إنسلّت من بين ذراعي:

- أنت لاتعرف شيئاً... أنت لاتفهم شيئاً.
- أنا؟

تساءلت بامتعاض وغيرة حقيقية على معارفي ومعلوماتي.

- ليس في المدينة كلها... مخلوق بهذا العمر.

وأضافت من بين أسنانها، بحقد:

- انه إختيار خبيث... وشرط تعجيزي... يخفي تحته مزايا أشد خبثاً وأكثر إستحالة.
- كيف؟
- الكاهن نفسه منع الانجاب منذ أكثر من ثلاثين عاماً... فكيف يكون ثمة مولود في الرابعة عشرة، الآن... أو في زمن آخر؟
- كيف؟ كيف؟ بأي حق؟ من هو... لكي...؟ آه انه لحيوان شرير حقاً.

لم تجب الفتاة. فتاتي، فرحت أحثها:

- أجيبي... أجيبي... يا...
- أنت غريب... لايجوز ان تطلع على أسرارنا...

ثم أضافت... بنبرة لؤم وأسف:

- وأنا لا أعرف لماذا... أتحدث اليك... بهذه الأسرار.

قلت... بإحساس بالتباهي:

- لأنك تحبينني، وثقتي بي...

أجابت بدهشة:

- عن أيّ شيء تتكلم. الحب نفسه محظور.
- محظور؟ الحب محظور؟ لماذا... لماذا؟
- لانه... مخالف لتعاليم الرب.
- هذا كذب... هذا إفتراء على الرّب، لاربّ يحظر الحب.
- أسكت... أسكت... لاتثر سخطه وغضبه علينا.
- غضب من... الكاهن أم الرب المزعوم؟

لم تجب، تهربت من الإجابة. وتوجهت الى الكاهن:

- سيدي الكاهن أنت تعلم والرب قبلك يعلم... ان لاأحد في المدينة كلها... بهذا العمر الذي...

قاطعها الكاهن، بغضب شديد:

- الرّب يعلم... وأنا أيضاً... ولهذا فالرّب لايخطئ... وأنا أيضاً لا أخطئ... خلف هذا الجبل...

أكسى صوته نبرة غريبة وأشار الى الأمام... نظرت حيث يشير اصبعه. لم يكن ثمه جبل... ولا مايشبه الجبل. ومع هذا عاد وكرر:

- خلف هذا الجبل، يعيش مخلوقان شاذان عاقان. عصيا أوامر الرّب وخالفا قانون المدينة. وخرجا على شرع القوم، وأنجبا طفلاً... والليلة... الليلة بالذات... سيغدو الطفل بدراً... كاملاً... وقبلما يحل الليل ويكتمل... ينبغي أن يكون... هو... وهو فقط قرباناً لأميرنا... هكذا شاء الرب... تلك

هي مشيئة الرّب... فاسرعوا، أتوني به... حالاً... حالاً.

وإصطخبت الصرخات الهستيرية، من كل حدب وصوت:

- حالاً... حالاً.
- الآن... الآن

وفي لمح البصر تفرّق الجميع... بمن فيهم الفتاة، فتاتي، كلٌّ يسعى الى القبض على البدر ليلة تمامه... قبل تمامه. ظل الكاهن، في مكانه، واقفاً. والجسد مسجى أمامه، حذاء قدميه، بلا حركة... بينما رحت أنا التصق بالأرض... أكثر وأكثر... متمنياً أن تنشق الأرض... وتخفيني بين طياتها عن رشقات عيونه الذئبية التي يبثها في كل مكان. ربما، هكذا... تخيلت، بحثاً عن متقاعس... لم يسرع الى تنفيذ أمره الغريب، قبعت في مكاني حيث أراه... ولا يراني. ارقبه، منقطع الأنفاس، مرتعد الأوصال. أكاد... أختنق. شرع يؤدي حركات غريبة... يتوجه الى السماء تارة، كأنه يستمطرها... ثم يشير الى الجسد المريض، أخرى... ويتمدد الى جانبه... ويعود ينهض... يدور حوله... ثم يسقط فوقه... يلثمه في كل موضع من مواضع جسمه المغطى بالعباءة. لا أدري كم مرّ عليه وهو على هذه الحال... لايسكن ولا يستقر حتى ثار غبار كثيف... غطاه تماماً... فغاب عن ناظري... ودفنت وجهي بكلتا يدي... مغطياً عيني... وإذ شعرت بان الغبار قد أنقشع أو خف، فتحت عيني... ففوجئت بأن الحشد البشري قد عاد الى مكانه... أنّبتني الفتاة:

- لماذا تخلفت عن الجميع؟ كان ينبغي أن تكون معنا.
- أكان الأمر صعباً...؟
- لا. أبواه كانا في الحقل،
- أين هو؟ لماذا لا أراه...
- اوه... لا... لا... لاقبل لأحد برؤيته، نوره يصقع... يُحيل الليلَ نهاراً...
- وأنتم؟ كيف لم يُعْمِ نوره ابصاركم؟
- ألقينا عليه... كل ما علينا من عباءات... حبسنا النور المتدفق منه.

وإذ ذاك... إذ ذاك فقط... إنتبهت... الى انها عارية، وأن الكل عراة... إلاّ أن سواداً أشد حلكة من عتمة العباءات يُغطي الأجساد كلها.

- انزع العباءة... قبلما يكتشف أمرك.

وإمتدت يدها بسرعة، تريد نزع عباءتي عن جسدي. ولكني رددتها بعنف:

- لا... لا... لست مثلكم... لن أكون مثلكم.
- سيفترسونك... يا مسكين... أطعني.
- لا. لا. الكاهن لايزال... داخل عباءته... أنظري... أنظري اليه... التمع نصل سكين بيد الكاهن... أمسك بشعر المرأة العجوز التي... قدمت له راسها...

"سيحزُّ رقبتها" قلت في نفسي، مشفوعاً بأمل أن يفعل " ليته يفعل" ولكن لم يفعل... إكتفى بقصّ شعرها، ثم قصّ لحيته. وأخذ يجدل شعر رأسها... بشعر لحيته... حتى صنع منهما حبلاً... أو ما يشبه الحبل... ثم خطا، بعدما تأكد من طول الحبل... وصلاحيته، لما خطط... نحو العباءات المكومة على بعضها التي تخفي في طياتها أو تحتها، الطفل المسروق من أبويه. طعن بالسكين تل العباءات بقوة. "سيتدفق النور" قلت لنفسي... يحدوني أمل قوى. ولكن... لا... مرة أخرى أخطأت في توقعاتي... وخاب أملي. إذ تدفق بدل النور الوهاج دم أحمر، شديد الإحمرار... فأسرع الرجل الوتد بادخال الحبل المجدول من شعره وشعرها، في الفتحة التي ثغرها... فراح الدم يسيل من الطرف الثاني للحبل، بغزارة، كما لو كان انبوباً مجوفاً... فاندفع، بقوة، نحوه، يدخله في فم المريض... ويطبق على فكيه بكلتا يديه... إخضلّ الحبل بالدم... وأخذ يسيل على إمتداده.

- لاتدعوا قطرة واحدة تسقط على الأرض... وإلاّ أنبتت العشرات من أمثال هذا الوغد...

صرخ الكاهن العجوز... قالت المرأة العجوز بيأس:

- الخرطوم مشقوق. لا سبيل الى تجنب ذلك.
- احذري أيتها العجوز... إحذري...
- وماذا بوسعي... أن أفعل... ان الأمر فوق...
- مصي... مصيه.

أخذت المرأة العجوز. تمسح الحبل من تل العباءات حتى الجسد المسجى بشفتيه... ولكن الدم كان غزيراً، فرفعت عقيرتها بالشكوى مرة أخرى:

- انه غزير جداً... لا أستطيع السيطرة عليه... ليساعدني بعضهم...
- ساعدوها... يا هؤلاء... ساعدوها...

وهبّ أكثر من واحد من الـ "هؤلاء" يلعق الحبل... يمسحه... يلمسه بشفتيه... في كل موضع تطاله يداه... ورأيت بعضهم... يفتح كفيه اناء... يتقاطر فيه الدم... وإذ تمتلأن... يعبّه بشرهٍ غريب... ويعيد الكرة ثانية وثالثة... وينصح القريب منه أن يفعل فعله.

- أليس غريباً أن يمتلك طفل في عمر البدر ليلة تمامه كلّ هذا القدر الهائل من الدم...؟

سألت شارد اللب. وأنا أرقب هذا المشهد الخرافي الذي يجري أمام عيني.

أجابت الفتاة ببرود تام:

- هو طفل شاذ... لايشبه أطفال مدينتنا... على أية حال.
- وهل في مدينتكم أطفال...؟ ألم تقولي إن الكاهن منع الإنجاب؟

تهرّبت من الإجابة، بطريقة بدت لها ذكية... أو مُقنعة، على الأقل:

- أبواه خرجا على قانون المدينة... فخفت عليهما وعليه... اللعنة...

وقفزت بخفة شديدة الى موضوع آخر:

- أنظر... أنظر... لقد دبّت الحياة في الأمير... آه... روحي فداك سيدي... روحي فداك...

إلا أن الذي أثار أهتمامي، ليس الأمير، هذا الميت الذي بدأ فعلاً... يخرج من الموت الى الحياة... وانما تلّ العباءات الذي أخذ يتضاءل ويتضاءل... منكمشاً على نفسه... كما لو كان كيس ماء جلدي... إخترقه سهم:

- بل... أنظري... الى التل... انه يتلاشى... ويكاد...

قطعت كلامي إذ وجدتها تبكي بصمت... بكاء متشنجاً... متقطعاً:

- أتبكين؟

وكأن عقرباً لسعتها:

- ها؟ لا... لا... ولماذا أبكي؟ ومن أجل مَن أبكي؟ أنا سعيدة... سعيدة جداً، بعودة أميرنا العزيز... الى الحياة.

- تكذبين.

قلت بحدة، لم تجبني... أنا الآخر لم أحرص على استمرار الحوار معها... إنصرفت عنها... ولكن صوتها شدني اليها ثانية:

- أنت لم تره... لو رأيته لما لمتني على دموعي...
- أنا لا ألومك... إطلاقاً... على العكس تماماً... أنا...
- انه... يفتت الصخر... فما بالك بانسانة رقيقة مثلي...
- رقيقة؟ أنت رقيقة.

كفكفت دموعها... وإكتسب صوتها نبرة حادة...

- انه بعد كل شيء... يستحق ما جرى له... لقد داس أبواه على قانون المدينة... قانوننا المقدس.
- كفى... كفى... لاأريد أن أسمع شيئاً عن قانونكم... المقدس... انه يشعرني بالغثيان... والتقزز...

رحت أزحف مبتعداً عنها... بإحساس يقيني... بأني لن أستطيع... وحتى إذا استطعت فلاأريد... أن أغفر لها... إنها شاركت في إقتراف هذه الجريمة البشعة.

لاحقتني لاهثة حتى لحقت بي:

- هـ... هل... هل تحتقرني...؟

من شدّة إحتقاري لها، رفضت الإجابة.

- أنت تحتقرني... واضح أنك تحتقرني جداً... مع أنك لاتعرفه... لم تره حتى. ماذا لو كنت قد رأيته... وعرفته... آه...
- يكفي... إني عرفت ما فعلتم به.

شهقت وهي تكاد تختنق بدموعها:

- انه... إبن أختي...
- الأمير... المنافق؟
- لا... لا... الطفل... أقصد البدر...
- ويحك... ما الذي تقولين؟

أخذت تضرب الأرض بقبضتها، وقدميها... على نحو هستيري:

- خائنة... خائنة... خائنة...
- حقاً... أنت لكذلك...
- بل هي... هي... أختي... لماذا خالفت أوامر الكاهن؟
- أوامر الكاهن... أم قانون مدينتكم المقدس؟
- أوامر الكاهن هي قانون مدينتنا المقدس... و...
-إبتعدي... عني... إبتعدي... لاأريد ان أراك... أنا أبغضك...

ودفعتها بقوة... انقلبت على ظهرها، ثم استعادت حالها بسرعة وزحفت نحوي... إلتصقت بي وراحت تمسح بي:

- آه... لا... لاتبغضني... ثمة حقائق لاتعرفها... لو عرفتها... لغفرتَ لي. أنا واثقة انك ستغفر لي...
- لاتلمسيني... لاتقتربي مني... روحي هاتي ملابسي... لابدّ أن أخرج من هذا الكابوس... هيا... هيا... أسرعي...

وفي هذه اللحظة بالذات عاد صوت الكاهن يهدر:

- المعجزة... أيها الأخيار... المعجزة أيها المؤمنون الأطهار... لقد... تحققت المعجزة...

هو و و و و و...

ثغا القطيع بشكل متواصل لفترة غير قصيرة... نهض الرجل المريض منتصباً على قدميه. على الضد مما توقعت، أو بالأحرى رجوت وأمّلت إذ بدا على قدر غير قليل من الوسامة، ولولا ضيق في جبهته وإلتصاق حاجبيه وكثافة شعرهما بشكل يكاد يخفي عينيه، لتوسمت فيه، اضافة الى وسامته... النبل والشرف، لكزتني بمرفقها، وهي تقول وعيناها... مصوبتان نحوه:

- أنظر اليه... تمعن فيه... هل هذا بشر أم ملاك... آه... من لايفدي هذا الملاك الجميل بالروح... ناهيك عن إبن الأخت... آه... لو يسمح لي... بلثم قدميه... قدميه حسب...

تركتني... متوجهة... اليه زحفاً... بينما كان هو منحنياً على يدي الكاهن

المدودتين... يقبلهما... ظهراً وبطناً... ثم يمسح بها وجهه... ويعود يقبلهما... وبعدما إنتهت مراسيم الشكر والإمتنان... أو بعدما شبع منها الرجل الكاهن... أحاله الى العجوز القرعاء... التي باتت قرعاء تماماً، بعدما إنتزعت بيديها البقية الباقية من فروة رأسها... فألقى بنفسه بين احضانها بودٍّ عارم... وإجلال عظيم... ثم راح يمسد رأسها ويقبلها:

– آه... لن أنسى ما حييت تضحيتك الكبيرة في سبيلي... لقد ضحيت بأغلى وأعز ماتملكين... أغلى وأعزّ ما تملك المرأة... لقد ضحيت من أجلي... بشعرك الذهبي... بشعرك الحرير...

آه... آه... شعرها الذهبي؟ شعرها الحرير؟ اية كذبة وقحة هذه... لقد رأيت شعرها قبلما يجتزه لها الكاهن وتأتي هي على ما تبقى منه... بوسعي أن أقول بيقين جازم وبلا أدنى خوف من السقوط في لغة المبالغة... ان شعر خنزير بري ممرغ بسائر محتويات بطنه أزهى وأجمل من شعرها وأكثر رقة... بيد أن السؤال الذي يكاد يصدع جدران جسدي ويلاشى عقلي، هو... لماذا يضطر هذا الأمير الوسيم... أول ما تعود اليه الحياة الى ممارسة الكذب. ولماذا يكون أول كلام نطق به... إختلاقاً بهذا القدر الفظيع من السفالة؟

– لأجلك... يا أميري العظيم... أضحي بكل شيء... حتى بأظفاري... هاك هاك... اقلعها... كلها... كلها... اقطع اظفاري العشرين... كلها...

شرعت تدخل اناملها... الواحدة تلو الأخرى... في فم الأمير، ولا تخرجها إلاّ وهي مدماة، تقطر دماً أسود كثيفاً...

– كلها... كلها... لاتترك ظفراً واحداً... لئلا أخدش جلدك الرقيق... إذ أحك لك ظهرك... فتموت مرة أخرى... وأموت أنا... مليون مرة هيا... هيا... يا أميري الحبيب...

وإذ أتى أميرها الحبيب، على أظافرها العشرة، اخذت تحشو فاه بأصابع قدميها... والأمير الطائع المطيع المفدي... يمضغ الأظفار واحداً واحداً... وأنا انظر اليه مبهوتاً، دون أن أفهم أو أستوعب، فكرة التضحية بالأظفار بالذات... أو قيمتها وجدواها...

توجه الأمير، بعدها، نحو الحشد... مدّ لهم كفيّه... مباعداً بينهما ما

يستطيع. فأقبلوا عليه... يلثمونهما... واحداً بعد الآخر... وقد إنتظموا في صفين طويلين ملفوفين على نفسيهما. وكل من يلثم احدى كفيه... وبعضهم يخاتل ويخادع كي يحظى بتقبيل كلتا الكفين... يعود الى مكانه، مانحاً... صاحبه فرصة نيل هذا الشرف الرفيع، عدا الفتاة، التي لم ترتو من لثم الكفين... بالرغم من انها لثمتهما أكثر من مرة، وإنما أرتمت على قدميه... تزرعهما بالقبل... الأمر الذي حدا بالآخرين، طائعين محبين، أو مرغمين مكرهين، أن يعودا الى أميرهم... ويفعلوا فعلها... حتى لايظهر أحد أمامه... أقل طاعة وخضوعاً... وحباً... للأمير. من الفتاة التي لم تتردد في ذبح إبن اختها فداءً له... وبينما كان الآخرون ممن ينهون تقبيل القدمين يعودون الى اماكنهم... ظلت الفتاة وحدها... لاصقة باحدى قدميه... كذبابة جائعة سقطت على صحن دبس. أبصرت وجه الأمير... الوسيم... يتغير... يتغضن شيئاً فشيئاً. فأخذ يحرك رجله المطوقة... حركات خفيفة أول الأمر... ثم قوية، بعض الشيء، وبكل الإتجاهات. محاولاً تحريرها من الجسم اللاصق بها... ولكن الفتاة ظلت متعلقة بها. ليس هيناً طرد ذبابة لحوح من صحن دبس. إربدّ وجه الأمير الوسيم وإغتمّ. ثم... لم يلبث أن دبّ الضجر في نفسه. وإحتد، مع أنه اميرهم، يفترض... فيه أن يتحلى بطول الصبر... وسعة الصدر... ولكن لكل شيء حدوداً. وما من حال تبقى ثابتة... فقصر صبره... حتى كاد ينفد... وضاق صدره حتى... كادت اضلاعه تطبق على بعضها. فحرك رجله هذه المرة، حركة عنيفة كمن ينظف قدمه من قطعة طين، أو من قذارة ما لصقت بها... في غفلة منه. فسقطت الفتاة على مبعدة منه. شعرت بفرح عارم يغمرني... متشفياً بما جرى لها... وراجيا، من كل قلبي... أن يجري لها المزيد من الإذلال وعلى يد الأمير... أميرها الوسيم... بالذات... إلاّ أن الأمير اهملها تماماً، وتركها حيث هي، كأية نفاية... وسار نحو تل العباءات، الذي تهاوى وانكمش على نفسه، ولم يعد سوى مجموعة عباءات متساقطة على بعضها، أخذ يتناولها واحدة واحدة ويقذف بها الى السماء، فترتفع العباءة الى مسافة قريبة، ثم تنفرش... وتظل عالقة في الهواء... وتطير عباءة أخرى وتنفرش الى جانبها هي الأخرى... وتطير أخرى... وأخرى... وأخرى، حتى تجمع عدد كبير من العباءات الطائرة، مشكّلة بمجموعها، خيمة كبيرة سوداء، تحجب الشمس والهواء... وتخلق ليلاً

أسود خانقاً... ثم وعلى حين غرة، وبلا أي توقع... ارتعدت الخيمة واهتزت... واهتز معها الحشد كله وارتعد، حين صرخ أميرهم:

– حيّ... البدر حيّ.

وإنشقّ جراب الأسئلة، فتدفقت من كل حدب وصوب:

– البدر حيّ؟ مستحيل، كيف؟... كيف؟

– أتكذّب الأمير يا هذا... يا حثالة.

– حاشا لله... ولكنني طعنته بيدي... في قلبه... في قلبه تماماً.

إنطلقت صرخات الإستنكار والإستغفار... والتنصّل والإدانة من كل واحد في الحشد... مختلطة ببعضها البعض... فبدت اشبه بصرخات وأصوات مجموعة غريبة من حيوانات مفترسة... متداخلة. ممتزجة... بلا حدود بينها... ولا فواصل... ولا هوية... تميز اصحابها... ولكني وبالرغم من كل ذلك تبيّنت بوضوح، صرخة الفتاة ونبرتها الزاعقة، المبالغ في حماسها:

– اعطوني سكيناً... أقطع شرابينه، اعطوني سيفاً اقطّعه إرباً إرباً... أعطوني رمحاً أطعنه في قلبه... أعطوني... آه... أعطوني...

لم يعطها أحد شيئاً... ربما لأنهم لم يجهزوا أنفسهم بشئ مما تطلب... أو لأن المفاجأة أذهلتهم، مثلما أذهلتني، ولم يعرفوا ماذا يفعلون... أو كيف يتصرفون، غير أنها لم تيأس... إذ انها مدت ذراعيها وأفردت أناملها. فبرزت أظفارها... على نحو غريب... بدت أشبه برماح وسيوف وسكاكين في آن واحد... وبقفزة واحدة... حطّت عند العباءة الوحيدة المكومة على نفسها... أو على البدر الذي في داخلها... وأنشبت فيها كل اسلحتها وأنيابها... وراحت تنهشه نهشاً... وبين آونة وأخرى تتلفت الى الناس المتحلقين حولها... تستحثهم وتدفعهم الى مشاركتها في الوليمة:

– هيا... كلوا... هيا اشربوا... كلوا لحمه... اشربوا دمه... اقضموا عظامه... تعالوا... تعالوا...

وإذ توقفت عن قضم العظام... لتقذف بالكلام... أو تتوقف عن قذف الكلام... لتقضم العظام... تتساقط من فيها الذي إصطبغ بالدم نتف من اللحم وفتات من العظام... فتسرع الى لمّها ودفعها... ثانية الى جوف فمها...

ومثل مجموعة هررة، يكاد الجوع يقتلها، وقعت فجأة على عصفور مقصوص الجناحين... راحوا يفترسونه بشراهة. حتى إذا انتهوا منه، مسحوا أطراف أفواههم... بأكفهم السوداء، من آثار الدم، ومسحوا وجوههم السود من العرق المتصبب من جباههم الكلبية.

تقدمت الفتاة... بزهو وخيلاء... كمن أدى عملاً بطولياً خارقاً. وبات أهلاً لمجد وثناء، مابعدهما مجد ولا ثناء، من الثلاثة، الكاهن اولاً... ثم العجوز ثم الأمير... أميرها... الذي لم تكتف معه بتقبيل اليدين، مثلما فعلت مع الاولين، إذ سقطت مرة أخرى على قدميه... منتقلة من اليمنى الى اليسرى... ومن اليسرى الى اليمنى:

– سيدي وأميري... إنتهى... تلاشى... الى الأبد... وأنا...

أدرت وجهي... وأغلقت أذني... فلم أعد أطيق النظر الى وجهها المشبع بالخيانة... ولا الاستماع الى صوتها الفائح برائحة الدم...

متقززاً من كل ما ومن حولي... نظرت الى المكان الذي وقعت فيه الجريمة... لعله المكان الوحيد، النظيف، الذي يمكن أن يستغرق فيه المرء. بدا لي اني ارى عموداً مصنوعاً من الضباب يتصاعد... تبعثه... بناظري وعقلي وقلبي... وما هي إلاّ ثوان حتى انقشع الضباب عن دائرة... شبه متكاملة... أو بالأحرى قيد التكامل... حققت من داخلي... البدر... آه... البدر... يكتمل... يأبى إلاّ أن يكتمل... وبالرغم من أن صوتي الداخلي الصارخ... لم يتجاوز جدران جسمي... فقد خفت أن يسمعني أحدهم... فرحت أتلفت بخوف وقلق... وحمدت الله... أن لاأحد... حافل بي... أو بدائرة الضوء التي تتكامل... فالكل ساجد أمام الأمير... تحت قدمي الأمير... على نحو أكثر دقة...

تشكل الضوء... على هيئة بدر... فعلاً... إلتصق بسقف الخيمة... خيمة العباءات المفروشة في الفضاء. ثم اخترق الخيمة وليلها... دون أن يشقها... وأخذ يصعد... ويصعد... مبتعداً... الى السماء الأرحب... والأوسع... والأبعد... بقعة ضوء مموهة... تكاد تضيع من عيني... فتساءلت بريبة حقيقية، هجمت عليّ... أحقاً طار البدر؟ نجا منهم فعلاً؟ أم أن الوهم... يجسد لي أملاً واهياً... ولكن مصيرياً لحوحاً، يعتمل في داخلي... ويستحوذ على كل كياني... أن

يكون هذا الطفل أقوى من كل صنوف الموت التي يتعرض لها... أو يعرضونه لها... ولكي أتثبت من حقيقة الأمر... أتأكد من الحدود القائمة بين الوهم والأمل... بين الواقع القاتل الوحشي الذي أعيشه فعلاً... وبين الحلم الذي أتمنى أن أحياه واقعاً بديلاً... سألت جذعاً ممداً الى جانبي، بعدما أمعنت النظر في ملامحه... وتوصلت الى قناعة بأني يمكن أن أثق به... وأطرح... سؤالي عليه ببراءة:

– ماذا حدث للطفل... يا صاحبي...

أجاب على سؤالي، كمن صعقه تيار كهربائي، بسؤال يعلن عن جهل... أو... تجاهل تام...

– الطفل؟ أي طفل...؟

قلت بنبرة واضحة:

– الطفل البدر... البدر ليله تمامه.

ثم أضفت بمودة... محاولاً تهدئة روعه... ومطمئناً إياه بأني لا أرمي الى سرقة افكاره والوشاية به... كما قد يتبادر الى ذهنه:

– لقد رأيته... مثلما رأيته أنا... ياأخي...

سقط في إرتباك شديد. كما لو كان قديساً ضُبط في عمله زنا بالمحارم:

–لا... لا... لم أرَ شيئاً أي شيء.

– أنت تكذب... تكذب بسفالة.

رماني بحفنة تراب، وإندس بين الآخرين زاحفاً مثل صلٍّ أسود... دنوت من آخر... كان مستلقياً على ظهره... يراقب السماء خلال ليل العباءات... ساهماً... وهو ينظف اسنانه بظفره. طرحت عليه السؤال نفسه، أجاب دون أن يلتفت نحوي أو يتوقف عن تنظيف اسنانه، كأن لم يشعر بوجودي... ولا سمع سؤالي أساساً:

– ضاع... الطفل ضاع... الأمل ضاع... أملي ضاع... أمل الجميع ضاع...

أدركت أن الرجل يهذي... وهو يحاور نفسه. بيد أني لم أطق صبراً...

– أملك؟ أمل الجميع... لقد رأيتك تمضغ لحم أملك... وأمل الجميع...

وكالهارب من تنّين يصليه حمماً... إبتعد مذعوراً:

– دعني... دعني... مَن أنت؟ مَن تكون؟ ماذا تريد مني... ما شأنك بي...

وظل يتلوى بين أقرانه... حتى إختفى عن ناظريّ... مختبئاً بين الجذوع الممددة على الأرض، جذعاً آخر، لاسبيل الى تمييزه أو التعرف عليه تسلقت الفتاة قامة أميرهم، أميرها... بولَه، وأخذت تتلمس وجهه:

– سيدي، روحي فداك، ما لي أرى وجهك لايزال شاحباً.

– أشعر أن الخطر... ما زال يحدق بي، مختبئاً في مكان ما...

أجاب الأمير بنبرة أسى... وعيناه تجوبان كل مكان. أسرعت الفتاة... تنفي ذلك... بقوة وتبين... كما لو كانت هي شخصياً بعضاً من مصادر... ذلك الخطأ الذي يعنيه:

– لا... لا. لاخطر يتهددك... صدقني ياأميري... صدقني...

ويبدو أن الحرارة التي انبثقت من نبرتها... جعلت الامير يقول:

– أصدقك... أصدقك.

– آه... يا حبيبي... آه... ذلك كل ما أتمنى وأرجو في حياتي...

حبيبها؟ وأنا الذي كنت أحسب أنها تحبني... ولاتحب سواي، كتمت غيضي وقلت من بين اسناني... معزياً نفسي... ليكن... ليكن... ما لي وحب مخلوق بهذا القدر من البشاعة... وأضفت بكره شديد... وأنا آراها، قد امتزجت به... بأميرها، في قبلة طويلة... وعناق يلاشى بينهما الفراغ.

أشحت بوجهي عنهما... ولكن ما هي إلاّ ثوان... حتى صرخ الكاهن:

– البُنّيه... البنّيه...

وتعلقت العيون كلها، ومن بينها عيوني بالفتاة... فإذا السواد عنها... ينقشع... ويعود اليها بياضها... الذي لم يلبث ان أخذ... يصفر ويصفر... ويشحب حتى غدا بلون السلّ.

– انها تذوي... البنت... تذوي... يا ناس.

هدر الكاهن ثانية. كانت الفتاة تذوي فعلاً. مثل تمثال من الشمع أمام جسم متوقد... علا صوت الكاهن، هذه المرة، مولولاً... منتحباً:

- ابنتي... يا ناس... إبنتي... آه... افعلوا شيئاً من أجل ابنتي. أنقذوا لي إبنتي...

لكمت المرأة العجوز فاه وهي تزأر:

- أخرس... إنها ابنتي أيضاً... مثلما هي إبنتك... وأنا قد وهبتها... قرباناً... لأميرنا...

وقعت في دوامة مشوشة من تفكير أشد تشوشاً... إبنتها... إبنته... يعني هي زوجته... زوجة الكاهن... ثم... ثم... هي... الفتاة... الداعرة أخته... أخت الأمير... ولكن كيف؟ أخته وتلك القبلة النارية الماجنة التي أهارت جبل الجليد... اذابته في بحر ثوان؟... ألا... ماأغرب ماأسمع وأشاهد...

تساقطت الفتاة، عند أقدام الأمير كومة عظام محشوة في جلد. صرخ الكاهن:

- لقد شربها... ويلتاه... شربها... شرب روحها... آه... آه... تدبّروا... أموركم... يا ناس... انقذوا ارواحكم... يا...

أطلق الكاهن، أثر تحذيره... وقبلما ينهى تحذيره... ساقيه للريح... ولكن ذراعي اميرهم الطويلين... أطبقا عليه. ككماشة من حديد وأعاده اليه... ثم طوقه بقوة وراح يعصره عصراً... لم يكن في جسد الكاهن الناحل قدر كبير من اللحم، بقي عظامه التي راحت تطقطق كمجموعة اعواد يابسة. خرج منه أنين ضعيف... لايكاد يسمع:

- آه... انقذوني... انقذوا كاهنكم المسكين... الذي يخدمكم منذ خمسين عاماً... آه... آه... آ...آ...

لم يحرك أحد ساكناً... فقد خنق اميرهم بسرعة... بقية كلامه... مثلما خنق أنفاسه... أو بالأحرى إمتصها... بشفتيه المطبقتين على شفتيه، ثم قذف بقايا الجسد المفتت... بإستياء شديد... أمام قدمي العجوز القرعاء...

- يابس... ليس فيه إلاّ القليل من الدم.
- ولكن فيه الكثير من المعرفة... والكثير الكثير... من المكر والحيل، وأنت قد تشربت كل ذلك... وصرت جديراً... بأن تكون كاهننا... الأوحد الممجد... الى الأبد...

قالت ذلك... وألقت بنفسها على قدمي كاهنهم الجديد...

تمنيت من كل قلبي، ودعوت الله في سرّي أن يحقق لي امنيتي هذه... ان يفعل بها... بأمه... ما فعله بأخته وأبيه... أن يمتصها ويلقي ببقاياها نفاية للكلاب، وأن يظهر من بين الحشد، أو من مكان آخر، بقدرة قادر، من يفعل بالأمير نفسه ما يفعله هو بالآخرين... وأن يظهر ثالث ورابع... وعاشر وألف... حتى يأتي بعض هذا القوم الغريب على بعضه، وينقرضون الى الأبد... وتتطهر الأرض والذهن منهم ومن أمثالهم... فيتلاشى ليل العباءات الأسود الذي يحجب السماء والنور والهواء ويعود البدر... يختال بضوئه... يحيل الليل نهاراً آخر...

ولكن... يبدو أن خيبة الأمل قد عقدت معي... ومع كل أمنياتي ورجائي وعلى الرغم مني، زواجاً كاثوليكياً... لاسبيل فيه الى الفراق المؤقت، حتى ناهيك عن الطلاق، أو ماشابه. إذ إنحنى الأمير الكاهن على العجوز القرعاء... وعانقها بحنان مفرط...

- لا. يا أمي الحنون لا. لاينبغي أن تركعي على قدمي إبنك... إن ذلك كفر بالامومة... خرق لقدسية الأم ومكانتها.

قال ذلك... وانهال على يدي وقدمي العجوز بالقبل. ولكن العجوز... القرعاء التي لم تبق شعرة واحدة في رأسها... أقسمت:

- وحق كل شعرة أحالها الرب، رافداً مدّك بالحياة، يا كاهني المقدس... لن تفعل ذلك...
- دعيني يا أمي المقدسة، دعيني... فأنا ابنك قبلما أكون كاهنك...
- بل أنت كاهني وأبني وسيدي وأميري وأبي وأمي... وكل ما هو مبجل ومقدس في حياتي... أرجوك... أرجوك...

رضخ الكاهن... إبتعد عن العجوز القرعاء، بضعة أشبار، أنحنى أمامها بضع مرات... ورفع يديه... مستسلماً... طائعاً:

- أمرك... يا سيدتي... أمرك... أنا طوع أمرك...

سرت في الحشد موجة همس مسموع:

- يا له من أبن مطيع...

– ما أشد رأفته بأمه.

– قديسان... انهما قديسان حقاً...

وزعق صوت جهوري:

– تحيا الام المقدسة.

فتردد الصدى بين الحشد... زعيقاً أقوى:

– تحيا... تحيا... تحيا...

ولكن العجوز القرعاء... زعقت زعيقا أشد... فطغت على الأصوات جميعاً:

– لا... لا... يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس...

فتبعها الحشد القطيعي بسرعة غريبة:

– يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس... يحيا الكاهن القديس.

– يحيا... يحيا... يحيا...

ساد الجمع لوقت غير قصير، هرج ومرج... هتافات... صرخات... صيحات... نداءات... زغاريد... تهاليل... تصفيق... هلاهل... من كل حدب وصوب... حتى أشار الكاهن، بيده النحيلة الطويلة... إشارة خاصة فسقط الجميع على وجوههم ثانية، بمن فيهم العجوز القرعاء، تأمّل الكاهن الجمع هنيهة، وإذ أطمئن الى الحال... راح يتجول بين الاجساد الممدودة على الأرض... وأنشز على بعضها بقدميه... قافزاً فوق بعضها، بشموخ وكبرياء...

إشتد بي الهلع... وإحتواني الرعب... ماذا لو داس على ظهري، أنا الآخر، بقدميه اللتين تقطران دماً؟ ماذا سيكون ردّ فعلي؟... كيف ينبغي أن يكون؟ و... و... وماذا بوسعي أن أفعل وأنا في هذا الجمع المسحور، ... الذي سلبت قوة ما... إرادته، حين سلبت عقله... واستحال جمعاً متوحشاً، لايتورع عن شيء... يحركه مخلوق شاذ تقوده رائحة الدم... وشهوة القتل؟ لاشيء. لابُدَّ أن أقرّ بضعفي. ليس بوسعي أن أفعل شيئاً، غير أن أبتهل الى الله العلي القدير... وأصلّي... بكل مافتقر اليه من حرارة الإيمان... ان يشملني، رغم ذلك، برحمته الواسعة... ويحميني تحت جناح عنايته الإلهية... ويعمى عنيّ بصره بقدرته الخارقة... ربي... إلهي... اعمِ عني عين كل ظالم... وهذا الظالم بالذات...

فهو خلاصة كل ظلم العالم وظلامه وقسوته....

ظللت أردد، في سري، كل ماأحفظ... أو بالأحرى كل ما تسعفني به الذاكرة المرعوبة المشوشة... من ادعية وآيات وأقوال و... و... وأنا أدفن وجهي في التراب... أرقبه بخوف متعاظم، من زاوية عيني... مختنق الأنفاس، واجف القلب... مرتعد الأوصال...

لا أدري كم طال الزمن... فقد كنت مقذوفاً خارجه... مشلولاً، عاطلاً عن أية قدرة على الإحساس بخطواته... حتى... أبصرته يعود الى مكانه... فتنفست الصعداء....

– ارفعوا رؤوسكم...

صاح بالجمع الراقد، فارتفعت الرؤوس مباشرة... كما لو كانت رؤوس دمى يحركها نابض آلي:

– افتحوا عيونكم... افتحوها جيداً.

بسرعة وبالحركة الآلية نفسها، جحظت العيون... ترنو الى المجهول.

– حدقوا في عيوني... في عيوني تماماً.

واتجهت العيون... الى عينيه المفتوحتين بجرأة تقرب من الوقاحة.

– لا، لا، لاتدهشوا، ثبتوا عيونكم في عيني... أجل... هكذا... هكذا...

شرع الكاهن، يؤدي بيديه حركات بهلوانية، فتساءلت بيني وبين نفسي... ياترى ماذا ينوي أن يفعل بهم... هل يمارس معهم مزيداً من طقوس السحر... ليسير الى اقصى ما يستطيع في سلب عقولهم؟ أم يعمد الى تنويمهم مغناطيسياً... ليلغي البقية الباقية من ارادتهم ويسهل قيادهم ودفعهم الى تنفيذ مهمة أخرى... من المهام الشريرة التي يسوقهم اليها مسوقاً؟ على أية حال، وأياً كان الأمر، ينبغي أن أتجنب النظر الى عينيه... إنّ لعينه، لابُدَّ أن اقرّ في النهاية، تأثيراً غريباً ينطوي على قوة روحية طاغية... يصعب الخلاص من أسرها.

أخذت ازوغ ببصري عنه... أغمض عيني تارة، أسدّهما بكلتا يدي تارة أخرى... أدقهما في الأرض... وبين الفينة والفينة. أختلس اليه النظر لأراه...

لايزال مفتوح العينين... يصبوب سهام نظراته وسمومها الى العيون المحلقة به، متنقلاً من عين الى عين... دون كلل أو ضجر....

- أنتم قوم خطاة...

يضعها في عيونهم، التي لابُدَّ أنها قد اتعبها، مثلما اتعب اصحابها، طول التحديق والامتناع عن الرمش، دون اي وجل، وبلا أدنى اهتزاز في نبرات صوته... ولم يكتف بذلك، بل أردفها بعدة طلقات:

- أنتم مثقلون بالخطايا... والذنوب... والجرائم.

حسبت أن الاشلاء ستطاير، لهول وقعها، قنابل على رأس الكاهن، أقوى وأشد فتكاً، من التي ألقاها... فتمحقه من الوجود كردّ فعل طبيعي... لهذه التهم التي يلصقها بقوم، يعتبرون انفسهم أكثر طهراً ونقاءً من سائر قديسي الأرض مجتمعين.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث... بل، على الضد، إذ أن العيون أسدلت أجفانها في ذلة، وراحت تدفن نفسها وأصحابها تحت الاقدام. مستعدين لتلقي المزيد من الصفعات على وجوههم ومن الركلات على مؤخراتهم، صاغرين. ولم يبخل عليهم كاهنهم المقدس:

- انتم تأكلون المال الحرام. وتزنون بالمحارم... و... تخفون الأسرار...

لم يجرؤ أحد على رفع رأسه... رددت في سري... إزداء الصمت السخيف الذي ساد... حقاً... "مالجرحٍ بميتٍ إيلام".

إنبرت العجوز القرعاء:

- صدقت أيها الرائي العظيم... صدقت أيها الكاهن المقدس... اننا كذلك... اننا كما تقول.

سرى اعترافها بين الحشد الميت، سريان النار في الحقل اليابس فالتهب الجميع... صارخين... زاعقين... مولولين... ملقين انفسهم باقصى درجات الإحساس بالذنب... في نار الإعتراف... مصممين... على الإحتراق في أتونها، صادقين وكاذبين:

- صدقت... اننا كذلك... نحن كما نقول...

في الوقت الذي كان الحشد ينتظر من كاهنه الغفران والسماح... أجاب هذا بسرعة...

- وأنا لا أريد قوماً كذلك... لا اريد قوماً مثلكم...

قالها كمن يقول... أنا لا اشتري بضاعة فاسدة، ثم لملم عباءته وادار لهم ظهره... بطريقة تمثيلية بارعة... لايقدر عليها إلاّ ممثل بلغ غايته في التدريب والاتقان والابداع. فاحبط بيد الجمهور، وجاء الانقاذ مرة اخرى من يد العجوز القرعاء... إذ تشبثت به متوسلة:

- سيدي... لمن تتركنا... من لنا سواك؟

رددت الجوقة وراءها بصوت واحد:

- لا أحد... لا أحد...

فتحمست العجوز القرعاء:

- سيدي طهّرنا... أعد خلقنا من جديد... اجعلنا كما تريد...

تمهل الكاهن... توقف هنيهة... مفكراً، ثم التفت اليهم... اطلقت العجوز القرعاء زغردة... إذ لمحت ظلال ابتسامة رضا على شفتيه. وسرعان ماإنطلقت. عاصفة من الزغاريد والهلاهل... تصم الآذان بهديرها المتواصل... حتى اسكتها الكاهن باشارة من يديه:

- اتعرفون الطريق الى التطهير...

تعالت الأصوات.

- نعرف أنها شاقة ومضنية...

- ... إنها طويلة... مزروعة بالأشواك. نسير فوقها حفاة.

- ولكننا... أهل لها...

- ستجدنا... كما تتمنى... أن نكون.

- إختبرنا... إمتحنا...

تساءل الكاهن:

- أتدرون... بمَ تبدأ والى ماذا تنتهي؟

تعددت الاجوبة وتباينت... تشعبت الآراء واختلفت... وأخذت تتوغل في

صحاري الجهل... وهو صامت ازاءها... لايحرك سوى سبابته ان لا، لا، لا، حتى عجز الحشد عن الأجابة الصحيحة... واقروا بعجزهم... وصاروا يرنون اليه... بعيون ملؤها التوسل والرجاء... أن يخلصهم من هذه المتاهة التي سقطوا فيها... بينما راح هو يطيل صمته... يطيل عذابهم وضياعهم... قبلما يشفق عليهم ويقول:

– تبدأ من العين... وتنتهي بالروح.

لم يزد ايضاحه... حيرتهم إلاّ حيرة... وجهلهم إلاّ جهلاً... وقد ادرك هو ماأحدثه فيهم من إرتباك... وإضطراب في النفوس والعقول:

– عبر عيونكم... أبصر أرواحكم... أقرأ صفحاتها وسطورها... ومافيها من كلمات وحروف... لاتخفى عليّ خافية... اخطف الخاطرة التي تمر ببال احدكم، قبلما يدركها صاحبها نفسه، اكشف النوايا على الخفايا، اسمع الهمسة الخرساء التي تحملها ألسنتكم قبلما تبلغ اطرافها. اسمعها وهي تتلجلج في صدوركم... أو تختنق في حناجركم...

شمل السكون الجميع... وساد صمت مشحون بالتوتر الأخرس... بثُّ اسمع خلاله العيون... وهي تبادل النظرات... كرسائل شخصية بحت يتبادلها عشاق في مناخ قبلي متخلف مقيت... تسأل وتتفسر... عما يتوجب فعله... وكيف ينبغي فعله...؟ ولكن الصمت طال... دون أن يجرؤ أحد على خدشه... حتى تطوعت العجوز القرعاء بنسفه:

– ما بالكم أحلتم عيونكم الوقحة ألسنة جبانه؟ اتظنون انفسكم قادرين على خداع كاهننا المقدس... الرائي الأعظم...

– خاب من يعتقد ذلك... كل دواخلكم وما تضمرون اوراق مكشوفة أمام عيني... ولكني افضل ان اسمعها منكم... كي تتطهروا منها... كي تغتسل ارواحكم من ادارتها... بماء الاعتراف المقدس، وتعودوا بعدها... أناساً مقبولين في حظيرة الأعلى...

وأشار إشارة خاصة الى السماء... فخرّ إثرها الكل ساجدين، فنزل سؤال العجوز القرعاء... سياطاً خرافية عليهم...

– من يخف شيئاً... ليتقدم للإعتراف به.

فهبَّ الجميع، يتدافعون بالمناكب... يتنافسون... للإستحمام تحت شلالات الإعتراف وحممه، واحداً بعد الآخر... وواحداً قبل الآخر. فإستمعت وأنا في مخبأي الى إعترافات يشيب لها شعر الرأس... تخجل منها الآذان... ينبو عنها أرذل انسان... يترفع عنها حتى الحيوان، بعضها صحيح كما يبدو... وبعضها مختلق واضح الإختلاق، وكل من ينهي إعترافه، تقتلع العجوز القرعاء، شعرة من راسه، تغرسها في شعرها... وفي أغلب الاحيان تقتلع أكثر من شعرة من الرؤوس التي اقترف اصحابها أكثر من ذنب أو إثم. فتلبست رأسها القرعاء بالشعر حتى غطاها... شعور مختلفة الالوان... متباينة الاحجام. فبدت كساحرة شريرة من الساحرات التي تتراءى في الأحلام... أو... تظهر في الأفلام... بينما غدت الرؤوس الاخرى، أو معظمها، عارية ملساء... إلاّ من بقع دم متخثر... تشكل نتوءات صغيرة... توزعها هنا... وهناك... وبعضها غطاها الدم الاسود... تماماً...

ضاقت رأس العجوز بالشعرات التي زرعها فيها... فراحت تزرعها على جسدها... تدخلها في مسامات جلدها المتقرن... حتى تسربلت وإختفت تحته... وصارت غولة حقيقية... ومع هذا صاحت:

– هل من مزيد؟

كدت أصرخ بها من مخبأي بصوت عال... هل بقى فيك مكان للسواد. بيد أني خنقت صوتي في الوقت المناسب... خشية ان يكتشف... أمري...

عانقها الكاهن... وراحا معاً يرقصان... لم اسمع ما قاله لها، ولكني... سمعتها تقول له...:

– كنت واثقة انك ستعوضني ما اعطيتك اضعافاً مضاعفة. آه كل هذا الشعر... كل هذا الشعر الذي جمعته لي... لكم أنا فخور بك...

– سيكون ثمة المزيد... يا أمي... المزيد... لو رغبت.

– ذلك ديدنك... منذ عرفتك... من يمنحك قطرة دم نغرقه في بحر من الدم...

– ساغرقك يا أمي... اغرقك في فضاء من الشعر...

توقف عن مراقصتها فجأة... وصرخ صرخة عظيمة...

– هل ثمه من لم يقل كل ما عنده. ليتقدم قبلما أضع اليد عليه.

- أنا... آ آ... أنا... سيدي الكاهن...

علا صوت ضعيف... متردد... ثم أعقبه زحف جسم... تبينت فيه، إذ أمعنت النظر... الرجل الذي فرّ مني هارباً حين سألته عن مصير الطفل... سقط على قدمي الكاهن:

- لم أقل... كل ما أعرف... غفرانك سيدي... غفرانك...

ركله الكاهن بغضب:

- لاتدنس قدمي... قبلما تتطهر...

تراجع الرجل الى الوراء، ذليلاً... مرتعداً، وهو يضرس كلاماً. لايسمع منه حرف واحد... بينما راح صوت الكاهن يهدر...

- تكلم... قل... كل ما عندك...
- آ... آ... البدر... سيدي الكاهن... البدر.

إربدّ وجه الكاهن... وإرتجف... داخل عباءته الكهنوتية:

- ما به... تكلم...؟
- ص... ص... صعد.
- صعد؟ صعد الى أين؟
- إ... إ... إلى السماء، سيدي، تشكل على هيئة سحاب واخترق الخيمة و... و... و... صعد...

إنقضّت عليه العجوز الغولة، بسرعة خارقة:

- وتخفي عنا سراً كهذا...؟

راحت تعصره عصراً... حسبت أني سأرى بعدما تفك عنه ذراعيها كومة عظام مفتتة... فأبصق عليه... وأشفي غليلي من هذا الجبان القذر... إلاّ أن الغولة لم تترك منه شيئاً... أي شيء... فصرخت مرعوباً بصمت... ياه... إنها أبشع من إبنها...

مدّ الكاهن يده نحو الخيمة... وبقدرة جبارة... مزقها. ثم جمعها ولفّ خرقها كرة كبيرة... ورماها بعيداً... فبانت السماء... صافية مليئة بالنجوم المتوقدة... والبدر يختال بينها بشوشاً ضحوكاً مشعاً. راح الناس يغضون انظارهم،

يغطون عيونهم... يديرون وجوههم مصعوقين... خشية أن يعمي النور أبصارهم...

- آه... انه هناك... هناك حقاً.
- انه... يستهزيء بنا جميعاً... يسخر منا...
- آه... اقتلوه... اقتلوه...
- انه عال... لاتطاله يد.

صاحت الغولة:

- يد الكاهن تطاله... لاشيء يستعصي على الكاهن... لامستحيل أمام الكاهن... لاتيأسوا... لاتيأسوا...

رفعت الكاهن على يديها... أحاط بهما نفر منهم... حملوهما معاً بينما تساقط بعض منهم على بعضهم... مشكلين تلة صغيرة من اجسادهم صعدتها الغولة... والكاهن فوق يديها... وبعد محاولا ت عديدة مضينة... اكتشفوا عبث محاولا تهم ولا جدواها... فتصاعدت صيحات اليأس والعجز... من جديد... في حيرة شديدة:

- ماالعمل... ماالعمل...؟
- كيف السبيل الى اقتناصه...؟
- انه لايزال يسخر منا... ما الحل؟

قالت الغولة وهي تشير الى الكاهن الذي ترك الحشد. وبدا يسير وحده... نحو الأمام:

- اتبعوا الكاهن... سيروا وراء الكاهن... هو من يرشدنا الى العمل... هو من يدلنا الطريق... الى الامام يا قوم... الى الأمام.

سار الكاهن كالطاووس يختال زهواً... واثقاً من نفسه، على ما يبدو... الى حد خرافي... وسار الحشد خلفه... كمجموعة عميان يقودهم مبصر... وتوقفوا فجأة، حتى كادوا يصطدمون به... إذ توقف امام الكرة التي صنعها من لبس العباءات... فك خرقها مجدداً... وفرشها... فوق رؤوسهم... وارتموا جميعاً تحتها... صاح الكاهن الطاووس بنبرة... إنتصار:

– هذا هو الحل... هذا هو العمل... لايرانا... ولا نراه...

ضحكت طويلاً لهذا الحل... الذي بدا لي شكلاً من أشكال الموت الجماعي المجاني. خرجت من مخبأي... كانت الساحة قد فرغت تماماً، ولم يعد ثمه غير جثة الكاهن الكبير... وجثة الفتاة، فتاتي، أو بالأحرى التي كان يمكن أن تكون فتاتي لولا خيانتها القذرة... نفضت عن جسمي الاتربة، فتذكرت التي مازلت داخل العباءة... عباءتهم السوداء... وانني عار... فرحت ابحث عن ملابسي. التي لاادري أين أخفتها... الكلبة، ولكني سرعان ما أقفلت عائداً الى مخبأي. إذ أبصرت مجموعة غفيرة من القطط... تعدو نحو الجثتين في سباق إنتحاري... إلاّ أنها لم تكد تنشب مخالبها وأنيابها فيهما... حتى اقبلت من بعيد مجموعة لاتقل عنها عدداً، من الكلاب... كلاب ضخمة... سريعة... كأنها مجموعة خيول نافرة... فدخلت مع القطط في صراع لم يطل امره... ولكن تميز بالشراسة والعنف... واسفر عن سقوط عدد غير قليل من الجثث. وحسم الصراع لصالح الكلاب... التي راحت تنهش الجثث المتساقطة من كلا الطرفين... دون تمييزا أو تفريق بين جثة كلب أو جثة قط.

وبعد هنيهة قصيرة وقبلما تشبع الكلاب جوعها وتروي غليلها من لحوم ودماء... اعدائها وانصارها على السواء... هجمت اسراب من الذباب فنشبت الحرب هذه المرة طاحنة ضروساً، بين الكلاب المنتصرة وبين اسراب الذباب المهاجمة، التي اتسمت هجماتها بالضراوة والشدة والبأس و... الخبث ايضاً... إذ راحت تلتصق بعيون الكلاب حتى تكاد تفقأها وبذيولها... وبما يعقب الذيول، من أشد المناطق حساسية، حتى توشك أن تثقبها وتدخلها... فولّت الادبار... وهي تعوى... وتشكو... مكتفية من الحرب... بغنيمة... الهزيمة...

غير أن اسراب الذباب، وبعدما فرّ العدو الذي كان يوحد... صفوفها، تفرقت، ودخلت معركة شرسة أخرى، معركة داخلية هذه المرة، يفتك بعضها بالبعض... ينهش بعضها بعضاً... حتى صفيت الى النصف... ولم يلبث النصف ان صفي الى الربع والربع الى نصف الربع، ونصف الربع الى نصفه... ولم تبق ثمة غير مجموعة صغيرة... نال منها التعب والانهاك... واثقلتها الجراح... فتهالكت... على نفسها... غير قادرة على الحراك... ثم خمدت في مكانها...

هي الأخرى...

ظلت الجثتان، جثة الفتاة وجثة الكاهن، مرميتين في مكانهما... حيث كانتا... دون أن تمسا بضرّ... وعلى جانبيهما... تناثرت جثث... وأشلاء... لا عدّ لها... ولا حصر.

٢٤-٩-٩٩٢ بعقوبة

الموت سداسياً

مدخل

ها أنا ذا أحمل حريتي على أكتافي ثانية... وأعود بها وبنفسي... المشتتة... المتشظية، الى مدينتي... التي سلخوني منها... وسلخوها مني، قبل زمن سرقت تفاصيله... ودقائقه... ولم أعد أدري ... أهو زمن طويل... طويل طول عمر الإضطهاد والاغتراب... أم هو قصير... قصير... قصر ومضات الحرية في دروب الاوجاع... قالوا لي... خلال ابتسامة مشوهة... كشفت عن اسنان صُفر... متسخة... بقّعها النيكوتين وترك فيها... حفراً وتسوساً... لاتخطئهما العين، وبنبرة انتصار مغرور:

- خذها... ايها الفتى... خذ حريتك... اننا نعيدها اليك. لقد اضطرتنا ظروف خاصة... الى وضع اليد عليها وحجرها فترة من الزمن، إذ أنك لم تحسن التصرف بها... حين كانت في حوزتك ونأمل ان تكون الفترة التي قضيتها في ضيافتنا قد علمتك... اموراً لم تكن تعلمها، هيا... اخرج هيا... هيا... ولا تدعنا نر وجهك... مرة أخرى...

ووجدت نفسي... مقذوفاً الى الشارع.

١-١- نصان قانونيان وبضعة شروح غير قانونية .

١-١-١- نص مقدس ، وعصري جداً .

تنص الشرائع السماوية والأرضية ايضاً، على ما يأتي:

"إنه... من حق السلطة السماوية والأرضية، التي هي ظل للأولى ووجه من وجوهها المتعددة... ان تضع كلتا يديها على

الأموال المنقولة وغير المنقولة، التي يرثها افراد... لايؤهلهم القانون[1] للتمتع بما يرثون"[2] إنتهى".

١-١-٢ نص غير مقدّس أكل عليه الدهر و...[3]

"إذا قيّد رجل رجلاً اخر، بسبب قضية لايعرف عنها...(المُقيَّدْ) شيئاً. ولم تثبت علاقته بها. فعلى الرجل الأول أن يتحمل أي جزاء يترتب على القضية" إنتهى.

١-٢- ملايين الأميال تقطع بخطوة ، خطوة واحدة .

"مثل صيني قديم"

ولكن حريتي... أيها السادة... لم أرثها من أحد، لأنها، ببساطة شديدة، ليست ملكاً لأحد... ولا من مخلفات أحد، لكي تمارس التنزه فوق جسور الوراثة... أو التنقل عبر قنوات الملكية... هل استورث احدكم أو سوف يستورث... الهواء الذي تتنفسون؟

حريتي يا... هؤلاء... هواء... تدفق ويتدفق باستمرار من زنزانات الطغاة وسجونهم... في العالم... ومأأكثرها... ومأأكثرهم...! ليلغي صحارى العبودية... من على وجه كوكبنا. ويزج الاصابع الاخطبوطية، التي تطبق على أنفاس الإنسان... حريتي... يا هؤلاء ويا اولئك... نور... تدفق شلالاً... قومياً عنيفاً... منذ بدء الخليقة... من طيات هذا الكون... ومجاهله... ليمتص... ظلمات هذا الكون... ويضيئ... مخابئه وخفاياه... ليستضيئ به الإنسان، في سيره الدائب... نحو الانسان.

(١) القانون الذي تسنه السلطة السماوية، وتطبقه لصالح السلطة الأرضية، أو بالعكس.

(٢) كأن تكون عقولهم مسكونة بجرثومة ما. أو أن تكون رائحة الحليب لاتزال تفوح من افواههم، ولم تصرعها بعد رائحة الخمور... والتبوغ... أو لم تغتسل جيداً بشلالات الخطب السياسية الدبقة في خضم بحور المريدين الهائجين أو الخائفين حسب الطلب، أو اي سبب آخر، تراه كلتا السلطتين، أو احداهما فقط، كافياً، لاغتصاب حق لم تمنحه اية واحدة منهما.

(٣) يرجع هذا النص الى ما يقرب من أربعة آلاف سنة... المادة السابعة عشرة من قانون "ليت عشتار" الذي حكم في العراق من (١٩٣٤-١٩٢٤) قبل الميلاد.

وإذ حـاول البـعض منكم... ان يسـتـأثروا بالنور وحـدهم... ويحنّطوه في متاحفهم وقصورهم... ويغلقوا عليه الأبواب. ويقيموا عليه الأسوار. والأسيجة البشرية الشائكة...

وحين حاول آخرون، حمقى مثلكم، أن لايدعوا سوى مناخيرهم تعبّ الهواء... حمل اناس... بسطاء... شجعـان... ارواحهم ومآقيـهم فوق راحـات ايديهم... يحفرون وينقشون على وجه الزمن تاريخاً... جديداً للإنسان... وهم يسيلون حباً في الهواء... ويذوبون عشقاً للنور... فحطموا القمقم... وانطلق الهواء... وتدفق النور.

وإن كان لابد ان أرثها من أحد... فقد ورثتها منهم. من أولئك الذين سكبوا دماءهم. ينابيع زيت... ترفد الشعلة التي اجّجوها. ورفعوا جلودهم رايات... تلو رايات... للموكب الذي قادوه...

أتريدون أن تعرفوا... من هم؟

أتجهلون حقاً... من هم؟

حسناً... سأخبركم بأسمائهم واحداً واحداً... وفي ضميري تخضرّ قناعة وينمو يقين... أن لاخوف على أحد منهم... ولا ضير يمكن ان يمسّ أياً منهم... فكلاب القنص... اعني وجوهكم الأخرى التي تختفي خلف اقنعة الحضارة المزيفة والمدنية الدعيه... والألوان البراقة المتشققة التي تغطيها... لم يعد بوسعها أن تنال منهم... إلاّ بمقدار ماتنال أنياب الثعالب من جبال شمّاء... تعانق السماء... فكل واحد منهم قد غدا... أنشودة حية... لاأحبَّ الى الشفاه من التغني بها وترديدها... وصورة امل... لاأعذب ولا أجمل للعيون من التحديق بها... وإستلهام الزاد اليومي منها... والسير على هديها...

لقد ورثتها... يامضطهدي... من پروميثيوس... ومن سپارتاكوس ومن كاوه الحداد... ومن علي... ومن... ومن... ومن... والقائمة تطول... وتطول... فأعماق الانسان النظيفة... عميقة بعيدة الاغوار... وتاريخ الفعل الانساني الذي يحصن بغليته ونقاءه بالثورات والانتفاضات والتمردات... طويل... هو الآخر... واني اشفق على أمزجتكم الرقيقة جداً... ان تعتكر واخشى على اعصابكم الباردة جداً... أن تتبخر بفعل هذه... العلامات النارية... في طريق الإنسان المضيئة،

المضيئة... بالرغم من اطنان الظلمات والجهل... التي تكدسونها فوقها... وفوقه... وتحت وقع هذه الشهب النيرة التي تنزل على رؤوسكم الخاوية صواعق... صواعق... صواعق.

لا شأن لي، ياسادتي ويامعذبيّ، بطولها.

فمسيرة الانسان منذ غادر كهوف "نياندرتال" وحتى داس على سطح القمر بقدميه... طويلة... بالغة الطول... بيد أن طولها، مهما طال، لايثبط عزيمة... ولا يكسر همة... فقديماً قد قيل... وما أصدقه من قول... إن ملايين الاميال تُقطع بخطوة... واحدة. صدقوني... يامعذبيّ ويامضطهديّ... وسواء لديّ صدقتموني... أم لم تصدقوني... اني كنت أمارس حريتي... واتنفسها... وأستنير بها وأنا قابع في ظلمة رحم... أمي، ولكني... كنت امارسها... أو بالأحرى احياها... بسذاجة وسطحية... أما الآن... فقد تعمقت عندي الرؤى... فصرت اعرف لها... أبعاداً كثيرة... لاحدّ لها... أبعاداً اقتصادية واجتماعية ونفسية... و... كونية... ايضاً.

كيف؟

أتسألون كيف؟

كيف حدث... ماحدث؟

المسألة بسيطة... فإني قد كبرت... كما تكبر الأشياء كلها... وكبرت معي همومي ومداركي... وأحلامي... وكبر بالضرورة... أمامي السؤال... وإتسعت ساحته... وامتلأ بالالحاح والحاجة والضرورة... واشتد فيه الجوع وأخذ يصهل... ولم أعد تلك النطفة الصغيرة التي يحيط بها الظلام... وتحاصرها العزلة. وتقتات عليهما وتستقي منهما... كما لم أعد ذلك المخلوق الذي لاتتجاوز طموحاته حدود تسلق مجموعة من الأغصان. ولا تتعدى حاجاته حدود بطنه... وكل عالمه يقتصر على بضعة اشجار... في غابة نائية... نادراً ما تقع عليها عين مخلوق آخر... من صنف آخر.

لاذنب لي... يا أنتم... ويا هم... فيما حدث... ولماذا حدث... وكيف حدث... إنه منطق الكون والطبيعة والاشياء... إذ لا شيء... يظل في ثباته وسكونه... بل لاشيء يثبت أو يسكن... فتحت وفي ثنايا المظهر الساكن والثابت للحياة،

تجرى ملايين... بل بلايين الحركات والاحداث، نشيطة... قوية، خفية غير مرئية أو علنيـة واضـحة... عنيـفـة مـدمرة... أو هادئة أليـفـة... دون أن تقـيم وزناً... لرغباتكم... أو نزواتكم... أو حتى اراداتكم... انه القانون الوحيد الخالد... في عالم لاخلود فيه لشئ عداه... كل شيء يتحرك كل شيء يتغير... يسير نحو سيرورة... اخرى، والكون قد اختارني... أنا... أنا الذي تسلبون حريته... حقه في الحياة... ليتحدث اليكم... من خلالي... ومن خلال تبدّل حالي وتغيرِّها من حال... الى حال.

وها قد تغيرت، تطورت. ترجمت لكم لغة الكون. غير المسموعة غير المرئية... الى واقع... ملء السمع والبصر...

لقد خلّفت مواقع... وتبوأت مواقع... تخليت عن مواقف وتبنيت مواقف، معبراً... حسب تقديري وفهمي للأمور... عن قدر أكبر من الوعي بقوانين الطبيعة والإنسان، ساعياً في سبيل تقليل المسافة بين كينونتي وبين طموحاتي... بين واقعي... وبين أحلامي... ولا يزال سلّم الزمن السرمدي... متحركاً... مندفعاً نحو الأمام... معبراً عن نفسه من خلال آخرين... بلغات اخرى... وتحت اشكال لاتجتر نفسها.

ليكن في علمكم- إن كان الأمر يهمكم- بأني قد صرعت من حلقي رائحة الحليب... منذ زمن طويل، وبت اجرع كؤوس الشراب كأيّ رجل مهموم... وأمتص أنفاس عشرين عبوة من النيكوتين... أو تزيد... في اليوم الواحد.

بيد أني... وبصراحة مطلقة، لاأزال... واظنني سأظل... غير قادر على خلق الانسجام بيني وبين ما أفعل، بالقدر الذي خلقتموه أنتم، بينكم وبين ممارساتكم اليومية... انتم الذين تغوصون عشرات المرات، في اليوم الواحد في أنهر الدم... وتعبّون... ماتعبّون... من مياهها. وتمتصون أنفاس عدة "عشرين" انسان أو تزيد... بين ضحكة الشمس في الصباح... وبين تجهمها في المغيب. أو بين تجهمها... وبين ضحكتها المشعة.

صحيح... اني إلتهمت الكثير من الكتب... وأحرقت أو ابتلعت العديد من القصاصات المضيئة... وان عقلي قد يكون متسخاً كما تزعمون، جراء ذلك كماسورة بندقية تخشون لما تنفجر... بيد أن كائناً صغيراً، بحجم قبضة اليد.

يقبع بين ضلوعي... ما زال يخفق بالحب... حب الانسان والأرض... وان هذا الكائن... نظيف... نظيف الى حد... يمكنني ان أبسطه على كفي... أو أن ارفعه فوق راسي تاجاً... وأجوب به الطرقات والشوارع... وأقتحم به المدن والعوالم... ولولا الخوف من السقوط في لغة الغرور... لقلت انه يملؤني زهواً... وخيلاء. فان يحتفظ المرء بضميره نظيفاً، في دنيا تفيض قذارة وتزداد اتساخاً... أمر ينبغي الاحتفال به. اطمئنوا... يا... جلاديّ...

وأقلعوا عن أوهامكم...

كل محاولاتكم في تنظيف... ماسورة عقلي... أو تلطيخ النظافة التي تخضرُّ في داخلي على الدوام، أو تشذيب النقاء الذي ينظم مجمل سلوكي... سيمتطيها الفشل... ويسوقها... كما تساق الحمير... ويصرخ بها... كما يصرخ بالدواب... WÇW¼ WÇW¼... WÇW¼... Ï¼ ' Ì Ï¼ ˘ ˘ ˘ ش ش ش...

٢-١- الصوت... والصدى .

ودويّ في المدينة صوتٌ:

- دقائق... دقائق... ويتم الإجهاز على الوحش.

رددت المدينة من أقصاها... الى أقصاها:

"الوحش... وحش... حش... ش... ش... ش"

ولم يلبث... ان تلاشى الصوت... وذاب في بحر الصمت...

٢-٢- حبّ حزيراني!! في زمن غير حزيراني .

"مشهد صغير... من مسرحية شاملة... يتكرر تمثيلها في كل دار تنتزع من اصحابها... أو ينتزع منها اصحابها... قسراً"

الشخصيات:

١- الرجل الهزيل.

٢- المرأة البدنية.

٣- الضمير الغائب، الذي طال غيابه.

الوقت: ظهيرة يوم قائظ.

الزمن: الآن، الخارج من الأمس. والداخل في الغد. والمتواصل الى يوم "يعود" الى الدار، صاحبها، ساكنها ومالكها.

المنظر: [سطحا منزلين، متلاصقان حد التداخل. الشمس ساطعة تعبر عن نفسها بسخاء. يفصل السطحين، جدار واطئ لايتجاوز إرتفاعه المتر.

يظهر الرجل الهزيل فوق أحد السطحين وهو شبه عار "ملابس داخلية وحسب" يشد الى صدره "نعلين" من المطاط. بينما يلقى سترة (بجامته) على كتفه.

انه هزيل، شاحب، يشوب شعر رأسه بياض. يصدر أصواتاً مختلفة... خافتة، هامسة، مواء قط... ثم نباح كلب... ثم صياح ديك... منادياً شخصاً ما من السطح الآخر... يتلفت بخوف، ذات اليمين واليسار... كمن يتوقع أمراً ويخشى وقوعه. لذلك فهو مضطرب، يتقدم نحو الحائط... ويتراجع... يلقى نظراته هنا وهناك، يسير مستطلعاً... متلصصاً... يضرب "النعلين" ببعضهما... لاجدوى... ينحني عبر الحائط... ويصيح... بصوت محطوط]

الرجل الهزيل: "بصوت رفيع خافت. لايكاد يسمع. في البداية. ثم يعلو صوته..." را... حوم... راحوم... را... ح... و... م...، ثم بنقاء صبر، راحوم... راحوم [تظهر على السطح الآخر، إمرأة في حدود الثلاثين من العمر، بدينة، مترهلة. تفرك عينها، ترتب شعرها المبعثر... وهي بملابس النوم... تتثاءب. واضح انها قعدت من قيلولة...]

المرأة البدنية: "تضع كفها على عينيها. لتحجز عنها الشمس اللاهبة التي تواجهها مباشرة" و... ن...؟ أو...ه... أنت ثانية...؟

الرجل الهزيل: "بتوسل وذلة" ماذا أفعل؟ ... لا أجد الى النوم سبيلاً... يا روحي...

المرأة البدنية: "بإستهزاء" لاتنم... اذن.

الرجل الهزيل: النوم عبادة... ولا سيما... نوم الظهيرة.

المرأة البدنية: رح... احتضن زوجتك العجفاء... و... تعبد.

الرجل الهزيل: سئمتها... أشتهي التعبّد في محرابك.

المرأة البدينة: كذاب! ! تخشى أن ينط عليك... شياطينك الصغار... إعترف.

الرجل الهزيل: "صاغراً" أعترف... أعترف... كما تشائين... يا كاهنتي الحبيبة...

المرأة البدنية: كان ينبغي أن تحسبا لهذه الحالات حسابها... وأنتما تقذفان بالأطفال... واحداً تلو الآخر مثل معامل الأحذية...

الرجل الهزيل: وما جدوى... حساباتنا... الدولة تريد جنوداً وهي تدفع لنا... لكي ننجب لها... و...

المرأة البدينة: آه... يا ملعون... حتى عواطفك تبيعها بأبخس الاثمان... أي مخلوق بشع أنت...

الرجل الهزيل: "يتسلق الحائط" ما هذا بالوقت المناسب لهذا... النوع من الاحاديث... أنا قادم "يقفز الحائط. يحيطها بذراعيه، تدفعه عنها ضاحكة... تبتعد في غنج ودلال... يلاحقها"

المرأة البدينة: نهمُك... لايناسب حجمك.

الرجل الهزيل: انه يطمح ان يناسب حجمك... يا حبيبتي...

المرأة البدينة: (تمانع بدلال) دعني... لارغبة لي الآن...

الرجل الهزيل: (بلهفة) في ثوان... اجعلك... تلتهبين... في أتون الرغبة...

المرأة البدينة: الولد... لم ينم... بعد...

الرجل الهزيل: لقد حسبت حسابه "يخرج قطعة شكولا تة من جيب سترته" ستلهيه هذه الشكولا تة... عنا...

المرأة البدينة: (تخطفها منه، وتلقيها في جوفها) ولي...؟

الرجل الهزيل: لديّ منها الكثير (يهزّ السترة) بيد أني... اعددت لك... ما هو ألذُّ من الشكولا تة... يا ألذّ امرأة... في الدنيا كلها "يخرج من جيب سترته سلسلة ذهبية... يلوح لها بها..." أنظري...

المرأة البدينة: (مبهوتة بإستنكار) يا ذمي... عقد زوجتك؟

الرجل الهزيل: لطالما... رغبت فيه...

المرأة البدينة: رغبت في مثله... وليس فيه.

الرجل الهزيل: وما الفرق (ثم) إذا حضر الماء بطل التيمم...
المرأة البدينة: أوه... أنت لص... لص (ضاحكة) حقير... وحقيقي كيف تمكنت... إنها... لاتفارقه...
الرجل الهزيل: (مقهقهاً) في حالة... تعبّد...
المرأة البدينة: يا لك من نذل كبير... لاحرمة لديك لأي شيء... "كمن تتذكر" وحجلي؟
الرجل الهزيل: "متصنعاً الغفلة" الحجل؟ أي حجل؟
المرأة البدينة: حجلي الذهبي... ذو الخمسين مثقالاً من الذهب النقي الخالص... الذي سرقته في حالة مماثلة.
الرجل الهزيل: سرقته؟ أبداً... والله... إنما... إنما... كنت... أداعبك... أداعبك وحسب...
المرأة البدينة: أكاد أجزم إنك قد خدعت به زوجتك... أو أية امرأة أخرى...
الرجل الهزيل: بشرفي... أعيده اليك... هيا... هيا... قبلما ينتبه الينا أحد... هيا... هيا...
المرأة البدينة: (طائعة) متى... متى...
الرجل الهزيل: في حالة أخرى... مماثلة... ياحبيبتي... (يحتضنها... ويحتضنهما معاً... ظلام دامس)

[وهكذا تنتهي هذه المسرحية. أو بالأحرى تبتدئ... في مكان آخر، لا بل في أمكنة أخرى... في الزمن السافل نفسه].

٣ـ ١ـ عيون الأطفال

- أغلقي النافذة. يا... كلبه.

ولكن الطفلة ذات السنوات الأربع... أبت تنفيذ الأمر. أو... لابُدَّ أن يكون هذا هو التفسير المنطقي المناسب لردّ الفعل العنيف الذي أعقب الرفض. والذي استحال بدوره الى فعل. تحقق من خلال هبوط يد ثقيلة. بقسوة غير... عادية، على رأس الطفلة، التي وجدت نفسها ملقاة على الأرض، عند أرجل المنضدة التي بذلت مجهوداً، لايستهان به، في دفعها اسفل النافذة وارتقائها... لكي

تلتهم، بعيون جائعة متلهفة، ممتلئة بالفضول، ما يجرى خارج الغرفة... الموصدة... ابوابها... ونوافذها... وشقوقها... والذي تسمع به. ليل نهار، ولا تراه.

وبإلحاح الأطفال وعنادهم الذي لايلين. راحت الطفلة تتسلق أرجل المنضدة. مرة أخرى. وتمد عنقها ما تستطيع... لعلها ترى... ما يخرس فضولها.

- ولكني... لاأرى شيئاً مما تتحدثون عنه... يا أمي.

قالتها الطفلة، بصدق الأطفال... وبراءتهم.

- أغلقي فمك الكبير... ليس هذا من شأنك.

وإذ جرؤت الطفلة على عدم إغلاق فمها- الذي كان، في الواقع، صغيراً جداً وملموماً كحبة فستق مغلقة- بل وتمادت أكثر... إذ فتحته وقالت بأصرار:

- ولكني... اريد أن أعرف... يا أمي!!

كان جزاؤها حكمة بليغة، أنطوت على خبرة مسلكية طويلة. تكاتفت عهود سحيقة من تاريخ المرأة في صنعها وبنائها ونسج خيوطها الاخطبوطية. لذا اسقطتها الأم فوق رأس ابنتها، بما يليق بمكانتها من التقدير والاجلال، حد التقديس، انعكس في الهدوء الذي حفر لنفسه موضعاً في خضم بحر إنفعالها... وأمواجه المتلاطمة. مثلما إنعكس في البرود الذي إنتصب في أكثر من موقع... خلال نبرتها الممتدة ونبرات غضبها المتاججة وأيضاً في الفراغات العديدة، التي تسللت الى سيل كلماتها المتدفقة المتلاحقة:

- حين... تكبرين... تعرفين... وتفهمين... كل... شيء...

وأعقبتها بنظرة حادة... صارمة... تأمرها من خلالها... أن تبلع لسانها... أو تقطعه وتسكت... وتنظر... هكذا خرساء الى أن تكبر... بما فيه الكفاية... وإذذاك... إذذاك فقط قد يُسمح... لها... بأن تعرف... كل شيء... أو بعض الأشياء وقد تقتنع... بضرورة ان لاتفهم... ولا تعرف شيئاً... وأن تكتفي... بالإيمان... بما تسمع ولا ترى... وحسب.

٣ـ٢ـ من قتل الراعي حين أختضن قطيعه ؟

صوت: هيه... أنت: ماذا تنتظر؟ لماذا لاتغلق حانوتك؟ ألم تتبلغ بالأوامر؟

جواب: اللحوم... يا سيدي الكريم... اللحوم يصيبها العفن. فأنا... لا أملك مجمدة... ولا ثلاجة...

أمر: نفذ الأمر... ياحمار...

نصيحة: الا... اذا كنت تحب لحومك... أكثر من لحمك.

حيرة: (... ... ...)

إنطباع: لا... لا اظنه حماراً... الى هذا الحد...

شك: من يدري... لعله... كذلك...

قرار: اذن... فليتحمل العاقبة!!

رجاء وتوسل: لا... لا... أرجوكم... أتوسل اليكم...

الأمر ثانية: "وقد استحال الى أوامر" نفذ الأوامر... يا هذا... نفذها... فوراً...

خنوع: حالاً... سيدي... حالاً.

تبرير: صحيح... ان اللحوم... هي لحومي[1]... بحكم القانون ولكن اللحم الذي

(١) في الحقيقة والواقع. لم تكن اللحوم لحومه... وأن هذا الجزار يكذب ولعل هذا التاكيد الانفعالي من جانبه، يفنّد مزاعمه. وإذا أردنا أن نعرف المالك الحقيقي للحوم... وصاحبها الشرعي. فينبغي أن نبحث أولاً عن الراعي الذي سُلخ منه قطيع غنمه. قبل بضعة ايام وحسب، ولكن البحث عن الراعي، من شأنه، ان... يفضي بنا الى متاهة. ويوقعنا في معضلة... يحدد ابعادهما هذا السؤال البرئ جداً، وهو "اين هو الراعي. وماذا... حلّ به... وبقطيعه؟"

قيل، والعهدة على القائل... كما يقال:

ان الراعي، حين أبى تسليم اغنامه إليهم، إستقرت في جسمه في موضع القلب منه تماماً، رصاصة، فاوقفته عن الحركة. اولاً ثم اوقعته ارضاً... فعادت اليه الحركة. إذ راح يرفس ويلبط كسمكة... اخرجت من الماء، لفترة وجيزة... ثم تدحرج من قمة الرابية الخضراء حيث كان يرعى غنمه، واستقر في اسفل الوادي... (يقصد الراوي، قصر الوادي) وأهاجت رائحة الدم الفواحة... بضعة من الذئاب المفترسة... فهجمت عليه. وراحت تنهش لحمه في العراء... ثم روت عطشها الذي اثارته ملوحة الدم من مياه نهر صغير... جار... مشوب بحمرة قانية... تاركة العظام لحيوانات... أشد جوعاً وأقل جرأة. بينما جلست ذئاب من نوع آخر، أقل توحشاً وأكثر تمدناً، في الظاهر على الأقل، حول مائدة مستديرة... تقطع لحوم القطيع. إن الراعي، قد وقف حاجراً بين قطيعه وبين السكاكين التي إمتدت... لتبقر بطن أحد اغنامه. فاخترقت السكين بطنه هو "ثمه تاكيد على السكين أكثر وأقوى من الرصاصة" ثم انهالت عليه السكاكين الاخرى، من كل حدب وصوب... فمزقته إرباً إرباً... وإختلط لحمه باللحوم التي تباع في الحوانيت -ومن ضمنها حانوت الجزار الذي يدعي عائديه اللحوم اليه- ومما يؤكد هذا الكلام ويرتفع به الى مستوى طيب من اليقين، عند العديد من الناس، ان بعضهم انتبه الى صوت ينبعث من جوفه... وحين اصغى اليه، بعض الذين كانوا على علاقة مع الراعي القتيل، تعرفوا =

يكتسى عظامي... هو الآخر لحمي بحكم المشيئة الإلهية... والقانون الذي ملّكني اللحوم... يعوضني عنها بكل تاكيد... ولكن المشيئة الالهة... لاتعوضني لحمي... ولا تكسى عظامي مرة أخرى... باللحم... إن تجردت منه...

سؤال: بماذا تهَمهِمْ... ياهذا...

امتثال: لاشيء... لاشيء... ها أنا أمتثل للأوامر... ولكن... ولكن...

مقاطعة: ولكن... ماذا... ياكلب؟

جرأة: ما الذي يجري... بالضبط؟

إضافة: جرأة؟

لا... لا... وألف لا... لاينبغي أن يدخل هذا الإستفسار الحييُّ... الخجول... الخافت... الذي أطلقه الجزار، بعد تلكؤ وتردد كبيرين... دائرة الجرأة... أو الشجاعة... أو ماشابه... فما كان هذا الجزار، ولا سواه... ليجرؤ على الإفصاح... عما تعتلج به نفسه ويقلقها لولا أنه وضع في إعتباره تقديراً خاطئاً لمجمل الأمر. وقد تبين له خطأه مباشرة، أول ماغادر إستفساره الجريء!! جداً، وقبلما يمسح شفتيه... من آثاره الواضحة أو الخفية... وهذا التقدير هو الذي منحه ذاك القدر من القوة... التي إستمد منها شجاعة وقتية... لطرح إستفساره الآنف الذكر.

التقدير: أما التقدير الخاطئ... فقد كان... كالآتي: الخرخشة، التي لابُدَّ أن

= على نبرات صوته المميزة التي لاتقبل الشك...

والواقع... أن المسألة معقدة، كما ترى، ومرعبة ايضاً... وان الإيغال في التفكير فيها يزيدها تعقيداً ورعباً وإلاّ... فلتبلغ الجرأة بأحدكم، حد التطلع الى صورته في المرأة... أو في صفحة ينبوع ماء صاف، وهو يقضم لحسم... كائن بشري. وان هذا اللحم، يصرخ ويجتح، على الظلم الذي يلحق به... وهو لايملك له رداً، ولا الى منعه... سبيلاً، دون أن يقلع عن محاولاته اللامجدية في التمرد... والتحرر... من بين مخالبك... أو من بين انيابك وحتى من بين جدران بطنك... وهو يقاوم ويرفض المصير الذي تفرضه عليه أو يفرضه عليه القدر وهو الانسحاق والتفتت... بين انياب ذئاب... متوحشة... أو متمدنة...

لا... لا... أنا أمتلك الجرأة الكافية... بأن اعلق على الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، ان اقتضى الأمر، باني لا اجرؤ على التفكير... في أمور فظيعة... كهذه... وهذا ما يجعلني أن أصرف النظر -حالياً في الأقل- عن هذا الموضوع... على أمل العودة اليه... ذات يوم في محاولة اخرى...

م.زنگنة

تثيرها البوابة وهي تهبط، لاسيما وقد مر عليها زمن طويل... لم تذق فيه طعماً لزيت... ولا شمت له رائحة من قريب أو بعيد بالرغم من إشتداد جوعها اليه ستشكل (الخرخشة) حاجزاً، ولو لدقائق... قادراً على منع كل صوت... وخنق كل ما يندُّ عنه من علامات إستفهام... غير مرغوب فيها. ولا يدعها تصل الى الآذان المفتوحة... لإلتقاط كل حركة وكل نأمة... وكل خرخشة.

بيد أنه وبالرغم من حرصه الشديد على توقيت إستفساره، مع زمن هبوط البوابة وإنبثاق الخرخشة في أشد حالات صخبها... فان الآذان المفتوحة الى آخرها... في كل الازمنة... قد... إلتقطته.

زجر: اغلق... فمك الكبير... يا كلب...

واغلق فمه الذي كان كبيراً حقاً، الى الأبد.

٤-١- تحت ظلال الوحش

٤-١-١-

- دقائق... دقائق وحسب... وسنخنق لكم... أنفاس ابشع وحش عرفته المدينة.
- اطمئنوا... يا هؤلاء... اطمئنوا... اطمئنوا... اطمئنوا...

وسقط مستطيل من الضوء داخل غرفة عالية في بناية شاهقة... ذات غرف عديدة... ثم سدّت منفذ الضوء، فتحة النافذة النصفية، رأس شعراء... فلاشت الضوء أولاً. ثم تحركت من جزئها الأسفل، شفتان، بضع حركات... فإنفرجتا قليلاً... وتحركت... خلفها قطعة لحم... فقذفت مجموعة كلمات... متقطعة... مضطربة... تشكلت في النهاية... على النحو الآتي:

- دقائق؟... الم تنفض هذه الدقائق الملعونة؟

وعاد الفراغ الى النافذة... إذ تراجعت الرأس الى الوراء... ولكن ضلفتي النافذة لم تلبثا ان سدتا الفراغ ثانية. فإمتصت الظلمة المشقوقة مستطيل الضوء، إذ عادت الى الإلتئام... فسقطت الغرفة كلها... في الظلام الذي كانت تعيشه من جديد.

٤-١-٢-

في الطابق الأرضي... من مبنى آخر، في مكان آخر، غير واضح الملامح... انفتحت كوة صغيرة... امتلأت بوجه... غير ذي هوية:

- تفو... على دقائقكم. أهي دقائق... إنها عمر... عمر... كا...

ورُدمت الكوة بسرعة خارقة... حتى ان الكلمة الاخيرة قطعت من منتصفها... فظل نصفها الثاني... في الداخل... ولم يطرق أذناً في الخارج.

٤-١-٣-

من مكان آخر، في بيت إعتيادي، لاصفة معنية له تميزه عن سواه من البيوت، تسلل صوت، تخنقه الدموع، من خلف باب موارب (برز الصوت من شقوق الباب العديدة):

- ومتى... تنفضي هذه الدقائق... يا ربي...

وتبعه صوت آخر، مثقل بالدموع هو الآخر:

- اني ادفع ثمن هذه الدقائق ذهبا... ان فواكهي[1] تتعفن... واعقبه، تضامناً، صوت بكاء جماعي. كان واضحاً من اختلاف طبقاته ونبراته، ان كل افراد الاسرة، تشارك، ربّها... تاجر فواكه الجملة... مخاوفه على فواكه(ه)... مصدر رزق(هم)...

(١) للتحقق من صحة إدعاء تاجر الجملة هذا... وأفراد أسرته، ينبغي القيام بعملية بحث وتقص للحقائق، شبيهة بالتي أجريناها حول أدعاء الجزار ملكية اللحوم التي في حانوته. وفيما يتعلق بي، أنا محي الدين زنگگنة، مؤلف القصة. وخالق احداثها وشخوصها. فقد إستطعت بعد اجراء بحث دقيق. مصنف طويل... أن أتوصل الى جملة حقائق... اضعها في خدمة التاريخ والحقيقة... وكل من يهمه امرهما... تاجر الجملة هذا... لم يكن أكثر من أحد الأشقياء. ولكنه هنا، حيث تتزمكن القصة، أصبح فجأة صاحب بستان تفيض بالخير والعطاء. دون ان تخترق قدمه شوكة... أو يسكب جبينه قطرة عرق. سوى ان حريته إخترقت العديد من الأجساد... وسكينه سكبت سواقي من الدم. حتى أن بعض الاشجار، اشجار بستانه(ه)، لاتزال تستقي حتى اليوم الدم. وقد أرجع بعض علماء النبات... الحمرة القانية في بعض الفواكه... الى هذا السبب.

م. زنگنة

-٤-١-٤-

- لا... لا... لاتغلق النافذة... انتظر... انتظر... لدي سؤال...
- الى جهنم... أنت وسؤالك...
طاق... آه

٤-٢- كل السواقي الى البحر وليس البحر بملآن . (...)

واقتحمت مسامات جلدي رائحة قداح عبقة. تشربها سائر جسدي. ولكنها بدت مشوبة برائحة اخرى، قد غدت -على غرابتها الغريبة- مألوفة. اخذت اعبّ من رائحة القداح. ورائحة الأرض ورطوبة البساتين ونداوة الأشجار... أنفاساً عميقة، فتحت لها قلبي اوسع ماأستطيع... لكن الرائحة الأخرى، تحركت بعنف. وأخذت تغزو خياشيمي بعدائية سافرة... وكما يحدث في الاقتصاد وعالم المال حيث تطرد العملة الرديئة... العملة الجيدة... طغت، هي الأخرى، على رائحة القداح... وزحزحتها... بل راحت تمارس ضدها ارهاباً، تضطهدها. وتضطهدني معها...

آه... آه... اني أكاد اتقيأ احشائي... من رائحة الدم المتخثر التي اكتسحت الروائح الأخرى، كلها، في هذه المدينة، مدينتي، البرتقالية... المشبعة... برائحة القداح... والاشجار...

اللعنة... ما الذي يجري في مدينتي البائسة؟ لقد تسمم حتى الهواء وفسد... "ستخنقها العفونة".

ويرتج كيانه لهذه الواقعة...

يقف مبهوتاً، مذهولاً. السؤال لايزال يذرّ املاحه فوق جروحه التي لاتلتئم. وإحساس قوي... بان ثمة كارثة مقبلة... على وشك السقوط على رأسه... أو رأس مدينته، يتفجر في اعماقه... يجعل صدره يعلو ويهبط... حتى ليكاد يسمع لصعوده صوتاً... ولهبوطه صوتاً... وهو، وحيد، بين الصوتين، يتكثف شعوره... بالضياع... في... في مدينته... وفي لبّ احشائها.

وإذ يظهر، على مبعدة منه، بعض الناس، بعض الكائنات... البشرية... يمتلئ

بفرح غير متوقع...

تبدأ عيناه تختصران المسافة بينه وبينهم... وبين بعضهم البعض تلغيانها... تملآن الفراغات الواقعة... فيما بينهم... تقربان الأبعاد تطويانها طياً... فتداخل وتمتزج بسرعة عجيبة... ويستحيل الناس الى نقاط... مجرد نقاط... نقاط طويلة... واخرى قصيرة... أو مكسورة. نقطة... نقطتان... ثلاث... عشر... ألف... ألفان... ألوف... آه... آه.

"رجلاي من رصاص".

لم يدرك هذه الحقيقة إلاّ حين همّ أن يتجاوز موقعه... ويخطو... نحوهم بفعل اللهفة التي احتوته من الداخل... فوجد نفسه عاجزاً، بصورة تامة، عن الحركة، اية حركة... فيظل جامداً في مكانه، مبحلق العينين... فاغر الفم... مذهول العقل.

وتمزق السكون المخيم على المدينة... اصوات.

اصوات ابواب تفتح ثم تغلق، اصوات نوافذ تفتح ثم تغلق، وعلى حين غرة، تمتلئ المدينة بالفراغ... ويمدّ يده ليمسك بنقطة تمر من جانبه... فتسقط يده في... الفراغ. يهم بالصراخ... فيختنق صوته في بحر الفراغ...

تتحرك النقاط، حركة لولبية، تدور حول نفسها اولاً... دورة دورتين... ثلاثاً... خمساً... ستة... ثم تنفرج. تسقط احداها الى جانب الاخرى... وتسقط الاخرى الى جانب اخرى... وتسقط الاخريات... الى جوانب الاخريات... فتستحيل الى خط. خط طويل... ينطرح الى جانبه خط آخر... يتمدد فيهما خط ثالث... ويسقط خط رابع... وخامس... و... و... و... وتختلط الخطوط... تتداخل... تتشابك... تتمازج تفقد حدودها الخاصة... تضيع الوانها... فيتدفق منها نهر... بلالون... أو بكل الالوان، ولا نه بكل الألوان... يبدو وكأن لا لون له... نهر صاخب شديد الصخب هائج... عظيم الهيجان... فتقتحم قحف راسه آلاف الأسئلة تحيله الى خلية نحل... بلا عسل، لاتهدأ ولا تستقر... غير انها تتبخر... قبل ان تلامس شفتيه... يجاهد للأمساك ببعضها. بعضها وحسب:

س١: ما الذي يجري... ياهذا؟

ج١: لاجواب.

س٢: لماذا تركض... يا...؟

ج٢: ... .

س٥: أين وجهتك بربك؟

س٥:! ! !

سين ألف: أين تُساقون أيها...؟

سين مليون: أية قوة تسحب الأرض من تحت اقدامكم؟

سين بلا جيم، سين بلا جيم... سين... ... ...

النهر لايزال يتدفق... لايتوقف... لايلوى على شيء.

يعود صوته يهدر:

لا... لاتجرفوني معكم... أنا لست منكم... آه، لاتنتزعوني من جلدي... أنا لن اترك مدينتي، آه... لاتسلخوني من احلامي أنا لن أخرج من أحلامي... إنها مدينتي... يا هؤلاء... مدينتي. وأنتم لن تسرقوها مني ثانية... ولا تنتزعوها من ضميري... انها تحيا بي... وأنا أحيا... بها... آه... لا... لا... لا...

يصبه ما يشبه الدوار... وهو يرى الى الصور... والمشاهد المتعاقبة... المتلاحقة... تجري أمام ناظريه. تعقبه غيبوبة... تسلمه الى زمن مجهول المدى... ثم يستفيق... ليعثر على نفسه، رغم أنفه، وسط التيار. في خضم التيار الهادر الذي قوى واشتد... وازداد صخباً وعنفاً... وقد اغتال المسافات كلها... وخبط البساتين والحقول... وخلط البيوت والاشجار... ومزج الوديان والجبال... بيتي واحد لايحد طوله بصر... شجرة واحدة لاتؤطر مداها عين... جبل شاسع... يكاد يسد الأفق.

المدينة تهتز. كما لم تهتز من قبل قط. فيصبه دوران شديد. يدور حول نفسه كما كانت النقاط تدور... وعبثاً... يحاول الامساك بشئ... أي شيء... فيصرخ:

"مستحيل... مستحيل".

ليس بوسع أحد أن يقبض على حفنة زئبق.

لقد تزأبق كل شيء... رجال من زئبق. نساء من زئبق... البيوت زئبق...

الأشجار زئبق... الجبال زئبق... الوجود كله زئبق زئبق... زئبق... بق... بق... ق... ق...

حذار... حذار... لو توقفت... علكتك الأقدام.

- ولكن الى أين...؟ الى أين تسير القافلة؟

. لاتسأل... لاتسأل... الاحذية جائعة... اسرع... اسرع...

- لابُدَّ أن أعرف.

. لا أحد يعرف... لا أحد يعرف...

- أنا... اريد أن أعرف...

. كن مثل الآخرين... الحشر مع الناس عيد.

- لا...

يفجرها... بثورة وغضب.

يتوتر في موقفه... بعزم وإصرار. وإذ يدّب الخور بعد فترة غير قصيرة، في مقاومته للتيار الزاحف نحوه... وبه بجنون... ينطرح فوق الأرض، أرضه، ويلتصق بها... ويحتضنها... كما يلتصق الطفل الجائع بثدي أمه. فيسير فوقه النهر... البشري... يدوسه... حتى ليكاد يعيده الى احشاء امه... فيدخلها... جنيناً... محتمياً برحمها الرحوم الشجاع... حصناً منيفاً، بقية... الاهوال والشرور... اهوال هذه الدنيا الظالمة... وشرورها... التي لاتنتهي...

ينهض... متحاملاً على نفسه... ومتحملاً كل جروحه... يرى النهر قد إبتعد... ويرى نفسه مقذوفاً... خارجه، يتساءل بصمت:

- في أي بحر من بحار الجحيم. يصب هذا النهر العجيب؟

لايتوقف عن سؤاله طويلاً... ويقرر على الفور... إذ ينتبه الى نفسه مرمياً... خارج مدينته:

- يجب أن أعود، وأسدّ هذا النهر اللعين... من منبعه من، داخل المدينة... حتى... يجف... ويخضرّ الداخل...

ولكنه حين يصعق... تماماً... ويفتح عينيه وفاه... فائضين... بالدهشة والاستغراب... حين يدير ظهره... ليصر طريق العودة الى المدينة، فنفور اعماقه

حقداً وغضباً.

- ما هذا؟ ما هذا السور البشع...؟ متى بنوه؟ وكيف اقاموه بهذه السرعة...؟ وصبغوه... بهذا اللون الاصفر الفاقع... مثل لون السلّ؟

يدور حول السور... باحثاً عن فتحة... ينفذ من خلالها... يدور... ويدور... حتى يلهث... يزجره السور محذراً:

- لاتقترب... لاتقترب... السور مكهرّب.
- سأجد... منفذاً... لم يصله تكنيككم... الشريّر.
- مستحيل... المدينة كلها ترتدي هذا السور.
- لابُدَّ أن أجد ثغره... أو اثغر ثغره... مهما كلفني الأمر.
- عبثا... تحاول... السور... لايرحم.
- لا أفكر باستجداء الرحمة...
- ستندم... يا هذا... ستندم...
- لن أندم على فعل اختاره.
- السور... قناص... متحرك... زاحف...
- ومع هذا... أحاول... لابُدَّ ان احاول.

وحاولت...

حاولت اولاً، أن انفذ من خلال الفراغ الذي قام... أو أُقيم... عليه هذا السور الغريب. ذا اللون الأصفر الفاقع، الملطخ بالخضرة الداكنة، المتشكلة في هيئة اشكال حيوانات، غير مألوفة. لكن أسفل السور... أعني الجزء السفلي منه، المزروع، أو بالأحرى المدفون، في الأرض تحرك... حركة موضعية، عنيفة.

رفسني حذاء اسود ثقيل، رفسة قوية، دفعتني الى الوراء مخلفة الماً شديداً في منطقة الصدر من جسمي. تراجعت الى الوراء... استلقيت. على ظهري بعيداً بعض البعد، عن متناول السور... ريثما استرد أنفاسي... واتيح لنفسي فرصة... لابداع طريقة اخرى... توصلني الى هدفي... كانت السماء مفروشة بالنجوم المنعقدة، نجوم تبدو كثقوب... عميقة الغور في جسد السماء... تتدفق من خلالها شلالات ضوء استغرقني... تأمل السماء والتمعن في النور المتدفق

عبر كوى لا يحصيها العد... فترة... لا أدري كم هي... ولكنها كانت كافية... ان تنبهني... الى مايتوجب عليّ فعله...

زحفت على بطني. عائداً نحو مدينتي التي يفصلها عني السور البشري... امتلأت أنفاسي بأنفاس الأرض... واختلطت... وأنا استمع الى نبض قلبها... وقلبي... المتداخل... .

نما في داخلي مجدداً، الأمل واعشوشب. واحتواني شعور طاغٍ بالفرح... أحسست اثره براحة عظيمة تسربلني... تشمل كل كياني... فانهلت على الأرض، بعشق لامحدود... اقبلها قبلات حارة... طويلة... قضمت، من شدة حبي وعنفه. قضمة كبيرة من التراب... على مهلك يا ولدي على مهلك... انت تقتلع ثدي امك... جائع يا أمي... جائع. منك استمد حياتي... اشرب يا حبيبي اشرب... انهل من نبع حبي الازلي الذي... لاينضب...

امتلأ جوف فمي بالتراب اللين الهش... وضعته في حلقي... فاستحال كتلة رطبة احسست لها مذاقاً غريباً. اخرجتها من فمي... وضعتها تحت شلات النور المنسابة من ثقوب السماء فألفيتها - وياالدهشتي- حمراء...

حمراء؟ ؟ ؟

كيف؟ لماذا؟ من فجر عروقك بالدم... انت الاخرى؟ أنسيت مياه البحر؟ مياه البحر... اكانت حمراء ايضاً؟

آه... ايتها... التربة الحمراء... التي نبت في اعماقي... وتجذرت في وجداني. ونمت في ضميري... وأينعت ذراتها... في أوردتي وشراييني... فاصطبغت بلون فجري المقبل كم اعشقك... اني اموت في هواك... وفي سبيلك... اني...

يهتمّ ان يتوغل أكثر في حالته الوجدانية... ويستمر في مناجاته العاطفية... لـ... لأمه... ولكن صوته... يختنق... كأن يداً قوية... تطبق على حنجرته... ويجيب... همساً داخلياً... إنبعث من اعماقه:

- حقاً... لاوقت للعواطف. تكفيها السنوات التي أهدرتها من عمري... دون جدوى... آن الاوان لإستخدام العقل... والمباشرة... بالعمل...

ومع هذا... لايقوى على التحرر من حالته العاطفية... ومغادرتها كلياً... إذ

يمزق... بمنتهى الرومانسية، شريطاً طويلاً من ثوبه يشد به كتلة الطين الحمراء... بعناية بالغة... على صدره، فوق القلب... تماماً... ثم يواصل زحفه الوئيد... بحذر...

السور يتحرك... يتحرك اسفله. تروح حركاته هباءً... إذ لاتصيب مقتلاً من أحد... لاتصيب سوى... الهواء...

وفي اللحظة، التي انكسر شعاع من الشمس التي أشرقت لتوها على النعل الذي ارتفع في أكثر من مكان... لينغرز في جسدي ويسفح المزيد من الدم... قفزت... قفزة هائلة... عن مرماه، ... وقبلما اتيح له فرصة لترميم فشله... أسرعت نحو الداخل:

- لاتدخل المدينة... ايها المجنون... لاتدخلها...

- ... ...! !

- انها لم تعد مدينتك... لم تعد مدينتكم...

احتضنت قطعة الطين... اللدنة... تحسستها بأناملي برفق وحب، إلتفت نحو السور... تعلقت عيناي بعلامة الموت... السداسي أو الثماني... عاينت صعوبة في تبيّنها... إذ كانت الشمس تنحدر... عنها... ولا تمنحها نورها...

هممت أن أقول شيئاً... لهذه الوجوه المختنقة بالدم... ولكني آثرت الصمت... اكتفيت... بان تحسست جسد الطين، مجدداً ضغطت عليه... بزهو... وواصلت سيري... نحو مدينتي...

٥-١- البؤس في مدينة البؤس.

ودويّ الصوت، في المدينة، ثانية:

- مضى الكثير... ولم يبق سوى القليل... ها قد اقترب الليل من نهايته، وستعود الى المدينة بهرجتها... مثلما تعود الى الوجوه زينتها... بمجرد ان يتم القضاء على الوحش...

- هيه... أنت... يا من تنفخ في البوق... وتختفي خلفه أو فيه اكشف عن وجهك... اريد ان اراك... ان اتحدث اليك.

- ! ! ! !

٥-٢- حين داسوا احلامي وظلت الأيام تتناسل!

٥-٢-١-

شارع يسلّمني الى شارع... زقاق يقذف بي الى جوف زقاق. حتى وجدت نفسي أخيراً... وجها لوجه... قبالة الدار، التي أبصرت النور، لأول مرة، في إحدى غرفها الشبيهة بتجاويف القلب. ومن فرطي حبي لها... وشدة تعلقي بها. لم اقوَ على مفارقتها... قط.

رحل أكثر اصدقائي من المدينة... تاركين بيوتهم ومرابع ذكرياتهم ومنابع احلامهم... وشرايين حياتهم... ونصحوني أن أرحل معهم... هرباً من الطاعون، الذي اجتاح البلاد على حين غرّة. بيد أني لم أفعل... قلت لنفسي... أن أموت... إن كان لابُدَّ أن أموت أو أقتل... وقطعاً سأموت... أو أقتل ذات يوم، بطريقة ما... تحت ظلال شجرة التفاح التي زرعها ابي في باحة الدار، يوم خروجي الى الحياة... على حد تعبير امي... قرب الشجرة التي زرعها ابوه... يوم مجيئه الى الحياة... خير لي من أن أموت، أو أقتل، تحت... ظل شجرة، لم اسقها، ولا سقاها ابي، بالعرق النظيف المتصبب من جبين التعب والكد... أو عند شجرة لم يداعب شوكها باطن كفي... ولا دغدغ اريجها... مسامات جلدي... ومن يدري... فقد لاتكون ثمه اية شجرة، ولا حتى بقعة ارض، في الدنيا كلها، ترضى أن تظلل أو تأوي إنساناً... لم يفعل من اجلها شيئاً.

قبعت فيها. بالرغم من الظلام الذي يحاول ان يمتص كل شعاع ضياء، ويسد كل كوة نور... عاملاً، قدر طاقتي... وامكاناتي الذاتية احياناً... والمصبوبة في طاقة وامكانات آخرين، احياناً اخرى أن أحرر شعاع نور من قيوده... وأفتح كوة ضياء في الحائط الحجري الصلد... ورحت، كما الجنين في الرحم، اكوّم الايام والليالي... اصنع... منها... أو هي تجدل من نفسها... الشهور والسنين... دون أن اغادر داري... هي جزء مني... وأنا بعض منها... وهل للجزء... خارج الكل حياة... أم للبعض، دون الجميع، بقاء؟

ثم...

(اشفقت) و(حنّت) و(عطفت) عليّ... الجهة التي خولت لنفسها التعامل مع حريات الآخرين... وحمايتهم من (اضرارها) وقت الحاجة...

وكان ذلك... في ليلة سوداء... وحشية السواد... تشوه فيها وبعدها... وجه الزمن...

تتدفق في أعماق نفسي الحالكة... دفعة نور... تبدد الظلمات التي يكدسها الواقع حولي... وفيّ... وتشيع في كياني... حناناً طاغياً الى تلك الأيام المضيئة... المتجذرة في ضميري... المورقة في كل وجودي... فاغوص في ذاكرتي... التي هدّها التعب... والتي ذاقت المرّ... من مداعبات الذين استضافوني... ومن طقوس ومراسيم... ضيافتهم الغريبة... التي مارسوها... معي... طيلة فترة الاقامة الاجبارية عندهم... وأظل اغوص... كسفينة تائهة... تمزق شراعها... في أعماق بحر هائج... متلاطم، يهددها... خطر مجهول... تبحث عن مرفأ... آمن يقيها اهوال البحر... وكواسجه الكاسحة... حتى ارسو... عند أعمق نقطة في قصرها... عند أكثر مواقعه... أمناً... وأماناً... زوجتي اطفالي... أمي... أبي...

هذا الحائط، وحده، الحاجز، الذي يفصل بيني وبين أجزائي... المبعثرة فيهم... سيتهدم هو الآخر... لابُدَّ أن يتهدم... سأهدمه... وأخترقه... وإذاك... إذاك فقط... يلتئم الزمن المكسور... وتتواصل من جديد... حلقات اللحظات... والأيام... المنقطعة...

ولكن قبل كل ذلك... ينبغي أن ألمّ شتات نفسي والتقط أنفاسي... واستعيد شكلي الأولي... و...

- البستان وافرة العطاء... هذا العام...

كنا نجنى الثمار... (نحوش) البرتقال. صباح يوم صيفي... مشرق.

سألتها:

- وعطاء بستاننا الصغيرة يا حبيبتي؟

لم تفهم.

جسدت حالها في نظرة حلوة... متسائلة... ثم حولت سؤالها الى شفتيها

اللتين إنفرجتا... عن إبتسامة مشرقة... تفتح باباً... يفضي الى كون من السعادة...

لم أتمالك نفسي.

تركت حبات البرتقال، تنثار... كرات ذهبية... فوق الأرض...

حلقت نحوها... يطير بي... جناحا... شوق... لاحدّ له... احطتها بذراعي، شددها الى روحي ورحت... الثم قطرات العرق المنحدرة من جبينها فوق خديها الموردين... بشفتي اليابستين المتشققتين. ألتقطها... حبة... حبة... فما تروي... عطش اليها...

غرست أناملي المغبرة... في حقل السنابل المتربة... المحمول فوق راسها... ضممتها الى صدري اكثر... ولو استطعت ... لأدخلتها بين ضلوعي... ورحت اشتم رائحة الأرض العبقة... مليئة بالحياة والامل.

رنت الى طويلاً بعينين تفيضان حباً... احسست اني اراهما... تتموج عبر نظرتها... تلمست بطنها المتكور قليلاً... غضت بصرها بإستحياء... زرعت عيونها في الأرض.

- لاتخجلي يا زوجي... الحبيبة.

- هي الأخرى. عامرة.

إندفعتُ في لهفة عامرة.

- حقا؟ ... حقا، ياسلاف.

أومأت برأسها إيجاباً. وإرتمت عليّ واخذت تلتصق بي... بحنان... تدخلني...

تساءلت:

- برتقالة؟

كورث لها قبضي... اجابت باشراقة:

- هـ ء. هـء... مازال الوقت مبكراً...

- مشمشة... اذن هي مشمشة.

- بل... حبة عنب... بهذا الحجم.

خطفت أناملها... التي تشكلت على هيئة حبة عنب... واسرعت... أمصّها...

أمص حبة العنب فتزهر في داخلي... كرمة وفيرة العطاء... وارفة الظلال... تتدلى منها العناقيد... وانا اقول لها... بيقين... تنبؤي

- ستغدو... مشمشة... ثم برتقالة... بعد أيام... ثم... ثم... ثم تكبر... نسقيها الحب... ونطعمها... الحنان ... و... وفجأة ذات صباح... أو... عند مساء... تدب بيننا حياة... حياة جديدة.

- والآن... دعني... لقد طفح الماء... تحت شجرة... الخوخ...

وتحاول التملص من بين ذراعي... المشدودين حولها... مثل غزالة ميساء... ولكني... أمسك بها:

- ليطفح... ليطفح... ياسلافتي... ولتطفح معه الدنيا... بالخير والعطاء... ولتظل بستاننا... الكبيرة ورغم صغرها... تطفح بالثمار.

وطفحت... بستاننا... بالفعل بالمزيد، والمزيد من الثمار... ناضجة يانعة... نضرة... مرّة... مرتين... ثلاثاً... أربعاً.

- أما يكفينا؟

- زيادة الخير... خير... ياأم الخبر والعطاء...

وزاد الخير... وكثر العطاء... وعمت السعادة والفرح... في بيتنا... في مديننا... في البلاد كلها... ثم...

ثم...

هجم الجراد... أكل الأخضر وتقيأ اليابس... فإختفت الخضرة وعم اليبس. إنكسر الزمن واستحال رعباً وموتاً... فتراجع الخير... وعقم العطاء... واغتيل الألق في العيون... وقُتل الفرح في القلوب... ووئد الضحك في الافواه... وتلاشي الابتسام على الشفاه... فتجهمت الوجوه واكفهرت الارواح... واكتأبت الحياة... وساد العبوس آه... آه... وألف آه... على زمن تغيب فيه العدل... وتشوه فيه الجمال.

وكمحاولة للخلاص من هواجسي وافكاري السوداء التي غرتني مددت يدي الى قطعة الطين المشدودة على صدري. غرست فيها أصابعي... فاحسست، بالرغم من صلابة وتحجر كل شيء حولي... انها طرية لينة... فأخذت أصرخ... بفرح طفولي... لاإرادي.

- سلاف... سلاف... لاتزال بستاننا تفيض بالحياة. عروقها تنبض بالحياة... وانها لم تجف... ياسلاف... ياحبيبتي... ولن تجف... لن تجف...

ولكن اين انت الآن ياسلاف؟. اين الأطفال؟ اين الاصدقاء؟ اما كان... ينبغي ان ينتظرني أحد؟

فانتكس ثانية... بفعل الاسئلة التي تنهال على رأسي... وتطحن روحي...

لاشك ان الجهة التي (أنقذتك) من حريتك ومن (خطرها الفتاك) قد اعلمتهم بموعد وصولك... إنهم كائنات مهذبه متمدنه، لانهم يحترمون القواعد والأصول. ويحترمون جداً... قداسة... الإتيكيت والسلوك الحضاري... أكثر بكثير مما يحترمون الانسان نفسه.

فلماذا... لاتجد احداً في انتظارك؟

لكن الدنيا... تبدو مقلوبه قد صار سافلها عاليها... وبات عاليها سافلها... حتى انني لم أعد أدري في خضم هذه الفوضى الخارجة عن كل بديهيات العلم والمنطق... اين اضع سؤالي... لمن اوجه إستفساري. كيف اصوغ اختياري... كيف... كيف... وقد إختلطت الاشياء... كلها... كلها...

ألبث.

ألبث اولاً...

ثم... الأجوبة... التي تمتص الاسئلة - أو قد تمتص بعضها- بعدما اخذت تتناسل وتتكاثر... بطريقة عشوائية... حتى احالت راسي الى خلية زنابير... لاتعرف الهدوء... ولا تركن الى الاستقرار

- سلاف... سلاف...

واسمع صوتها... ملء أذني... ويتشرب كل كياني... نبرتها العذبة الحنون...

- حبيبي.

- رأسي ياسلاف. رأسي ثقيلة... كاني أحمل فوق جذعي جبلاً... وجذعي يابس... يابس كشجرة عجوز... إنقطعت عنها المياه

- ارحها... يا حبيب روحي... ارح رأسك في احضاني...

- اخشى عليك... ان يلمسك الهواء... هل اثقل عليك برأسي

- رأسك في حضني... أخف من الهواء... بل هي هواء... حياتي... ياحبي... تعال ... ياحبي... تعال... اسقي جسدك ... حياة حبي... وحب أولادنا...

أولادي... أولادي... قد عدت اليكم... عادت اليكم شجرة السنديان... كما تسميني امكم... عدت اليكم... تسلقوا أغصاني تفيأوا بظلي... أنا... أقيكم الحر والقرّ... انا شجرة السنديان.

ولكن شجرة السنديان... ياسلاف. قد جفّت... أيبسها بعدها عنكم... اكل الدود جذورها... المتغلغلة فيكم...

- سلاف... حبيبتي انت ترشحين عرقاً... تعالي نأو... الى ظل الشجرة هنيهة...
- انت شجرتي التي آوي اليها... انت سنديانتي الدائمة الاخضرار... الوارفة الظلال... إليك ألتجيء... كلما نال مني تعب أو هددني خوف.
- آه. ياليمونتي الحلوة... أنت شاعرة...
- الحب شعر... ياحبيبي...

وأحتضنها... فيحتوي ذراعاي... كلّ الدنيا... وكل الآخرة... وأعتصر الزمن كله... أحنّطه في حالة حب... لايجدها زمان... ولا ...

آه... ولكن الزمن يسيل... الزمن من بين أناملي يسيل من مسامات جلدي يرشح... ويسيل... ومحطات الحضور المشبع بالغد... سرعان... ما يصبح ماضياً... ويجثم الحاضر بثقله على الروح... يسد الأنفاس. متى يصبح الحاضر ذكرى... يبتعد بإستمرار... وتظل تلهث خلفه... كما يلهث الظمآن خلف سراب في صحراء محترقة... وتأتي كل دقيقة لتسقط بينك وبينه مسافة جديد تظل هي الأخرى تتسع وتتسع وتزيدها خطوات الزمن إتساعاً وإبتعاداً... فتبتعد أنت الآخر عن ماضي أيامك... بعداً يستحيل إختصاره... كأنك سكبت قدح ماء فوق أرض مترية... يابسة عطشى... هل بوسعك لَمُّهُ من جديد ووضعه في القدح؟ والقدح... القدح نفسه... تهشمه مطرقة الحاضر.

ويجثم فوق روحك الحاضر... بأنفاسه الكريهة... وتلهث هذه المرة... الى الغد... لعل الحاضر فيه يصبح ذكرى. ولكن الحاضر يستطيل... يطول ويستطيل... حتى يبلغ الى الغد ويغدو الغد... حاضراً... غير مرئي... ولكن معاش حتى النخاع...

آه... ماأقسى ذلك!

ماأقسى أن يفرغ القدح...

ماأقسى ان يحتويك غد ... غير خارج من رحم الامس، ولا ملقح... ببذرة اليوم... غدٌ نغل... لايمت إليك بصلة... إلاّ بصلة البغض والعدواة.

لا... لا..

قدحي لن يفرغ... ولن أعيش إلاّ غدي... سيظل قدحي... ممتلئاً بمياه الحياة... جديدة نقية صافية... مثل صفاء عيون سلاف... ونقائها.

٥-٢-٢-

سلاف... سلاف

يضع سبابته على الجرس... يضغط بقوة توجع اصبعه... يشق الصمت المخيم رنين... قصير حاد... لايلبث سوى ثوان أو ثانية واحدة...

وسرعان مايردم الصمت... اجزاءه المخربة... ويخرس بقايا الرنين بعدما يسحقها الى الابد...

يضغط على الجرس مرة ثانية... وينتظر ولا يسمع له أنّة.

ولكني في المرة الاولى سمعت الأنين بوضوح.

أسمعته حقا؟ ام سمعت ماكنت تمنّي به نفسك ان تسمع.

لا...لا... لقد سمعت الرنين... يزعق.

جرب... جرب... ثالثة...

ويخنق الصمت الجاثم أنفاس كل صوت. لاشك انهم قطعوا النور عن المدينة... مع ماقطعوه من مظاهر الحياة الأخرى... وأحالوا... المدنية كلها الى قبر كبير... تتخلله... قبور... عدة.

إطرق الباب... بقبضة يدك... وما الجدوى... هل للموتى آذان كي تسمع؟

ورغم قناعته تلك... يرفع يداً ثقيلة... يهوي بها على الباب... يدوى صوت

الطرق قوياً... استجابة لهاجس داخلي يتولد في اعماقه. ينقل بصره من نافذة الى أخرى... ومن باب الى آخر..

ماأعجب ذلك.

لاأحد.

لاأحد يخرج من بيته... لينهره على فعلته في إحداث هذا الدوي... وإقلاق راحة الناس، فالنوافذ لاتزال مغلقة والأبواب بقيت موصدة... كما لو انها قد غدت بعض الحائط... حائط عال طويل... بلا فتحات... بلا نوافذ... بلا ثقوب... ولا شقوق يخترقها صوت... أو... همس... الأمر الذي شجعه على معاودة الطرق... على نحو أقوى وأشد.

المدينة نائمة. لا... لايمكن ان تكون ميتة... أو... أو... لا أرجو لها ان تكون ميتة.

نائمة؟ نائمة في عز النهار؟ ايمكن. أخشى... ان تكون حية فعلاً وسلاف؟ والأطفال؟ والأصدقاء والناس؟ و..؟ و؟ لعلهم كانوا بعض قطرات النهر المتدفق نحو المجهول... الذي جرفك معها... ولم تنتزع نفسك منه إلاّ بشقّ النفس.

جائز... كل شيء جائز.

فمنذ ان حلت اللعنة بالمدينة... اصبح المستحيل ممكناً. أذكر أنهم حين اقتلعوني... من بين اشجاري وبستاني كان مفتاح بيتي في جيبي. أتراهم لم ينتزعوه منك. مع ما إنتزعوه من اوراقك الخاصة... واشيائك الأخرى العزيزة؟

كفاك مضغاً للأسئلة! مد يدك الى جيبك... تخرج باليقين.

تسقط يده في الفراغ... تخرج وأنامله لاتقبض إلاّ على الفراغ... آه... الفراغ... الفراغ... قد ساد الدنيا... وغزا حتى جيوبي... التي لم تفرغ قط من قصاصات ورق مطبقة... ومن قطع حلويات لذيذة للأطفال... أو من فتات خبز وحبوب للعصافير...

والعمل؟

إدفع الباب.

ها؟

لم لا؟ هيا... هيا لاتتردد أليس باب بيتك؟

حقا، إنه بعد كل شى... وقبل كل شيء... فيدفع الباب بقوة، ويُفتح على مصراعيه ... ويدلف بثقة وإطمئنان ويترك الباب على حالة مفتوحاً. لعل آخر... كائناً من كان يبغي الخلاص من عزلته ووحدته... فأهلاً به... في داري...

يصعد السلم ببطء وتؤدة... ولهفة متعاظمة... للقاء الأحبة. واذ يبلغ غرفتها العلوية... يفتح الباب برقة... ولين... ممنياً نفسه بمفاجأة سارة... مع زوجته وأطفاله.

يجول بنظره هنيهة. في أرجاء الغرفة... كل شيء في مكانه... عجيب!!

أتكون غرفتك، وحدها من بين كل مخلوفات الله وموجودات الدنيا... واشيائها... قد تمردت على الإنقلاب الذي خضع له... كل شى في المدينة..؟

الأثاث نفسه... السرير... آه... والسرير أيضاً... السرير الذي شاء له حظة السعيد... ان يكون شاهداً... على اسعد لحظات حياتك واشدها... إمتلاءً بالفرح والحرية... كما شهد اشدّ ساعات سلاف ومخاضاتها الموجعة... المتوجة دائماً بأشواق حياة جديدة مضافة. والمكتبة... أيضاً لاتزال كما هي... منتصبه على ارجلها... ولكن ماهذا؟ أين الكتب... أين المجلات... أين... أيكون احد الأحبة من الشياطين الصغار... قد بعثرها... وزرع بها ارضية الغرفة... كما إعتادوا أن يفعلوا... كلما وجدوا انفسهم. وحيدين في البيت؟

يطيل التحديق... يمد من عمر نظراته... وهو يرنو الى الأشياء حوله... بحنين المُهَجَّر... العائد الى بيته بعد غربة طويلة ممضة.

تتسلل اليه رائحة غريبة... كريهة... تنبعث من مكان من الغرفة... يسد أنفه ويقول لنفسه "الستائر مسدلة ويبدو ان زمناً طويلاً قد مضى على ذلك" يتقدم بإتجاه النافذة ولكنه يتوقف إذ يتناهى الى سمعه صوت همهمة... كأن احدهم يقضم أو يمصمص شيئاً ما... ترى ماهو؟ من هو؟ إبني... هل تمكن؟ أتركَهُ

الكل وحيداً ونسوه؟ لا...لا... وإلاّ هجم عليَّ بحبّه العنيف... وطوقني بذراعيه الودودين... وإنهال عليه بفمه العصفوري... بالقبل.

ش... ش... ش...

من خلال الظلمة الحقيقة التي تنسجها الستارة المسدلة في أرجاء الغرفة... تبين طفلاً دون الثالثة... يرفع نحوه وجهاً... كان يراه لأول مرة... وإذ يتأمل عينه الواسعتين الجملتين... المصوبتين نحوه بصمت... يخطو نحوه... بحنان متزايد... متجاوزاً كل اسئلته... التي ظلت بلا اجوبة... يصطدم، وهو في طريقة اليه، بالسرير... فيتحرك... السرير... سريره... سرير سلاف... بينما يندفع الطفل نحوه مكركراً... مسروراً... كلمات... تزيد من حيرته... تتكسر في حلق الطفل قبلما تبلغ أذنيه... ولكن كلمات أخرى... تصدر من السرير... نصف مخنوفة... تحت الغطاء.

- مَنْ هنا...؟ إبتعد يا...

يفهم كل شيء... إذ يتعرف فيها على اللغة نفسها لغة الذين إحتجزوا حريته... و...

إمتدت من تحت الغطاء الذي يجلل السرير... يد هزيلة... وتتوهج الغرفة... بنور ساطع... ويزاح الغطاء عن جسدين لايغطيهما... سوى العري... ممدين على السرير.

أتكون قد اخطات في الدار... ودخلت غرفة، غير غرفتك لايحق لك دخولها... بأي حال من الأحوال... وتحت أى ظرفٍ من الظروف... لما تمتاز بها... الحالة من حرمة وقدسية ولكن ... مستحيل... مستحيل تماماً... من الممكن ان أخطيء في وجهي الذي تعكسه المرأة... وفي إسمي الذي احمله من أكثر من أربعين عاماً... ولا يمكن أن أخطيء في داري... في غرفتي في اشيائي... التي ارشها... منذ عشرين عاماً... بالحب.

وإنتصب الجسدان العاريان... وا خجلتاه.

إمرأة متهدلة مثل كيس مطاط لم يمتليء بالهواء بشكل متقن ورجل هزيل... لو سقطت عليه بصقة يسقط على قفاه...

- من أنت ابها السيد..؟ وكيف تقتحم علينا بيتنا[1]... بهذا الشكل الوقح؟

- بيتُكم... بيتُكم... أيها الداعران.

وسرعان مايقرأ الرجل الهزيل... العزم والغضب المتقد... في عينيك فيتراجع... محتمياً بالمرأة البدينة... التي إرتعبت هي الاخرى... وإحتواها الإرتباك... والإضطراب... حتى نسيت أن تستُر عُريها... فظلت جامدة في موضعها... كتمثال سيء التناسق... صنعه مثّال فاشل... فشعرت أنت بالخجل والاشمئزاز... فأدرت وجهك... وصرخت بهما:

- كيف تدنسان... عش أحلامي... أخرجا... أيها اللصان... أسترا عورتاكما... وإنقلعا...

وبينما تروح تنتظر تنفيذ أمرك غير قادر على النظر اليهما وهما على حالهما البشع ذاك. ينهال شيء ما، قوي عنيف على رأسك من الخلف... ثم يتهشم زجاج نافذة غرفتك...

وعبثا احاول العودة الى بيت احلامي وعش صغاري فقد أُغلقت الابواب... وأُحكم إغلاقها.

٦-١- وهذا الوحش... اين هو ؟

ويمرق بجانبي شيء ما أشبه بكرة... ركلها احدهم بقوة هائلة. لايسعفني الوقت. بسبب سرعته الخاطفة... أن اتبين ملامحة. تفتح على اثر مروقه نوافذ عديدة تطل منها رؤوس كثيرة... تقذف وجوهها الدهشة.

- آه. انه لايزال حياً...

- آه. انهم لايعملون شيئاً من أجلنا.

- كذب. كل وعودهم وإدعاءاتهم كذب.

(١) للتأكد من صحة إدعائه بملكية البيت... أرجو الرجوع الى الهامشين السابقين المتعلقين بـ"صاحب" اللحوم و"صاحب" الفواكه. فقد سلك هذا البيت طريقاً مشابهاً في الإنتقال أو... إرجع الى المقطه (٢-٢) فتعرف الحقيقة.

م.زنگنة

– لاأحد... يحفل بنا.

– ونحن عاجزون عن فعل شيء.

– آه... ما أقسى ذلك... ما أقسى كل شيء.

وتتصوب الوجوه نحوى... كانها تستهدفني شخصياً.

– إنتبه... ايها المجنون...

– إختف... يامجنون... لاتبحلق على هذا النحو... اختف... يا... هذا... توار... عن الانظار...

تلفتُّ ذات اليمين واليسار... فلا أجد خارج البيوت سواى. اذن فانا المجنون المقصود... مجنون؟ أنا مجنون؟ وأكاد... اطلق قهقهة... مدوية. لولا ... ان موجة من الكلمات والخطاب المباشر منطلقة من النوافذ... تحاصرني:

– أجل... أجل... أنت... أيها المجنون.

– لقد... مرق الوحش من جانبك.

– حذار... ان يلمسك.

– ستنقل الوباء الى المدينة...

– ارجموه... ارجموه...

ويسرع الشيء نفسه، على مرأى مني... ولكن مرة اخرى افشل في التمعن... في ملامحه... ويظل في ذاكرتي. كائنا هلامياً، مندفعاً، نحو مكان ما... غير واضح المعالم...

احاول ان أتكلم الى الرؤوس المتدليات لكن النوافذ، تغلق كلها، في الوقت نفسه، وتختفي الوجوه. وهي تجر معها دهشتها... لتظل تجترّها ممزوجة بشكوكها التي تتسع... خلف الجدران الصماء.

ثم... يرفّ دثار الرعب الذي ترتديه المدينة مجدداً... ومن تلقاء نفسه... وتعود الاسئلة الحيرى تتراقص على صفحته من جديدة... على أنغام الخوف والرعب... التي تمتلىء بها حتى تلافيف الهواء... وذراته.

٦–٢ عدا المياه. للسمكة الحرية ان تعيش أينما تريد.

– مهلاً... مهلاً فانا..

– اذهب الى الجحيم... أنت و...

وتسقط بقية عبارتي في الفراغ.. كما تتبعها بقية عبارتهم.. فلا أحد منا يفهم الآخر..

العتمة... تحتوي المدينة... وتقمّطها...

املاً... في بصيص من النور... في شعاع من الضوء... ارفع... بصرى نحو السماء... ولكن السماء لم تعد السماء نفسها. بل... بل لم يعد ثمة سقف للفضاء يسمى السماء... لقد استحال السقف... سحائب داكنة من الابخرة والادخنة تتقيؤها بنايات عالية... فتنسج غطاءً أسود ثقيلاً... يخنق الأنفاس... يتشكل كابوساً روحياً... يفرز الكابة... في النفس...

مرة أخرى... أرى النوافذ مغلقة... والابواب موصدة... وسائر الفتحات والشقوق مسدودة... والناس...آه... حتى الناس... قد... أُبدلوا... بناس آخرين... لايمتون بصلة الى ناس... مدينتي المتداخلين... المتآخين... المتحابين... الممتدة بينهم جسور المودة... الشادة بعضهم الى البعض... مشاعر الصدق المضمخة بعطر الألفة الريانة... بطراوة العاطفة الحقيقة... التي تشد الأعماق الى الاعماق وتفتح الاعماق الى الاعماق... دون خوف... وبلا شكوك... لا... لا... هؤلاء ليسوا هم... ليسوا ناسي الذين اعرفهم ويعرفونني... الذين أحيا بهم... ويحيون بي هؤلاء... صُم... بُكم... عُمي... لايرون... ولا يسمعون... ولا يتكلمون لقد... عقد الرعب ألسنتهم... بل قصها من منبتها... ولم تبق في أفواههم... ألسنة... أو ماشابه... ففقدوا... القدرة على النطق... وتقطعت فيما بينم وشائج المحبة... وتهشمت جسور التواصل... فترامت بينهم صحاري من الجدب واليبس والجفاف... صحاري لابداية لها... ولا نهاية... لايسمع احدهم الآخر... وبدوا اشبه بمجموعة سفن شراعية تائهة في خضم بحر لجبّ... صاخب. يقتل الموج الغادر الكلمة المحلقة... وتغتال كلاب البحر... كل محاولة للتواجد عبر الآخرين... والشمس... آه... الشمس نفسها لم تعد شمس مدينتي الكريمة... فقد أزورت وأقلعت عن فرش ارضها... جبالها ووهادها... اشجارها وانهارها بالفضة... صارت لاتمنحها الدفء والنور... لقد... أصابها... العطب... هي الأخرى. آه... ماذا جرى للدنيا...؟ ماذا حل بمدينتي...؟ ماذا حدث... لأهلي...

زوجتي... اطفالي...؟ أكانوا... ذرات ملح. أُلقيت في البحر... أم...أم ... ابتلعهم الوحش...؟ واين هو هذا الوحش؟ ماهو؟ ... اي كائن خرافي... هو هذا الوحش الذي بات يجرد مدينتي من كل مظاهر الحياة... وينشر الظلام والموت في أرجائها وكيف تسنى له ان يقيم الحواجز والأسوار... والسدود والجدران بين الإنسان والإنسان... وبين الانسان ونفسه... وذاته... الطامحة أبداً... للقاء... مع ذوات الآخرين... وأنا... أنا... أريد ان أتكلم... أريد... ان أصرخ... ان أبكي... أن اضحك... أن أعوي أن... أن... امارس أي شيء... يقنعني بأني مازلت إنساناً بشراً كائناً آدمياً... بوسعه ان يضحك... ان يبكي... ان يجوع... ان يحلم... ان يعمل... ولم يصبح... صخرة... تتقاذفها الاقدام... وتركها... كل حين.

لماذا تنكرني مرتين على هذا النحو البشع... لماذا تدير لي ظهرها كأنني لست إبناً... من أبنائها البررة... بل حتى أشد ابنائها براً بها... وبتاريخها؟ لماذا تشيح بوجهها عني... كلما... فتحت لها عيون قلبي وروحي... واحتضنتها في سويداء فؤادي... وزرعت في اعمق اعماقي... شوارعها... وازقتها وبيوتها وحتى مزابلها... لماذا...؟ لماذا...؟ لماذا؟

كيف تهيأ لهذا الوحش ان يدخل مدينتي... في أية غفلة من الناس دخلها واخذ ينشر الرعب... والعزلة بين سكانها...؟ ثم... ثم... متى كانت مدينتي مأوىً للوحوش؟ لماذا صارت كذلك الآن؟ آه... ماأفظع ان يكون الإنسان وحيداً. يقرض اعصابه في مدينة مهجورة... خالية إلاّ من الصمت والفراغ... الآن... الآن فقط ادركت مدى فظاظة وقوة العقوبة التي فرضتها عليَّ... "دائرة حجر الحريات الشخصية والعامة" بإعادتها اليَّ حريتي كي اعيش... وأجوب، وحدى... ووحدى فقط... مدينة حرة!! تمارس طقوس حريتها ومراسيمها... بكل حرية... بحرية تامة... تنحت معالمها... وتحفر وجودها في الخوف... والوحدة... والموت... البطيء الذي بات يتسلل الى كل ما ومَنْ فيها ويتنزه في أرجائها... فوق جثث... وأشلاء كائنات لاحياة فيها... ولا دماء تجرى في عروقها... أي جدوى لحرية تمنح لمخلوقات ... بعدما... تُسرق منهم حيواتهم.

الحرية... ياسادتي الاحرار جداً!! ليست تحفة نادرة... ماسة نغلة لامثيل لها في الوجود كله... لايمتلكها سوى افراد قلائل... أو بالأحرى فرد واحد... يستمدّ

منها امتيازه الطبقي... وزهوه الطاووسي واستعلاءه القانوني على الآخرين... الحرية واقع يومي... مناخ بشري... ينبغي أن يعيشة ابسط الناس... حتى النخاع... الحرية... ارادة شخصية واجتماعية لاتتحقق إلاّ عبر تحقق ارادات الآخرين... الشخصية والاجتماعية... أية فائدة... من حرية تلبس فرداً في دنيا لايجد فيها للحرية ظلاً يأوي اليه من نيران الإضطهاد والقتل اليومي... يلاحقة الارهاب بألسنته اللهيبية أينما يتوجه... لتقذف به أو تدفعه دفعاً في أتون العذاب... هل... يتواجد إنسان حر... في مجتمع كله عبيد... هل توجد شجرة خضراء في صحراء من الصخر... والعقم... والجدب؟ ما نفع حرية تمنح لسمكه تُنزع من المياه... ويُلقى بها في الصحراء وسط الرمال الحارقة والأشواك المسمومة... انها كبرى الخديعات ان تعشش حرية، مهما ضؤل حجمها وصغرت مساحتها بين طيات إنسان معزول عن اخوته... منطقع الجذور والاغصان عن الآخرين... هل أنا حرّ؟ لا... لا... وألف لا... أنا لست حراً... مثلما ليس حراً على الاطلاق من لايستطيع أن يحقق أدنى رغبة من رغباته الإنسانية... فالحرية مسؤولية تاريخية... إذ أن "كلّ إنسان مسؤول عن كل ما يجري في العالم"... فما هي مسؤوليتي... أنا المعزول عن كل العالم... بل وحتى عن نفسي. ما نفعي لأي شيء في كل العالم، أو حتى بعض العالم... بل... بل حتى لنفسي؟ أنا المحنط داخل مدينة جوفاء... ناسها صخر، حياتها حجر...؟ لن أكون حراً... إلاّ حين اختار موقعي بين الآخرين فأين هم الآخرون... أين الآخرون...؟

أيها الحانوت- أو الحانوتي- الذي يتعاطى بيع وشراء... الحريات... أو بالأحرى توابيت الحريات وقبورها... اني أعيد اليكم حريتي... وتابوتها الذي تتنفس فيه وتعيش فيه... لقاء حرية الآخرين... حرية مدينتي ... حرية ابنائها... وادفع حياتي ثمناً لها... شرط ان لاتكون محشوة في... في... تابوت... محمول على أكتاف الموتى...

ولكن قبل كل شيء... لابد أن تضع يدك... على هذا السر الرهيب الذي يجوّف مدينتك على هذا النحو المريع...

- هيه... أنت... أنت يا من أسكنوك في هذه الدار...كائناً من كنت اخرج إليَّ...

لأراك... وتراني... لأتحدث اليك وتتحدث إليَّ... هيا... هيا... أخرج... أخرج إليَّ... أنا أعرف انك هنا... قابع... في غرفة من غرفها المغلقة على نفسها وعليك... هيا... هيا... هيا.

طاق..طاق..طاق... طا طا طا... ق ق ق...ء.

وتردد المدينة، من اقصاهما الى اقصاها... اصداء ضرباته على الباب... كضربات هائلة تنهال على طبل خرافي اجوف. يعيش دوامة الصدى... يرشح جسمه عرقاً بارداً... يحس بجفاف شديد يملأ حلقة... يخنق كلماته... يزحف نحو افكاره... يئدها... قبلما تبصر الحياة... تتسلق سقف حلقه حشرة بأرجل اخطبوطية منشارية، لايعرف لها اسماً... يهمّ ان يتقيأ كل ما في جوفه... بجد فمه ناشفاً مليئاً بنشارة الخشب... تتساقط على الأرض كذرات من التراب وقطع من الحصى... يشتد الجفاف، يترسخ في داخله اليبس. يهمُّ أن يصرخ... أن ينطق... مستنجداً بشخص ما بقوة ما... فيجد لسانه ثقيلاً جامداً يأبى الحركة، كأنه قد استحال الى كتلة رصاص... يضرب يديه في الهواء يعلو صرير الريح... شبيهاً بفحيح ثعبان يتلوى بين احراش غابة يابسة... ويشتد اليبس اكثر... يشمل كل انحاء جسمي... فأحس بأكثر أعضاء جسمي متخشبة... اسمع لحركات أطرافي قرقعة كما لو ان مجموعة من قطع خشبية جافة تتضارب. أبذل جهدا خارقاً لأتحسس واتلمس قطعة الطين... المشدودة فوق نبض حياتي، فألقاها هي الأخرى خشنة... مزروعة بالشوك... أحرك شفتيّ فأحس بهما تتشققان... وتنزفان دماً. وبصوت مخنوق أصرخ:

- مـ... ا... ء مـ... ا... ء.

لا احد يسمع صوتي... حتى أنا لا اسمع صوتي...

اضغط على... كتلة الشوك... فتدمى أصابعي... أصرخ ثانية .

- مـ... ا... ء مـ...ا...ء السمكة يلزمها... الماء.

أيضا- لاتتجاوز نبرات صوتي حدود جسمي...

٧-١- الرؤية... بعيون الغير .

الصوت: ايها المواطنون... يا ابناء مدينتنا العزيزة المنكوبة. إطمئنوا... فقد

التقطت أجهزتنا الألكترونية الحساسة كل حركات وسكنات الوحش الغريب، الذي داهم المدينة على حين غرة. كما رصدت سائر اتصالاته المريبة العلنية منها والخفية. ولا يخفى عليكم ان معرفة العدو، تشكل الخطوة الاولى نحو الإجهاز عليه... فاطمئنوا واركنو الى الهدوء... وضعوا ثقتكم اللامحدودة بقادتكم الذين يواصلون الليل والنهار في العمل من اجلكم. إنهم يفكرون... ويخططون... ويرون... بالنيابة عنكم... كي يصنعوا لكم أسباب السعادة... والعيش الرغيد...

اصوات: "تنبعث من امكنة متعددة مختلفة... وتبدو جراء ذلك متداخلة... متشابكة... لايتبين منها أحد... شيئاً ... ما".

.....

.....

.....

.....

٧-٢- أغريب عن أرضه ، من سقى تربتها بعرقه ودمه ؟

وحدى...

وحدى... اجرجر حريتي صليباً على ظهري... مدقوقاً في عظامي.

صرخت: ها.

ردد الصدى: ها... ها... ها... ه ...ه.

ضحكت: ها ها ها ها...

رجع الصدى: ها ها ها ها... ها ها ها ها... ه... ه.

قهقهت: ها ها ها ها ها ها.

امتزج الصوت بالصدى: ها ها ه... ها هاه... ها ها ها ه ه ه ه.

دوّى صوت:

- من هذا الوقح الذي يجرؤ على الضحك علينا في محتننا ؟

- محنتكم؟ اين هي هذه المحنة؟ لقد سجنتم المدينة كلها في محنة وهمية...

في كذبة حقيقية... اخرجوا... من قوقعاتكم حطموا جدران سجونكم... تحرروا من مخاوفكم.

وفُتحت النوافذ من جديد... وتدلّت رؤوس... رؤوس بشر ولكني عبثا احاول التعرف على اصحابها... "لا..لا... من المستحيل ان يتصرف الانسان على أي منهم" انهم تشكيله غريبة من المخلوقات الآدمية... بألوان واشكال وسحنات... لاهوية تجمعها... ولا لون يوحدها... بينهم الأسمر شديد السمرة حد السواد. وبينهم الأصفر... شديد الصفرة حد الشحوب والمرض... فيهم الأنيق حد الإفراط في الأناقة. والأشعث... غير المشذّب... أمعن النظر في هذه الكائنات البشرية... أو بالأحرى... اللابشرية، فأتبين من الأجساد المتراصّة بوضوح وجه المرأة البدينة... تحتضن طفلاً دون الرابعة... تتلصص بوجهها تشبع فضولها في التطلع الى الشارع... واذ تلتقي عيناي بعينيها... تتوارى. لا... لا... لاتتواري... لن اعرض عريك على احد... ولكن عليكما... ان تغادرا غرفة أحلامي... أيها اللصان القذران...

- آه... المجنون... المجنون ثانية...
- ويلتاه... لقد عاد الى المدينة مرة أخرى...
- انه هو... هو... من يجلب النحس والشقاء الى المدينة...
- هو... ولا أحد سواه...
- أيكون... هو... الوحش... المقصود...
- هو من يبث الرعب... في المدينة...
- خلصونا... منه... أنقذونا منه...
- ليرحل عن مدينتنا[1]... الآن... وفوراً.
- ليُلقَ به خارج السور...
- لقد أقمنا السور باجساد أبنائنا وأزواجنا... فما جدواه إذا كان لايمنع تسلل... هذا الجرذ.
- إرحل... ايها الغريب... إرحل... إننا لك... ناصحون...

أرحل عن مدينتي؟ كيف؟ مستحيل.

(١) كي لاأثقل عليك عزيزي القاريء بالشروح أرجو الرجوع الى الهوامش السابقة.

إنها مدينتي... مدينتي أنا... جذوري تمتد الى اعمق اعماقها... هنا ولدت... كما ولد آبائي واجدادي... وهنا أموت - ان كان لابد أن أموت - كما ماتَ آبائي واجدادي... في...

- أنت... غريب... لاأحد يعرفك.

انتم الأغراب... انتم الغرباء. انتم الغربان. أنتم الغروب آه... لا... لا... لاتختفوا... لاتتواروا خلف الحيطان... دعوني... أنفذ الى اذانكم التي ملأتها الأكاذيب... بصوت الحقيقة... بصوت التاريخ... بصوتي... آه...لا...لا.

وأحتمي بكفي... من قطع... القطن المندوف التي أخذت تتساقط على رأسي... والتي شرعت تتداخل... لتستحيل سحابة صفراء. تمطرني وابل... من البصاق... ولكن... إذ يلامس الأرض... يستحيل الى قطع من اللحم الممضوغ... والعظام المتكسرة... والدم المسفوح... والجلد المتشقق.

٨-١- الرعب زاداً يومياً ، توزعه الدولة مجاناً... وبالتساوي!!

المدينة ترتجُّ رجاً غريباً... احس بان الأرض تميد بي... تهتز من تحت اقدامي... تنجرّ... كما لو كانت بساطاً... تسحبه قوة لامرئية.

أتوقف عن الجري... محتمياً بحائط. تلقيني الصدفة. أو تلقيه على مقربة مني... وانا احاول استرداد توازني... واتلفت، بعدما التقط انناسي المنقطعة... مستطلعاً... فإذا المنظر الآتي اتابعه... من موقعي... كشريط سينمائي...

يمتلىء المجال المنظور... بدبابة... ضخمة هائلة الضخامة... لاتلبث ان تتلاشى... يمثلي الكادر هذه المرة... بقافلة طويلة من الدبابات تبدو عن بعد مناسب... تسد الأفق... تسير كلها باتجاه واحد... ثم تتفرع الى خطوط سير... متقاربة... ومتباعده... تعقبها اولاً ...ثم تحيط بها... مجموعة كبيرة من السيارات... والعربات الحديدية... تحيط بها من كل الجوانب... ألوف مؤلفة من المدرعات... كل هذه... الآليات... لايظهر فيها... ولا منها... مخلوق... بشري. كأنها تسير... آلياً... أو تسيرها... أجهزة... غير مرئية... وهي، كلها، تمتاز في سيرها... بنظام دقيق.

بعض البيوت والمباني... تتهاوى... تعلو على اثرها... اصوات كائنات بشرية... صارخة... زاعقة... ممتزجة ببكاء وعويل... تتخللها نداءات استغاثة بلغة غير واضحة... لأنها بلغات متعددة يستحيل تبيانها... أو تفريق بعضها عن البعض... سرعان ماتتلاشى كلها في هدير الآلات وضجيجها وصخبها... يطغى على الأحداث جميعاً أزيز طائرات تطير بسرعة خارقة... وبأعداد كبيرة... تحجب عن المدينة النور... فتسقط... لثوان في ظلام دامس... ثم تنخفض الطائرات... وتنخفض... حتى تكاد تلامس بيوتاً لاتزال قائمة... فيتحول الأزيز... الى هدير... يصم الآذان...

ثم يدوى الصوت مجدداً، بقوة، مختلطاً بسائر الاصوات الاخرى. ولكن بقدر غير قليل من الوضوح: يا أبناء المدينة التي بلاها الرب بهذا البلاء العظيم... يامن صبرتم وصابرتم... قد آن الآن وقت خلاصكم... ها قد إستجابت دولتكم العتيدة التي تضع مصالحكم فوق كل مصلحة... لتضرعاتكم وتوسلاتكم... وهاهي تزجُّ... بكامل قوتها ومراتبها وآلاتها البشرية واللابشرية... في المعمعة... لنصرتكم... وقد اغلقنا سائر ابواب المدينة... سوّرناها... بأجساد أبنائنا... سددنا كل ثغرة... كل نقب... كل منفذ... وحاصرنا الوحش... من كل الأطراف... وهو هالك لامحالة... الوحش هالك... لامحالة...

رددت المدينة الصدى: الوحش هالك لامحالة... الوحش هالك لامحالة... الوحش ش ش ش...

علا صوت من بين أنقاض أحد المنازل المنهارة... مخنوقاً... ممتلئاً بالهلع:

- لقد بذرتم فينا الموت... قبلما نرى الوحش... اننا نموت داخل جلودنا... أنقذونا انقذونا... انقذو... نا...

مات الصوت... تساقط اشلاءً. بمجرد خروجه من مستودعه فقد سحقه هدير الدبابات التي عادت تجرى مرة أخرى ووجدت نفسي أجرى معها، حيث تجري دون أن أدري... أو أهتم بأن ادري... الى اين تجري..

- إبتعد... إبتعد... أيها المجنون... إبتعد عن الطريق...
- آه... اقتلوه... اقتلوه... لاتدعوه يعرقل سير الدبابات...

- لاتدعوه... يعين الوحش على الفرار.
- اقتلو... عميل الوحش... اقتلوا كل من يعين الوحش على النجاة.

وتوقفت الآلات جميعا... فجأة امام زقاق ضيق... حيث إنسلَّ ذلك الشيء الذي كانت تطارده. توقفت أنا الأخير. إختبأت خلف بناية متهدمة... أرقب من مخبأي... مايجري فوق الأرض... تحت سماء غطتها أو كادت الطائرات.

إنتظرت... محتبس الأنفاس خروج احد من احدى الدبابات، أو المدرعات، اوالسيارات... اتحدث اليه... وافهم منه... جلية الامر.

بيد ان انتظاري طال وطال... ومع طوله... وبسببه أيضاً... راح صبري يقصر... ويقصر... حتى نفذ... فاضطررت ان اخرج من مكمني. خطوت بحذر شديد نحو دبابة... قريبة منى... وخشية ان يبصرني من فيها... ألقيت بنفسي فوق الأرض... واخذت ازحف نحوها زحفاً... واذ بلغتها... نهضت ارتقبها. بسرعة... وكشفت الغطاء وهالني الأمر... الى حد جعلني أصرخ. غير حافل بكل ما يمكن ان يحدث لي جراء مخاوفي تلك.

- فارغة... ياناس... الدبابة فارغة... ليس فيها أحد... أنا...

عاد الصوت... طاغياً... على صوتي... ملاشياً إياه: لحظات... لحظات... ويتقرر الشكل الذي ينبغي ان يقتل فيه الوحش... شنقاً حتى الموت. أو... رمياً بالرصاص... أو نشراً بالمنشار... وهو... حي حتى يلفظ أنفاسه المعادية. الشكل أيها... الإخوة، مهم. وهو لايقل اهمية وخطورة عن خطورة الوحش نفسه. ولهذا السبب فقد ظهر خلاف بسيط، حول الجهاز الذي يستحق شرف خوض المعركة المصرية مع الوحش. وسينتهي الخلاف بعد المناقشة... مثلما تنتهي كل خلافاتنا بالتفاهم التام... وايجاد الصيغة المثلى... للاجهاز عليه وإنقاذ... المدينة... والبشرية من جرائمه العلنية والخفية التي اقضت مضاجعكم...قتلت النوم من عيونكم... والأمان في قلوبكم.

٨-٢- في إنتظار الجنرال!!

قتل المزيد من الناس يخلق أزمة سكان. "س.ب"

هدم المزيد من البيوت يخلق أزمة سكن. "س. ح"

ليأتِ الجنرال ويقرر. ذلك هو الحق. لعمري ذلك هو الحق. "ق.ق"

[غرفة قيادة العمليات الحربية. احتدام في المناقشات. بين السلاح البري "س.ب". و السلاح الجوي "س.ح". بحضور قائد القوات. ق.ق.]

س.ب: يدخل منفعلاً، أين الجنرال؟ أين الجنرال؟

ق.ق: ماذا وراءك؟

س.ب "بيأس": الدبابات (يتوقف إذ يرى "س.ح" يردد... الدبابات).

ق.ق: ماذا بها؟ ماذا جرى لها... أجب.

س.ب: توقفت.

ق.ق "برعب": توقفت؟ تقول توقفت؟ والوحش. والرعب الذي يبثه في هواء المدينة.

س.ب: كان الوحش على مبعدة خطوات... و... وفجأة توقفت؟

ق.ق: أيمكن هذا (بإنفعال يخاطب س.ح) وأنت. لماذا سكتَّ كالدبابة. أقصد كالغير... لماذا لاتقول شيئاً..؟

س.ح "بغرور": أنا غير مفاجأ بالأمر كنت أتوقع ذلك.

س.ب: محتداً ماذا تقصد يا صديقي الغريم.

س.ح: أوه... لاشيء... لاشيء البتة.

ق.ق: كيف لاشيء. أنت تقصد شيئاً. لعمري انت تقصد شيئاً...

س.ب: بالتأكيد... يقصد شيئاً.

ق.ق: اذن... لماذا لايتكلم... لماذا لايقول..

س.ب: إسأله ياسيدي... إسأله..

ق.ق: اني اسألك... بل آمرُك... وعليك أن تجيب.

س.ح: سيدي... المسألة واضحة... الدبابات عاجزة عن حمل الشرف الذي أُنيط بها... وذلك هو رأيي منذ البداية.

س.ب: عاجزة... دباباتي عاجزة... يا...

س.ح: ولماذا تتوقف إذن؟

س.ب: أنا الذي أوقفتها.

س.ح: إذن قائدها في هذه الحالة، هو العاجز...

س.ب: انا... أنا عاجز عن. "يهم بالهجوم عليه".

ق.ق "يمسك به": تحدث. إليّ. إشرح المسألة لي... أنا... لماذا أوقفتها؟

س.ب: الزقاق... يا سيدي، الزقاق الذي تسلل اليه الوحش ضيق... ضيق جداً... ولو سيرت خلاله أية دبابة تهاوت كل البيوت التي على طرفيه...

ق.ق: ولماذا لاتتهاوى... ماشأننا بها. أنحن الذين بنيناها؟

س.ب.: بل يجب ان تتهاوى. تتهاوى وتتهدم كل البيوت التي يحتمي بها الوحش.

ق.ق: إذن. ما هو الإشكال... أنا لاافهم... لعمرى أنا... لاأفهم شيئاً...

س.ب: الموافقة، ياسيدي لابد من موافقة الجنرال اولا ً.

ق.ق: آها... حق... لعَمري ذلك حق...

س.ب: "منتصراً" وبإعتباري عسكرياً ملتزماً صارماً... مطيعاً... لاأسمح لنفسي بالتورط في أي عمل يمكن أن لايرضى عنه الجنرال "موجهاً الحديث لـ"س.ح" أنا لن أفرط بسمعتي العسكرية وإنطباعات سيدي الجنرال الطيّبة... عني...

ق.ق: ذلك حق... لعمري... ذلك هو الحق... وهو ماينبغي ان نحرص عليه جميعاً... عسكرين منضبطين... مطيعين...

س.ب "بتباه": أرأيت ياصديقي وغريمي... أرأيت مبلغ العمق... والحكمة في تصرفي؟

س.ح: بالإمكان جعل تصرفك أكثر حكمة وعمقاً. (يسكت متعمداً)

س.ب "بإهتمام":كيف؟

س.ح: اذا واجهت العدو شاهراً سلاحه عليك... وجهاً لوجه أدر له ظهرك... ريثما يأتيك امر من الجنرال بالهرب... أو... بالقتال.

س.ب: آه... آه... أنت تستهزيء بي... ياهذا... ولكني... أعرف كيف... "يهجم عليه".

ق.ق "يوقفه": رويدكما... رويدكما... الجنرال قادم... ولكن قل لي... ألا... يفلت الوحش... حتى...

س.ب: دباباتي وآلياتي... تسد فم الزقاق... بإحكام... لاتدخل ولا تخرج منه... نملة.

س.ح: وطائراتي تحجب السماء. وأنا... (أصوات أرجل وقرقعة سلاح)

ق.ق "بقاطعة بسرعة متخذاً هيئة الإستعداد": الجنرال. لقد وصل الجنرال... أنا اسمع وقع اقدامه... إستعداد... إستعداد.

٩-١- القرار .

"ايها المواطنون... يا أبناء مدينتنا الشجاعة:

ان الوحش الذي سلبكم الأمان والراحة... وزرع في عيونكم اشواك الرعب وإبر القلق... قد دنت ساعته فقد وصل الجنرال... بشخصه الكريم... الى الميدان. وبالنظر لخطورة الأمر ودقة الموقف... وتجنب سفك المزيد من الدماء... واحداث المزيد من الدمار... فقد قرر سيادته ان يخوض المعركة، وحدة. على كافة الجبهات... مستخدماً كل مايراه من الأسلحة والعتاد... والناس. فابتهلوا الى اللة تعالى... ان يوفقه في مهمته الصعبة ويعود سالماً... منتصراً... داحراً الوحش ... الى الابد..."

٩-٢- ليكن... مايكون .

ساقتحم هذا الزقاق... وليحدث مايحدث!!

يحتويني زقاق ضيق... تنهض على جانبيه... بيوت واطئة تضرب عليها ظلمة... تجللها بالسواد... ويطبق عليها صمت ثقيل... يجعلها تبدو... كانها... مجموعة قبور... متلاصقة...

"ثمة مزبلة في نهاية الزقاق." تذكّرني بها... رائحة العفونة التي تشتد... كلما أدخل في العمق...

أين الوحش؟ ذلك كل مايهمني... وفي سبيل معرفة ذلك يهون كل شيء"مَنْ

هناك؟" أتساءل إذ يتناهى الى سمعي صوت طقطقة عظام تتكسر. خلف كومة أوساخ وقاذورات..

أحمل... جسمي فوق أصابع قدمي... وأمد عنقي فأرى مخلوقاً... يشبه ذلك الشيء الذي مرق بجانبي... بضع مرات... أمعن فيه النظر... بدقة... أحدق فيه طويلاً... حابساً أنفاسي... إنه هو... هو بعينه... ولكنه... ولكنه... كلب... مجرد... كلب...

صرخة مكتومة... تندّ مني... مصدوماً... بخيبة مريعة... هل يمكن؟ ايمكن ان تبلغ الخديعة... خداع الناس... هذا المبلغ... اتوقف مصعوقاً تماماً... تنتابني حالة غامضة... لا أعرف لها اسماً... ولا افهم لها معنى... فأتوجه إثرها اليه... الى الكلب... كوچ ... كوچ... كوچ... يلتفت نحوي... يهم بالهرب مرعوباً... أتناول عظمة... ألوح له بها... فيتوقف... يتطلع الى بعيون نصف مغلقة... أُلقى بالعظمة أمامه أبتسم في وجهه... أهشّ له... راغباً من اعماقي... ومصمماً بصدق على كسب ودّه... و... صداقته... يظل يرنو اليَّ... في استغراب ثم يتناول العظمة... يشد عليها با بـ.."بأسنانه" امدّ له يدي واشير اليه بصمت أن تعال ... تعال ... لاتخف مني... لا لا... تخف... يهز لي ذيله... أصرخ بصمت... رائع... عظيم تلك علامة رضى وإطمئنان. تعتلي شفتيَّ إبتسامة. يخيّل إليَّ أنها تنعكس على وجهه هو الآخر، على شكل مشروع إبتسامة... يكتمل. بعد مضي بعض الوقت... تتسع عيناه... فألمح فيهما حمرة غير عادية... كأنما تشكوان لي الظلم الذي لحق صاحبهما... تسقط العظمة من بوزه فلا يحرك ساكنا... يظل جامداً بكل كيانه... ثم يتدلي لسانه ... ويروح يلهث... وترتجف... كل عضلة في جسمه. أناديه مرة اخرى... لايتحرك. يرسل نظرات ساهمة... ولا يستجيب لندائي... فأخطو نحوه... بحذر شديد امد يدي... يمدُّ رأسه ويحرك ذيله... واجد نفسي مترعاً بمشاعر الود التي يبديها نحوي. امسد راسه بحنان... فاشعر بخشونة غير طبيعية للمس شعره... ثم اتبين... بقعة دم... متخثر... تكسو مساحة واسعة من رأسه ورقبته. لعل احدهم قد اصابه... فأحتضنه بحب... يتجاوب مع مشاعري الداخلية ويروح يتمسح برقة وحيوية... إذن فأنت من أسندوا اليك أن تلعب دور الوحش... كي يملأوا المدينة برعب

وهمي... ويخلقوا المناخ الملائم... لما يخططون ويدبرون...

ياللفكاهة... ياللمرارة!! لماذا لم يتقمص الوحش احدهم... إن أياً منهم أقدر على تنفيذ الدور... واجدر به... وهو بالتاكيد سيكون أكثر إنسحاماً مع نفسه... إذ يعبر بصدق عن كل مايرغب ويهوى... أما أنت... أنت أيها الصديق... الأمين... فالأمر يعني نفياً كاملاً لوجودك. ولعلك لهذا السبب رفضت ونفيت نفسك الى هذه المزبلة ... لا ألومك... فهي أفضل من المدينة الخانقة التي يخفونها... بصورة دائمة... وبشتى الأشكال. تحت أطنان الاكاذيب... والخدع... التي تتفتق عنها... عقولهم المريضة...

- لو رأوه... لقطّعوه... إرباً... إرباً.

- لن يراه أحد... لن أدع أحداً يراه... اضمه الى روحي أشق صدري... وادخله بين ضلوعي. اشده اليَّ اكثر... فيستسلم لي... بصمت... فيشتد حبي له... ويتعاظم عطفي عليه... فأنهال عليه تقبيلاً... وضماً...

والرعب الذي يتمشى في المدينة... ويتنفسه الجميع... أأتركه... ينشر الناس بمنشاره الخرافي؟ أما يتوجب على ان اصفعهم بالحقيقه وأمزق أمامهم الأكذوبة التي يخوّفون بها الناس؟

بلى... بلى... ذلك ما ينبغى ان أفعل.

- وأنت... أنت أيها الصديق... اما يضيرك ذلك؟

واتطلع اليه... أستأذنه في مهمتي... واطلب اليه ان يساعدني... فيرفع الى عينين خابيتين... فاسرع أنفي مخاوفه:

- لا... لا تخف... لن ادع احداً يمسك بسوء... حتى ولو ذبحوني...

ابتسم في وجه... مشجعاً... ومطمئناً... فأكاد أرى أن الإبتسامة قد عادت الى... ملامح وجهه.

١٠-١- بلاغات... بيانات... نداءات . .

١٠-١-

.....

١٠-١-٢-

.....

١٠-١-١٠٠-

.....

١٠-١-١٣٠-

.....

١٠-١-١٧٠-١٠-١-" "-١٠-١-" "-١٠-١-" " الخ . . .الخ [1]

١٠-٢- كل ظلام العالم عاجز عن اطفاء شمعه . "ناظم حكمت"

كل اكاذيب العالم عاجزة عن طمس حقيقة . "انا"

- هيه!! أنتم... يا من تنفخون في الابواق ومكبرات الصوت. ينبغي ان تخجلوا من أنفسكم ومن الاكاذيب... التي تنسجون بها الخوف والظلام في المدينة... لتصنعوا بطولة جوفاء تضفونها على جنرالكم، هاكم... هاكم الوحش الذي ترغبون به الناس. انظروا اليه. تاملوه جيداً... انه أكثر ألفة ووداعة... حتى من كهنتكم... ودهاقنتكم الذين يؤدلجون لكم اعمالكم المشينة... انظروا انظروا... ان كان بوسع عيونكم ان ترى...

وتفتح الستائر والنوافذ وتطل رؤوس، بيد أني أرى العدد هذه المرة. في تناقص واضح... إذن فقد أتقن الموت عمله جيداً فحصد بمنجل الخوف الكثير والكثير من الرؤوس.

وما أكاد ارفع الكلب عالياً فوق رأسي... دليل إدانة لصانعي الاكاذيب... حتى يطبق على المدينة ظلام ثقيل... يشرع الكلب يختض... ويحاول التملص والإفلات من حضني... ولكني اربت على ظهره مطمئناً... بأن الظلام مهما

(١) ظلت البيانات والبلاغات والنداءات تكرر وتجترّ نفسها بشكل فجّ كما ظلت لغتها... في تقريريتها... وعقمها... وجدبها... لذا... فقد... قررت إهمالها.

م. زنگنه

اشتد وتكثف... فإنه لايخيف، أو على الاقل يتوجب عليه ان يخاف منه... إذ لايعدو حالة وقتية... تزول... وتعقبها حالة أو حالات اخرى... قبلما انهى حواري الصامت الذي اجريته من جانب واحد... يتحقق حدسي... فيمزق الظلام الجاثم ويلاشيه تماماً، ضوء وهاج. شديد التوهج، يوشك ان يعمي عيني... فأدفع عماي المتوقع... بعمى اختياري موقت فأغمضهما لفترة، لاادري مداهما حتى انتبه الى ان الكلب يلمس عيني... فأفتحهما... وأراه يتطلع نحوى كأنه يقول لي... قد زال الخطر عنك... فأبتسم في وجهه معبراً لة عن عميق شكري وتقديري.

ويعلو من مكان ما... صراخ... زاعق:

- هلموا... ياناس... هلموا... اخرجوا من بيوتكم... اخرجوا من مخائبكم... فقد اجهز الجنرال بنفسه على الوحش، صرع الليل الذي خيم على المدينة. وعلّق في سمائها شمساً ساطعة. انظروا... انظروا... لتروه بأم اعينكم... الوحش... الذي...

ولا أسمع بقية الخطاب... إذ يستبد بي فضول شديد... فأتلفت ذات اليمين واليسار... باحثاً بـ"أمِّ عيني" عن الوحش فلا أرى شيئاً... وانظر حيث ينظر الناس... فأشاهد هيكلاً عظيماً لكائن غريب، خرافي... هائل الضخامة. فوق عربة مصفحة... ثم أرى الجنرال نفسه ينزل من العربة صغيراً قميئاً... مثقلاً بالأوسمة والنياشين... يسيل من بين شفتيه الإبستام... بكرم وسخاء... وبلا حساب... ولا مسوولية...

يخرج الناس من بيوتهم... يغادرون مخاوفهم ويقبلون على الجنرال... يتهالكون لتقبيل يديه اللتين يمدهما لهم بلا حرج... واذ تنتهي مراسيم التقبيل واللثم. يستخدمها للتلويح للرؤوس المطلة من النوافذ... وللاجساد المرتمية على اسوار الشرفات... مرحاً... سعيداً... بما حققه لهم... أو حققوه له...

إحتجاجاً على الإستغلال البشع الذي لحق بوجوده، يتنحنح الكلب فيخرجني من ذهولي ويذكّرني بواجبي... لعمل شيء ما إزاء مايجري ويحدث امام "أمِّ عيني" من نزيف للحقيقة... وإنتصار للكذّاب... فألوّح به عالياً... وأصرخ بوجوههم صرخات هستيرية... ولكن لاأحد... يلتفت نحوي... عدا طفلة صغيرة

دون الرابعة... تبتسم في وجهي. فاشجعها وادعوها إلى أن تحرر كفها... المسجونة في قبضة المرأة التي تمسك بها... وتهرع اليّ... ولكن المرأة تلحق بها بسرعة وتجرها من شعرها بقسوة... وهي تزعق:

- لاتشذّي عن الجمع... كم مرة حذرتك...

واجدني أصرخ بها:

- ولكن الجمع حمار... دعيها.

غير أنها تهملني تماماً... وتخفق كل الرفسات التي تسدد من الطفلة الى بطنها... ويطويهما الزحام معاً. واندب متوجعاً... آه لايزال الكذب اقوى من الحقيقة وأشد تاثيراً في الناس... وانصاره ومروجوه... أضعاف انصار الحقيقة وعشاقها... ولكن اين الوحش؟

من أي متحف للحيوانات المنقرضة جلبوا... ذاك الهيكل العظمي؟ أملاً أن اعرف السر... أتقدم بإتجاه العربة... ماهذا؟ ماذا حل به... العربة المصفحة نفسها... ولكن الوحش اين الوحش؟

لعل أحدهم... اخذه بعد تمثيل المهزلة البائسة نفسها في مكان آخر... أو... أو... آه... ماهذا؟ ان المنظر يصدمني تماماً... ليس فوق العربة... غير تل صغير من شمع مصهور... قابع مكان الوحش المزعوم تماماً... انه كل ماتبقي... من الوحش... المرعب... المفترس الضاري... الذي أحال نهار المدينة... ليلاً... لا أوحش... ولا أظلم منه... أهمّ ان أصرخ... عودوا... فقد إنجلت الحقيقة. لقد كشفت الحقيقة عن نفسها بكل جلاء... ولكن الصوت يختنق في صدري أو بالأحرى... أخنقه في صدري... إذ أراني وحدي والكلب بين ذراعي، فأشدّه الى صدري... فوق قطعة الطين المشدودة الى قلبي... كأعزّ واثمن صديق... فيتلاشى شعوري بالوحدة... يمد الكلب لسانه المبلل الرطب... مخترقاً فتحة قميصي... ويلحس كرة الطين... وأتحسسها أنا الآخر... بلهفة وشوق... فأجدها... طرية لينة... مشبعة بالحياة... فأصيح بفرحٍ غامر:

- سلاف... قد عادت الحياة... عادت إلينا الحياة...

وأرنو الى الشرق... فأرى القمة السوداء التي كانت تحجب الشمس تتمزق... والأفق يتشرب حمرة خفيفة... أشبه بحمرة الفجر الوليد. أخطوا نحو الأفق

الأحمر... خطوات واسعة... أشعر... كأني اطير في الفضاء... وانا أسير فوق الأرض... أضغطُ على البرتقالة فأجدها ريانة... تفيض بالحياة... أشدّ صديقي الى ضلوعي... وأسرع في خطوي ماأستطيع.

١٩٧٠-١-٢٥

القوقعة

- الغريبُ... أني لم أعد أشعر بالجوع.

قالها حسن، نافخاً نبرات صوته ببهجة خاصة.

لم يكن صادقاً. فقد كان الجوع مايزال ينهشه من الداخل، دون أن يخفف من وطأة آلامه، سحق سويقات القمح المتيبسة بين أسنانه... وإمتص البقية الباقية فيها من الرطوبة، ولم يكن يهمه ان يكون صادقاً أو خلافه، فقد كان يبغي تمزيق أو حتى تخديش شرنقة الصمت الخانقة التي لفتهما، منذ ساعات طويلة.

كان في حوالي الخامسة والعشرين. بديناً صبغت وجهه حمرة فاقعة. لم تستطع شعرات لحيته الصفراء الثابتة إخفاءها. منتفخ الأوداج... يتوسط وجهه المدور شارب أصفر دقيق، يعلوه جبين ضيق متغضن عيناه تبدوان كثقبين غائرين. يخفيهما حاجبان كثان أصفران توزعت شعراتهما، بلا انتظام في مساحة غير صغيرة.

ظل الصمت الثقيل مهيمناً. بعدما عاد الى الإلتئام بسرعة وبكل ثقله مما تطلب أن يبذل محاولة أخرى لكسر هيمنته التي شرعت تقلقه.

-أ... أ... أ... أشعر... كأني... نسيته... تماماً... عـ... عـ... عمي إبراهيم.

- لعل طول معاناة المرء تنسيه أشياء كثيرة.

أجابه صاحبه.

كان واضحاً من نبرات صوته الباردة اللامبالية، أنّه، هو الآخر، لايهمه مبلغ ما يحمله كلامه من صدق، ولا مقدار مايمكن ان يوقعه في نفس صاحبه من أثر.

وقد قال ماقال لأنه يتحتم عليه أن يقول شيئاً. أي شيء بوسعه أن يلهيه

عن حقيقة الحوار الداخلي الذي كان يجريه مع نفسه ومع أفكاره الصاخبة الخرساء التي لاتتوقف عن التوالد... ويسوط به روحه... منذ زمن غير قصير.

رمى اليه العم إبراهيم كيس التبغ. بعدما أنهى لف سيجارته، بلا إهتمام. تلقاه حسن بدهشه بالغة، إذ كان يتوقع... بل وينتظر، كأمر مؤكد، أن يقدم له السجارة التي لفها لتوه. كما إعتاد أنْ يفعل دائماً. وَأَدَ دهشته. وقال بسرعة، بعدما تفل القشة التي كان يسحقها تحت أسنانه:

– المهم... بوسعي مواصلة السير... إذا شئت.

– لُفَّ لك سيجارة.

قالها آمراً... ثم أضاف إذ لاحظ إرتباكه:

– هل تستطيع... أم مازالت عاجزاً عن لفِّ سيجارتك.

– أستطيع... عمي إبراهيم. أستطيع... لقد... لقد... تعلمت.

وأدخل كفه المدوّرة في كيس التبغ وإنهمك في لف سيجارته بينما راح الآخر يمتص أنفاساً عميقة من سيجارته، وينفثها حلقات متداخلة صغيرة أول الأمر، لاتلبث ان تتسع وتبدو خطوطاً صليبية ملتوية متحركة يحملها النسيم المسائي الهادىء الرقيق الهابّ من الشمال، بعيداً... بعيداً حتى تتلاشى فيرسل أثرها حلقات أخرى وأخرى... بعدما يحبسها في جوف حلقه هنيهة، متلذذاً بقرصات الدخان جدار فمه من الداخل... ويتبعها بنظرات شاردة لاتبحث عن شيء. أو تبحث عن شيء لايدري حتى صاحبها ماهو... بيد أنه يعرف يقيناً. أنه ليس الدخان ولا حلقاته. التي يطلقها بين آونة وأخرى... متشابكة حيناً... ومنفرجة حيناً آخر...

كان النهار يتجشأ أضواءه، وهو يوشك ان يلفظ أنفاسه الأخيرة. وقد أخذ الأفق يصطبغ بحمرة خفيفة، بينما بدت السماء صافية لاتشوبها سوى جمرات متوقدة تحيط بقرص الشمس المتوهج، الذي شرع ينحدر بصمت ووقار خلف مجموعة تلال صغيرة تفرش أمامها ظلالاً سوداً... تظهر الاكواخ والبيوت الطينية القميئة ظلاً أسود طويلاً متوحداً... منبسطاً فوق الارض المخضرة... يزحف ببطء وتؤدة مع مساء آخر زاحف نحوهما، مشبعاً بالقلق والوحدة والخوف و... المجهول.

بين الفينة والفينة... يقطع الصمت الذي عاد يجلبب كل شيء. نباح كلبٍ تعبان من بعيد... أو خوار ثور جوعان عائد من الحقل بعد نهار طويل من التعب والعرق.

كان بوسعهما أن يبصرا من موقعهما إذ يرفعان عينيهما الى الأعلى بعض الفلاحين راجعين الى بيوتهم بعد غياب نهار شاق، تتبعهم ظلالهم أو تقودهم... طويلة بالغة الطول... دائمة الإهتزاز واللاثبات.

– لو... لو... تمكنّا من الوصول الى قرية (كاريّزه)... سننجو.

قال حسن... يشحن وجهه بقناعة باتت تهرب منه... تتسرب من مسامات جلده... وهو يضع كيس التبغ الى جانب العم إبراهيم.

أشعل سيجارته البدينة... التي كانت تتفتق من كثرة ماحشاها بالتبغ... فيلحسها بلسانه... ثم يبصق نتف التبغ المرّ، التي تلتصق به.

إتّكأ على يمناه وراح يتطلع الى حيث يرنو صاحبه الصامت الذي لاينطق. كانا بين صخور تل صغير. تخفيهما عن الأنظار صخور أخرى متفاوته في أحجامها... إنحدرت من قمة الجبل... وظلت ساكنة في متدرجاته.

كان العم إبراهيم مرتفقاً يده اليسرى، مديراً ظهره لصاحبه. يقضم شعرات شاربه المتهدلة وينصت الى صوت تقطعها تحت ضغط أسنانه الحادة بمزيج من الانتباه والشرود معاً. شعرات الخمسين البيض متناثرة فوق رأسه... وفي ثنايا شاربيه ولحيته التي لم يحلقها منذ يومين.

– هـ... هـ... هل... تسمعنى... عمي إبراهيم.

قال ذلك وهو يهزه بلاعنف، محاولاً لفت إنتباهه اليه.

– ها... ماذا ؟... ماذا تقول...

تساءل العم إبراهيم... وكأنه إذذاك... وإذذاك فقط إنتبه الى وجود أحد معه، وعرف أنه يخاطبه. كرر... سؤاله:

– هل تقول شيئاً.

– أقول... إذ نصل قرية (كاريّزه) بعون الله... نصبح في أمان وننجو... من...

– ننجو؟

تساءل العم إبراهيم بنبرة غريبة. أوقعت حسن في دهشة وإستغراب. فقال في إضطراب:

– أأ... أجل. لم لا... فهي قريتنا... أأ... أقصد قرية خالي... وأولاد خالي هناك و... و...

– وماذا أيضاً...؟

تساءل ثانية من غير أن يكون معنياً بالجواب الذي يسمعهُ:

–إ... إ... إنهم يوفرون لنا الأمان... و... و... وننجو... ننجو بكل تأكيد...

– أتحلم... بالنجاة...

– ط... ط... طبعاً... طبعاً عمي إبراهيم.

– لا... تسرف كثيراً.

أجابه. سريعاً. بارداً جداً. وباقتضاب شديدٍ أثار في نفسه قلقاً وإضطراباً شديدين. فوق مافيها من قلق وإضطراب وخوف. نمت عنهما حركة شفتيه ورجفتهما. وفضحته خضّة السيجارة بين شفتيه. فاسرع وإنتزعها من بينهما قبلما تسقط. ثم إرتد جالساً مائلاً نحوه بكلمه:

– ها..؟ كيف؟ ع. ع. عمي إبراهيم. كيف... هل... تعنى أننا... هـ... هـ... هلكنا.

– خائف؟

سأله بدلاً من أن يجيب على سؤاله. بنبرة يابسة جافة.

أجاب حسن بسرعة... وبلا تروّ:

– أ... أجل.

وندم كثيراً.

كان ينبغي أن يقول لا... ولكنه فوجيء بالسؤال وصُعق ولم يجد الوقت الكافي ليكذب على نفسه ولا على صاحبه.

تعلقت به عيناه وإستحال وجهه البدين المترهل الى علامة إستفهامٍ بليدة مرتعدة... متموجة بألوان طاغية و... شاحبة.

لم يتفوه العم إبراهيم بشيء. إنتصب واقفاً متناولاً بندقيته. علّقها على

كتفه. سحق بقايا سيجارته. وقال آمراً:

– هيا... تحرك.

وسار نحو الأمام... دون أنْ ينتظر صاحبه. وهو يضيف:

– مادمت حريصاً على نجاتك.

حمرة الغسق قد إختفت من الأفق. زحف عليها سواد باهت ثم غطاها... إذ أخذ يتكثف. وقرص الشمس قد غاب هو الآخر ساحباً معه آخر خيط من خيوط النور.

كان العم إبراهيم. أقصر منه وأصغر حجماً. ويبدو ضئيلاً وهو يسير أمام مرافقه البدين ولكنه سريع الخطو مما جعل حسن يهرول بغية اللحاق به.

بدت البيادر خلال الظلمة التي راحت تنتشر كتلاً سوداء قاتمة ضخمة أكثر سواداً وضخامة من كل ما يحيط بها...

تعثرت قدمه بصخرة صغيرة لم يرها في الظلام. كاد يسقط على وجهه وهو يركض خلف صاحبه. ولكنه تغلب على عثرته... وإستعاد توازنه وأسرع في خطواته أكثر حتى صار الى جانبه. قال لاهثاً:

– وأنت عمي إبراهيم؟ ألست خائفاً؟ ألا تشعر بالخوف أبداً؟ هـ... هل... أ. أ... ألا تحفل بالموت... ألا تفكر بالنجاة...

كانت كلماته... وعباراته المتقطعة، هي الأخرى، تلهث. متدفقه من بين شفتيه على نحو غريب لايعرف التوقف إلاّ ليلتقط أنفاسه المتلاحقة... وتقذف بسيل جديد من أسئلته المرتبكة المبتورة.

– سيّان!

آخ... أجوبته القصيرة الحادة كالسكين. تقطع نياط قلبه، تغرقه في ليلٍ قاس من الوحدة والخوف.

حاول جهده أن يقنع نفسه بأنّ الأمر كله لايعدو نوعاً من مزاح ثقيل لايستطيع إستساغته، إلاّ أنّ نبرات الجد الواضحة في كلام صاحبه ومعرفته الأكيدة به وببعده عن المزاح والهزل لاتدعان له فرصة للتمتع بهذا الوهم.

إنحدرا الى وادي "گليله مردۆ" العم إبراهيم أولاً. ثم هو يتبعه. أحسّ

بالرغم من ثقله. وربما بسبب ثقله. أنه يتدحرج. يندفع الى الأمام بقوة وبصورة لاإرادية. كأنّ أحداً يدفعه دفعاً.

كان صفاء السماء ونجومها التي أطلت بوجوهها المتلألئة تنعكس بهدوء واشراق على صفحة ينبوع صغير داخل الوادي يسيل الماء على أطرافه رقراقاً عذباً وينساب بين أعشاب طرية ناعمة ماتزال خضراء بالرغم من جفاف الصيف الزاحف وحرّه.

شعر حسن بجفافٍ في حلقه يكاد يخنقه. ربما بسبب التبغ المرّ الذي أمتص لعابه أو بسبب القيض الذي بات يسربله بالعرق المتدفق من سائر أنحاء جسمه. أو بسبب ركضه الدائم ولهاثه المستمر في جريه وجره جسمه الثقيل وراء صاحبه... أو لكل تلك الاسباب وغيرها لايعرفها، مجتمعة.

قفزت ثلاث أو أربع ضفادع منزعجات من حول ينبوع الماء حين إندفع نحوه وراح يشرب الماء بكفيه الصغيرتين المتورّمتين اللتين لاتحملان إلاّ قدراً ضئيلاً من الماء لايرويه. تمدد على بطنه وغمر نصف وجهه في ماء النبع... وراح يشهق وهو يعب الماء عباً.

صاح به العم إبراهيم إذ رآه يختض ويصدر أصواتاً غريبة.

– حسن... على مهلك... أنت تقتل نفسك.

ودّ ان يقول "سيان" مثلما قال هو. وأن يضيف أيضاً سيّان أن أموت أو أحيا. ولكنه لم يجرؤ، فلاذ بالصمت ولم يجب. لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه من التفكير بأنه معرض للموت في أية لحظة.

قد يقتفون "أثرهما" الآن. وبحركة عفويّة وإستجابة تلقائية لأفكاره... إلتفت. لم يكن ثمة غير الظلام الذي عجزت أشعة القمر الباهتة أن تبدده، أو حتى تخفف من تكدسه وثقله داخل الوادي الطويل الذي بدا أشبه بأعماق قبر خرافي كبير، يحيط به من كل جانب ولا سبيل الى الخلاص منه... واذا كان ثمة من يقتفي أثرهما. فلايمكن أن يراه ولا حتى يشعر به إلاّ حين تستقر الطلقة في ظهره. وقبلما يتمكن من مدّ يده الى مسدسه المخفي في طيات حزامه الملفوف على بطنه عدة لفات. صرخ فجأة مثل طفل صغير هاجمه حيوان مفترس:

– عمي إبراهيم... عمي إبراهيم... أرجوك... أرجوك.

– ماذا؟ ماذا هناك يا حسن؟

تساءل الآخر، مصعوقاً من صرخته:

– لا أريد أن أموت... أرجوك. أتوسل اليك... لا أريد أن أموت.

قالها وقد طغى عليه رعب شديد، إمتصّ كل صبره... وقدرته على التحمل جاهداً أنْ يحمّل نبرات صوته كل ما في وسعه أن يحمّلها من آيات الضعف والتوسل والرجاء... المثير للشفقة. ولكن الجواب جاءه ناضحاً بدفقة جديدة من العذاب والقسوة واللامبالاة.

– لا أحد يريد أن يموت... ومع هذا فالكل يموت لامحالة...

ربما يلذ له تعذيبه. هكذا فكّر حسن، ولكن لماذا؟ لماذا؟ ذلك ما لايعرفه ولا يجد له أيّ سبب معقول أو غير معقول.

– و... و... ولكن لاتدعهم يقتلوني... أرجوك... لاتدعهم...

لم يجب الآخر... كأن لم يسمعه... كان قد إبتعد عنه بضع خطوات.

لأول مرة شرع حسن يشعر نحوه بكراهيةٍ لاحدّ لها... إندلقت فجأة بصورة متدفقة لايستطيع كبح جماحها. وهو الذي لم يفتح عينيه على الدنيا إلاّ ليجد نفسه في أحضان العم إبراهيم الزاخرة بالحب والحنان مُربّياً له... وحامياً إيّاه... وتابعاً له كظله... لا يفارقه أبداً....

لم يكن حسن قد تجاوز الثامنة، حين دخل العم إبراهيم قريتهم. هارباً من ملابسات جريمة قتل حدثت في قريته الواقعة على مقربة من الحدود التركية، لائذاً بوالده "الأغا" ذي السطوة والنفوذ، فبسط عليه حمايته وأنزله في نفسه منزلة الأخ الأقرب والساعد الأيمن، وحسن نفسه قد تعلق به منذ ذلك الوقت وأحبه من أعماقه، فقد ملأ ذهنه الصغير بأخبار بطولاته التي كان يسردها في مجالس والده. ويردّدها جميع أهل القرية والقرى المجاورة. يكفي أن يغضب الأغا على أحد. كائناً من كان حتى يكون في اليوم التالي، مباشرة قد مزقت طلقة العم إبراهيم التي لاتخطيء، أحشاءه، وألقته طعاماً للذئاب الجائعة والكلاب السائبة، أو إلتهمت نيران العم إبراهيم بيدره. أو حقله... أو بيته. في غفلة من الزمن والناس والأعين. وغدا العم إبراهيم أسطورة مرعبة

محاطة بهالة ظاهرها الإحترام والإجلال والمهابة... وجوهرها الخوف من بطشه وغدره... ومن خلاله وبواسطته إمتد نفوذ الأغا في المنطقة وإتسع شاسعاً بعيداً لايجرؤ أحد على الوقوف بوجهه ناهيك عن تحدّيه أو عصيان أمره.

– وفرهاد ؟

تساءل العم إبراهيم، كالغائب عن الوعي... وأضاف بالحال نفسها:

– فرهاد الذي قَتلتُهُ مع إشراقة الفجر... هل كان يريد أنْ يموت...؟

وإنطلقت جرأة مفاجئة من حسن... فأجاب بسرعة وتهوّر:

– فرهاد يستحق الموت وكان يجب أن يموت....

– بل نحن من يستحق... ويجب أن نموت... بيد أننا لانريد.

– فرهاد... دَنّسَ شرف القرية يا...

قاطعة بحدّته:

– شرف القرية؟... هه... شرف القرية...!!

وظل يردد بسخرية... شرف القرية... هه... شرف القرية وكل مرة يشحن نبراته قدراً أكبر من الإستهزاء. ويعقبها بضحكة ساخرة مرّة. تضاعف حقد حسن عليه. وزادت كراهيته له. ولكنه حقد العاجز... وكراهية الضعيف... فأصر على أسنانه كاتماً غيضه ولم ينطق... إلا أنّ العم إبراهيم لم يسكت... ولم يتوقف... وراح يهدر:

– ماذا فعل حتى يدنّس شرف القرية؟

لم يجرؤ حسن على الإجابة، فكرر الآخر سؤاله:

– ها... ماذا فعل؟... قل... ماذا فعل؟

إجتازا الوادي وشرعا يصعدان تلاً واطئاً إعترضهما. كانت الظلمة قد اشتدت. ونور الفجر الذي لاح لهما من بعيد يكاد يختنق في أحشائها.

– لقد أحب سفين وأحبّته. (واصل العم إبراهيم) وأراد أن يتزوجها على سنّة الله ورسوله. ولكن أباك رفض. فإتفقا على الهرب والزواج والعيش بعيداً عن شرورنا.

وأضاف بألم وندم شديدين بعد هُنيهة صمت:

– ولكن شرورنا لم تبتعد عنهما... لحقتهما... حتى... حتى... آه...

لم يصدق حسن أنه هو نفسه العم إبراهيم الذي يتحدث عن أخته بهذا القدر من الإستهانة... غمره خجل شديد... إبتلعت الظلمة حمرة وجنتيه... أحسّ بنفسه تحت وطأته ضئيلاً تافهاً... الى حد بعيد.

– لو وافق أبوك على زواجهما... لما إضطُرا الى الهرب. ولما إضطررت أنا... الى... الى... ولكن آخ... ما الجدوى؟

وأدّى بيده إشارة خرساء.

وباليأس الذي يجوّف من يعلم مسبقاً أنه يخوض معركة خاسرة. قال حسن:

– كيف؟ عمي إبراهيم. كيف؟ يزوّج أختي... لـ... لـ... لفلاح؟

وخرجت كلمة فلاح من بين شفتيه... ناطقة بكل ما تأصل في نفسه وتجذّر من إستخفاف وتحقير.

وفجأة علا نباح كلب. سرعان ما إستحال الى نباح جماعي، إنتبه العم إبراهيم وتطلع الى مصدر الأصوات... كانت ثمة أضوية خافتة منتشرة خلال الظلمة على مسافة ليست بعيدة، منبعثة من الفوانيس الزيتية ذات الذبالات المتحركة التي تتلاعب بها الرياح... يحملها الفلاحون معهم عادة، خلال عملهم الليلي في البيادر... والحقول.

جرّ العم إبراهيم "حسن" الى الجهة الأخرى...

– لنسلك طريق "شيوه سوّر" إنها أسلم... رغم أنها أطول....

تبعه حسن صاغراً، صامتاً. إنحدرا الى الوادي. كان الإنحدار شديداً كلّف حسن جهداً كبيراً، ليظل محتفظاً بتوازنه ولا يتدحرج، أو يسقط على وجهه، أحسّ به العم إبراهيم خلفه يلهث ويتنفس بصعوبة بالغة. إلتفت نحوه سأله بلامبالاته المعهودة...

– تعبت؟

حسن لم يجب. أو أجاب. ولكنه لم يسمعه. أو لم ينتظر جوابه، إذ لم يكن حافلاً به... كعادته حين يقرر أمراً. قال:

– لنجلس . ونلفّ سيجارة.

وقبلما يسمع جوابه، أو ينتظر رأيه. أنزل بندقيته. أخرج من منتصفه كيس التبغ وتقرفص. بينما ظل حسن واقفاً... يلتقط أنفاسه بصعوبة، وهو يمعن النظر فيه بدهشة. كأنه يراه للمرة الأولى. بدا له قميئاً جداً. ضئيلاً جداً... صغير الحجم الى حد غير معقول. وهو مكوّر على بعضه، منهمك في لفّ السيجارة، لم يره قط بهذه الضآلة... أهذا هو العم إبراهيم الذي يخشاه الجميع؟ أليس بإمكانه أن يخنقه بيديه؟ أن يهشم عظامه البارزة بمجرد أن يتمدد فوقه بجسمه الثقيل الضخم؟ أو... أو... وتحسس مسدسه من بين لفات حزامه. أو... أو... طلقة... طلقة واحدة... وتنهيه الى الأبد.

– خذ.

ألقى إليه بكيس التبغ. جفل حسن وإرتعد.

– ماذا بك؟ مريض؟

نفى حسن ذلك بإشارة خرساء من رأسه. أمره العم إبراهيم:

– إجلسْ. لفّ سيجارة. لن نمكث طويلاً.

كان صوته ينبض بقوة غريبة، تشربها حسن بسرعة أربكته وأحسّ بنفسه... يطيعه ذليلاً... ويجلس بصمت. دون أن ينبس ببنت شفة.

بأنامل مرتجفة راح يلف سيجارته. وبلا أدنى رغبة في التدخين. وهو يتساءل بينه وبين نفسه. لماذا تغير على هذا النحو فجأة، ما الذي غيّره؟ ماذا جرى له؟ لقد كان يحبه على الدوام حباً، يفوق حب أبيه، ويمنحه مطلق الثقة. وما أكثر مادعاه الى مصاحبته وهو يربت على خده ويقول له بأيمان "لقد كبرت ياحسن... وآن لك أن تحل محلي... تحمي أباك من أعدائه الأوغاد...". ما الذي غيّره الآن؟ تساءل ثانية... متحسراً... آه... ياربي لو أدري... لو أدري حسب.

إختلس إليه نظرة مترددة. رآه يرفع سيجارته الى فمه. وكعادته يرتفق يده اليسرى وقد مدّ ساقيه. ينفث دخاناً كثيفاً... يتطلع نحو البعيد في شرود ظاهر... ولكنه شرود يخفي تحته يقظة وحذراً دائمين. إنه يعرفه جيداً. يعرفه كما لايعرفه أحد.

هذه المرة لم يجرؤ على التفكير، حتى مجرد التفكير، في الإسترسال فيما كان يمنيّ نفسه به. وكجواب على مايعتمل في داخله ولا يجرؤ لسانه على

النطق به... قال في نفسه "سينقضّ عليّ كالذئب". تلاشت كل أفكاره السابقة. ماتت. قتلها الخوف المدمر الذي يرى في كل كيان. وحلّ محلها أحساس عميق بالحزن والألم. أثاره فيه عجزه التام عن القيام بأيّ شيء تجاه هذا الرجل الصغير... المخيف، الممدود أمامه على الأرض... بلاخوف... من أيّ شيء.

– أ... أ... ألا تقول شيئاً عمي إبراهيم...؟

كان يريده ان يقول شيئاً، أيّ شيء، أن يتكلم. أن يكلمه. لعله ينجو من شبكة أفكاره الأخطبوطية التي ماينى الخوف بنسجها في داخله ويوسعها حتى لتكاد تخنقه. ولكن العم إبراهيم لم يفتح فاه. ولم يبدُ عليه أنه قد سمع شيئاً. فشهق حسن "آه... لو يتكلم... يتكلم حسب".

هبت نسمة رقيقة، منعشة، لامست وجهه المبلول بالعرق. داعبت خصلات شعره برفق. شعر برغبة عميقة في النوم... "ليلتان لم أذق طعم النوم".

مساء أمس الأول خرجا. قطعا الليلة الأولى كلها سيراً على الأقدام متلفعين بظلام الليل... مختفيين عن الأنظار. حتى بلغا قرية "كلاوقوت" التي هرب إليها فرهاد وزوجته... ولكنهما كانا قد تركاها... الى قرية "طوبزاوه" التي تبعد أكثر من عشرين كيلومتراً عن الأولى. فقضيا النهار كلّه بين الأحراش والأدغال بعيدين عن أعين الناس والطير والحيوان. ومع هبوط الليلة الثانية حثّا السير. متسترين برداء الليل... نحو هدفهما.

– حسن... حسن

كررها... بصوت أعلى. بهُتَ حسن وإعتدل في جلسته. منطلقاً نحوه بإنتباه:

– نعم... نعم عمي إبراهيم.

لم يلتفت نحوه العم إبراهيم... كان... يرنو بعيداً... و... يتكلم.

– هل تتذكر... خورشيد أفندي.

– خورشيد أفندي؟

– معلم مدرسة "تومار".

– أ... أ... أجل... مابه؟

– لاأدري لماذا تذكرته الآن. المهم... لقد قال لي ذات مرة... ستموت أنت الآخر يوماً ما... يابله گچكول*. والأرجح سوف يقتلك أحدهم فالدماء التي نسفكها... والأرواح التي نغدر بها... لن تذهب هدراً وإذ ذاك لن يجديك الأغا ولا نفوذه ولا أمواله... فتيلاً.

خورشيد مشاغب. أكبر مشاغب. الكل يعرفه... وقد...

– حينها كدت أقتله... ولكني الآن... الآن فقط أتبين مبلغ الصدق والحق في كلامه...

تساءل حسن بإستنكار متردد:

– و... و... ماذا تعني؟ و... ماذا تقصد؟

نهره: أسكت... أسكت.

وسكت هو أيضاً. إستلقى على ظهره. واضعاً كفيه تحت رأسه. وراح يتطلع الى السماء المزدانة... بما لايحصى ولا يعد من النجوم المتلألئة... وقال محدثاً نفسه. بصوت مسموع:

– للمرة الأولى... أرى في السماء هذا العدد الهائل من النجوم.

لم يعرف حسن ماذا يقول... بينما "إسترسل الآخر":

– لقد صدق خورشيد. سوف يقتلني أحدهم ذات يوم. وانى لأستحق ذلك. فقد قتلت ونهبت وغدرت وأحرقت وظلمت... كثيراً... كثيراً... جداً... جداً.

وإستوى جالساً. قذف بحجر إلتقطه بعيداً... كأنّه يرمي أحداً تراءى له.

– بدأت أدرك بشاعة الحياة التي أعشيها...الحياة التي توقعني فيها...الخوف و...

– الخوف؟ أنت؟

قاطعه حسن مصعوقاً بدهشة شديدة... بينما أجاب الآخر بهدوء. وبلا إِنفعال:

– أجل... الخوف... وأنا. أم تحسبني وحشاً بلا قلب ولا عقل؟

لم ينطق حسن... كان يحدق عبر مشاعر متناقضة الى مثاله الأكمل في الشجاعة والبطش والإقدام... يهتز أمامه... يتهرّأ... ينهار... فودَّ من أعماقه لو

* يعني ياإبراهيم الصغير.

يبكي. لو...

– أتدري كيف قتلتُ فرهاد؟

سأله العم إبراهيم وهو يحدّق في المجهول. لم يحر حسن جواباً... أية كلمة تخرج من بين شفتيه... تخنقها الدموع.

في كل مرة إذ كان يعود من مهمته، وهي مهمة شبيهة بالتي أنجزها فجر اليوم... كان يرد عليه بالتفصيل وبهالات من البطولة... التي تقرب من الإعجاز؛ كيف نفذ الأمر، كيف واجه المغضوب عليه وسط الناس. أو إقتحم عليه داره وهو بين أهله، أولا ده وبناته وزوجته... أما هذه المرة، فقد لزم الصمت ولم يفه بحرف واحد... وهو... لم يجرؤ على سؤاله. كانت تقطيبة وجهه وشروده وإنصرافه عنه... يحبط عنده كل محاولة... فيكبت نبر ان فضوله وتشوقه المتأججة في داخله، أملاً أن يبادر هو الى إطفائها...

– لقد... كان... يصلّي الفجر...

بدأ صوته غريباً على مسمعه، متحشرجاً على نحو غير مألوف... ودّ لو يصرخ به أسكت... أسكت... لاتتماد في تشويه صورتك وتمريغها بالوحل أمامي. ولكن... إنيّ له ذلك... وهو... هو... مايزال سادراً في حلج روحه.

– لمحت زوجته، أختك سفين. مقبلة نحوه من القرية. بإحدى يديها تلصق وليدهما البكر على صدرها. ربما كانت ترضعه. وبالأخرى تحمل خُرجاً. من الظاهر أنه كان يحوي إفطارهما. ليتناولا ه معاً. في فترة راحته من العمل. وأنا كأيّ هرّ عجوز خبيث، خائر القوى، يقتنص الفرصة. في غياب العيون للإنقضاض على عصفور مكسور الجناح... قبعت خلف صخرتين كبيرتين. حابساً أنفاسي. حيث أراهما ولا يريانني. لم أنتظر ريثما ينهي صلاته. أطلقت عليه من الخلف. أصبته. إرتمى على وجهه. متخبطاً في دمه. آه. لم أر... قط دماً بذلك التدفق... وتلك الغزارة. زحف رغم صنبور الدم المفتوح في ظهره نحو بندقيته. عرفت أني لم أصب منه مقتلاً. فعاجلته بطلقة أخرى ثم بأخرى... وأخرى... كان الخوف هو الذي يطلق... هو الذي يضغط على الزناد. أطلقت سفين صرخة مرعبة. حسبت الكون كله قد إهتز وزُلزل. قفزت الى الخلف. تدحرجت. ولم أستقر إلا في قعر الوادي. وصدى صرخة سفين... تزلزل

كياني... وتملأني رعباً... أن تعثر عليّ وتمزقني بأسنانها. أغمض عينيه وإستلقى ثانية على ظهره... غارقاً في صمت متوتر.

كان حسن يتابعه مبهوراً... مبهوتاً... ممتلئاً بإحساس مبهم لايعرف حقيقته. منخوراً بالحيرة، لايدري ماذا يقول - ولا ماذا يفعل. وإذ همّ، بعد صراع مرير قاس... مع نفسه، أن يتكلم شعر بآلاف الأصابع الوهمية تسدّ فاه... تطبق على خناقه. وحين طال الصمت، غير المعروفة عواقبه، وشرعت الوساوس والتوقعات تحاصره، إستجمع قواه... وسأله بصوت خافت... مخنوق... لايكاد يُسمع:

- و... و... بعد؟

- وبعد؟ ماذا بعد؟

أجاب الآخر متسائلاً بحرج، أوقعته في حيرة وإضطراب جديدين:

- أ... أ... أقصد... أقصد... ماذا ستفعل... ماذا....

قاطعه:

- لا أدري. لا أدري أيّ شيء...

وأضاف بعد صمت قصير:

- كل الذي أدريه... أو صرت أدريه... أنه قد بات مستحيلاً أن أواصل حياتي على النمط الذي إعتدت... لا... لا... أظنني قادراً على الإستمرار.

- يعني... يعني... هـ... هـ... تعني إ... إنك...

- لا أعني أي شيء... قلت لاأدري... حتى الآن لاأدري... لم أقرر... لا أستطيع أن أقرر...

وسكت ثانية... ثم سرعان ما عاد يحاور نفسه. بصوت عالٍ:

- ماذا سأفعل؟ أين أذهب؟ آه... ليتني أدري... ليتني أعلم...! يخيّل اليّ... أنه ليس ثمه بقعة من الأرض... إلاّ وبين طياتها ضحية من ضحاياي... آه... لقد أسرفت... أسرفت وتماديت... كثيراً... كثيراً جداً... و... ولماذا؟ من أجل من؟ من أجل من... يا... يا...

ونهض فجأة منتصباً على قدميه. ركل حجراً على مقربة منه بقوة. أمر تابعه:

- قم.

إنصاع حسن بسرعة ونهض وأخذ يسير خلفه، بصمت بينما كان هو يمزق

نفسه:

- ربما أظل هائماً على وجهي. بقية حياتي. حتى تضع لها حداً، ذات يوم قريب - طلقة في ظهري... أو... أو... في صدري ولكن قبل ذلك... قبلما يتمكن مني أحدهم... أرجو الله مخلصاً... أن يتيح لي فرصة... للتوبة... والتكفير... عن... عن... بعض ماإقترفت... من... من...

تساءل حسن بصمت... ترى ماذا يقصد؟ هل سيتخلى عن أبي؟ عني؟ و... و... من يحميه؟ من يحميني؟ لا... لا... لاحق له أن يفعل - لاحق له البتة... إصطدام حسن... الذي كان لشدة إنشغاله بأفكاره... لايبصر قدامه، بالعم... إبراهيم، الذي توقف فجأة... وهو يقول:

- أنظر حسن...

نظر حسن حيث أشار، كانت ثمه أضوية خافتة متفرقة، تقطر من فتحات وشقوق وكوى... بيوت منبسطة على الأرض... تحيط بها أشجار تبدو خلال الظلمة، كائنات خرافية هائلة الضخامة...

- أنظر، تلك هي كاريزه... قرية خالك. بينك وبينها مسيرة أقل من نصف ساعة... والطريق مأمونة... فأمض إليها...أقضِ بقية الليل... هناك... وفي الصباح... واصل السير... برفقة أحد أبناء خالكَ.

كاد حسن ينهار... ويتساقط على نفسه. إلا أنه تماسك بصعوبة:

- و... و... أنت... أنت... يا عمي إبراهيم؟

تساءل بصوت مشروخ... مجروح. وهو يكاد يبكي:

- أنا؟... أنا لن تراني بعد الآن.

- كـ... كـ... كـ... كيف؟ كيف؟...

أجابة باقتضاب:

- إذهب... يا حسن... إذهب.

جمد حسن في مكانه، ينظر إليه يلاحقه. غير قادر على تصديق مايرى ويسمع.

خطا العم إبراهيم، بضع خطوات... ثم توقف وإستدار راجعاً... نحو حسن:

- خذ حسن. خذ بندقية أبيك... أعدها إليه... لم أعد بحاجة إليها... ولن أحتاج إليها بعد الآن...

أدار له ظهره، وأسرع في خطوة، مشبكاً أصابعه خلف ظهره... مائلاً، في سيره نحو الأمام... بإنحناءة واضحة وإذ إبتعد بعض الشيء... بدأ كنقطة... نقطة سوداء تتحرك في الظلام... تبتعد... وتبتعد أكثر... وأكثر... و... فجأة شق الظلام بريق جمرة نار... ومزق سكون الليل صوت "طا...ق" أعقبتهما جمرات أخرى... وأصوات أخّر... مختلطة... برجع الصدى من جهات متعددة وهي تحيط بالنقطة من كل جانب... وتنهال عليها وحواليها بغزارة. وعلى غير هدى... بعشوائية وفوضى... فتضاءلت النقطة. توقف أولاً... ثم إنكمشت على نفسها... إلتصقت بالأرض... تخبطت لفترة وجيزة. ثوانٍ حسب. وقبلما تركن الى الهدوء وتخمد الى الأبد... صدر منها صوت... لم يسمعه حسن... إذ سقطت منه البندقية. بعدما فرغت... وراح بغتة في عويلٍ حاد... وهو يهرع نحو النقطة... ويرغي فوقها... منخرطاً في نشيج... متقطع.

كركوك ١٩٦٧

الجراد

قال ئاسۆس لنفسه، وهو يرنو من خلال النافذة الى أسراب الجراد. التي تغطي المزارع والحقول الممتدة، على مدى البصر:

- والآن سينتهي به الأمر الى إقتحام المنازل.

وإنتابه هلع شديد وألم بالغ؛ وهو يبحث بعينيه، عبثاً عبر الحقول والمزارع والبساتين عن تلك الخضرة الطرية المشعة التي ألقاها... الربيع القادم. على الأرض، بشارة قدوم... قبل حلوله، منذ بضعة أيام حسب من غزو الجراد، والتي إختفت الآن، أو كادت مع ما اختفى من المظاهر الإنسانية في القرية، وفي القرى المجاورة وربما في المدينة والمدن كلها... أو في البلاد والدنيا جميعاً... ولم يعد يبصر كائنا حياً في الخارج، حتى الكلاب السائبة والقطط الضاله... التي كثيراً ما ضج منها الناس، قد إختفت هي الأخرى.

بدت له أسراب الجراد وهي تتطاير في الفضاء، ذرات من الرمل، أثارتها عاصفة هوجاء، بشكل كثيف يسد الرؤية. يخنق الأنفاس. يكاد يحجب الشمس والهواء...

وإذ شعر بضيق في صدره شهق بعمق، ساحباً أكثر ما يستطيع من الهواء، إمتلأ أنفه برائحة نتنة... سدّ فتحتي أنفه قبلما يتقيأ أحشاءه. وقال لأمه التي كانت واقفة الى جانبه ترقب هي الآخرى، عبر زجاج النافذة المغلق، ما يجري في الخارج:

- إن رائحةً قذرة شرعت تنتشر...

أجابت أمه بأسى:

- يبدو أن بعضهم قد مات.

أضافت وهي تسد أنفها:

- ليس هيناً على الانسان أن يظل حبيس داره، تسعة أيام، بلاطعام ولا شراب.

خاطب ئاسۆس نفسه هامساً، مصدقاً كلام أمه:

- حقاً... تسعة أيام ليست بالمدة القليلة...

تسعة أيام مرت على القرية، واللعنه الجرادية التي حلت بها، ماتزال جاثمة على صدرها. تملأ فجاجها تحرق خضرتها... تغتال إبتسامتها... تقتل فرحها تمنع فجرها من الاشراق... يحجز عنها شمسها...

تذكر ذلك الصباح الأسود، أو الذي أسوّد فيما بعد، حين توجه الى مدرسته في "كلاوقوت"، وهي قرية تبعد عن قريته "تومار" قرابة نصف ساعة مشياً على الأقدام. تذكر إنه شاهد جرادة أو إثنتين... ولكن لم يعرهما إهتماماً. فقد كثر في الأيام الأخيرة حديث بعض الفلاحين عن الجراد، وإن كان قد إستغرب ظهورهُ في هذا الشتاء القارس. بالذات.

تابع سيره، محتمياً بمعطفه من البرد ومن قطرات المطر التي أخذت تنث. هازّاً رأسه... متمتماً...

- العراق بلد العجائب... لقد غدا بلداً للعجائب والغرائب.

غير أنه لم يسر سوى بضع خطوات حتى حطت جرادة أخرى، كبيرة الحجم. على ذراعه، دفعها عن نفسه... بتقزز وإشمئزاز... ولكنها لم تطر بعيداً، بل عادت وارتطمت هذه المرة بوجهه، بشدة، آلمته. فضربها بباطن كفه بقوة، وفي اللحظة نفسها إرتطمت واحدة أخرى بقمة رأسه المدفون نصفها في ياقة معطفه. وإلتصقّت ثالثة على خده الأيسر، مدّ نحوها بحذر شديد يده، ليمسك بها ويسحقها تحت قدمه. بيد انه فوجيء بأخرى تحط على كفه... وكما لو كان بينهن إتفاق غير معلن. بدأن العض في وقت واحد. تفجر فيه ألم شديد. فحرك رأسه بعنف... وقوة... أعنف وأقوى مايستطيع، لعله يتخلص من الجرادة التي أنشبت أرجلها المنشارية... بل وحطت واحدة على عينه اليمنى وثانية على عينه اليسرى وثالثه على أرنبة آنفه، المتجمدة من البرد. وأدرك إنه قد سقط في شباك الجراد، بصورة لايستطيع منها فكاكاً. وهم أن يستعين ببعض المارة القلائل، وهنا فقط إكتشف أن الجراد قد أحاط بالكل. وإستحل الجميع،

بعضهم يقاوم بضراوه، وبعضهم يهرب. وآخرون يدفنون وجوههم في أحضانهم ويصرخون من الآلام والأوجاع.

- يا إلهي... ماهذا الذي يجري... هل أنا أحلم...

تساءل بينه وبين نفسه بمرارة. وعلا صوت مشروخ:

- إخوتي... يا إخوتي... عودوا الى بيوتكم... الجراد لايكف عنا إذا لم نعُد الى بيوتنا... ونغلق علينا الأبواب.

وإرتفعت أصوات أخرى، من هنا وهناك، أصوات باكية... مبلولة بالدموع، مثخنة بالجراح...

- صحيح ... والله... صحيح... آه... آه...

- الجراد أقوى منا... الجراد أشرس منا...

وجد ïÝÚz " نفسه إزاء هذه الأصوات يصرخ:

- بل قاوموا... أيها الأخوة... قاوموا...

صاح آخر...

- لاأمل في المقاومة... لقد إحتل الجراد منطقة شوان... بأكملها... يا أستاذ.

- عار علينا... أن يهزمنا الجراد... قاوموا... قاوموا.

قال ذلك وهو لايَني يضرب الجراد، بالكتاب الذي يحمله ذات اليمين والشمال، وهو يسحق بكلتا قدميه ما يتساقط منه على الأرض ويفترس بأسنانه... مايقتحم فاه...

بعضهم إذ رأوا صراعه العنيد... راحوا يقتدون به... لفترة غير قليلة... إستمرت الحرب بينهم وبين الجراد، تساقط خلالها جراد كثير... سكن الجميع ايمان بأنهم سيهزمون الجراد وينتصرون عليه... لولا أن اسراباً هائله... إنطلقت من مكان ما... وأخذت تهجم على حين غرّة بوحشية؛ فاقت كل وحشية. مركزة هجومها على الوجه والرأس، ناشبة أرجلها المنشارية في العينين.

سالت الدماء من عينه... نزع عنه معطفه... وراح يضرب به بضراوة.

لم يدر كم مِن الوقت مرّ عليه وهو في حربه الشرسة الضروس مع هذه الحشرات... حتى إنتبه الى نفسه انه قد بات وحيداً منهكاً... يكاد يتساقط

على نفســـه.. بلا حــول ولا قــوة... وفكر... لابد من العــودة الى البــيت... والاستعانـة بالمبيد الذي يخفـه في درج المكتب. وشرع يتراجع فعلاً... وفي تراجعه يتعثر ببعض الجثث البشرية المبثوثة هنا وهناك. دون أن يعرف أو يتعرف على أصحابها... بسبب الدماء التي غطت عينيه...

لو... لو... أصل البيت... آه... لابد... أن أصل البيت. لابد... لابد... لابد...

وفي البيت... صعق تماماً... حين أخبرته امه...

– المختار... مختار القرية أخذ المبيد.

– كيف؟... متى... متى...

– هذا الصباح... حين كنت ما تزال نائماً...

– ما بك... ياولدي... هل أنت مريض...

سألته امه... بقلق.

لم يُجبها ، كان ذهنه. بل كيانه كله، شغولا ً بامر واحد. مملئاً به حد الفيض.

– لو لم ينهب ذلك الخنزير المبيد... آه... آه...

– لو... لم... ما أدراني، على أية حال... بما سيحدث...

– هو كان يدري... لابد إنه كان يدري...

– كيف؟ انىّ له أن يدري، كل شيء قد حدث فجأة... كانه إنبثق من العدم.

– لاشيء يحدث فجأة، لا شيء ينبثق من العدم... كان نطفة... كان جنيناً قذراً... يتكون ينمو في رحم الأيام السود ، يغذيّه الواقع المرّ... حتى إذا إكتمل في الخفاء... في خفية من العين والعقل... خرج الى الوجود بوحشيته... ووجهه... البشع... المفترس...

لم تُحر الأم جواباً... لم تعرف ماذا تقول... هو الآخر صمت... وراح يرقب موجات الجراد التي لاتتوقف... بل لاتخفت.

إنتبه الى وقع أقدام روناك وهي تنزل درجات السلّم... فبادرها:

– أما يزال النهر يجرف الجثث؟

أجابت أخته، ونبرات صوتها تنم عن دهشة مكينة:

– توقف.

تسا ءل ÏÝÚz " بدهشة أكبر:

– توقف؟ توقف النهر عن الجريان؟

– هل يمكن؟ كيف؟

تسا ءلت الأم بحيرة.

– لقد امتلأ بالجثث... حتى سالت على ضفتيه...

– الجثث؟ اللّهم رحمتك... يارب أعنّا... الجثث سالت على... على...

قالت روناك، مسحورة، كالغائبة عن الوعي:

– ولكنها لم تعد... جثثاً.

– لم تعد جثثاً...؟

سأل ÏÝÚz " بإهتمام خاص، قافزاً نحوها:

– ربّي عونك... ماذا يمكن أن تصبح الجثث إذا لم تعد كذلك.

سألت الام بخوف متصاعد.

– إنها اشبه... بـ... بـ... اعمدة من النور... تتصاعد الى السماء.

– ويحي... لقد... جُنّت... جُنّت إبنتي الوحيدة من شدة إدامتها التطلع جثث الموتى...

– صدقيني يا أمي... تعالى ...أنظري بنفسك.

– لا... لا... أقوى... النظر الى الموتى...

– ليسوا... موتى... يا أمي... صدقيني... ليسوا... موتى... لو ترينهم كم يبدون جميلين...

– جميلين؟ مَنْ...؟ الموتى؟

توجهت نحو أخيها الذي ظل واجماً... صامتاً:

– ÏÝÚz... لماذا لاتقول شيئاً.

– ها؟... ماذا... ماذا اقول.

– هل الإنسان... يغدو... أجمل حين يموت...

فكر ÏÝÚz " قبلما يجيب. بعد صمت غير قصير:

– ربما... ولكن ليس كل الناس... وليس في كل الظروف... وظل يردد... أجل

ليس كلّ الناس... ولا في كلّ الظروف.

إستفسرت الأم:

- ماذا تعني...؟

بينما قالت روناك...

- إذن لابد أن يكونوا أناساً عظماء... ماتوا في ظروف غاية في النبل والشجاعة... فأحاطت بهم... هالات من النور الوهّاج.

سألها أخوها:

- أيمكن التعرف عليهم؟

- بكل سهوله ويسر... كل جثة تكاد تصيح... تصرخ... أنا فلانة بنت فلان أنا فلان إبن فلان... أنا فلان الفلاني... لقد تعرفت على معظم أصدقائك من الفلاحين وعمال المزرعة... حتى بعض تلامذتك الصغار... آه... لو رأيتهم... تمنيت أن تكون واحداً منهم.

نهرتها امها بشدة:

- إخرسي... يا بنت... قطع الله... لسانك.

- يا أمي... إنهم ملائكة... كلهم ملائكة،... آه... ما هذا؟ آه... ما أبشع هذا؟

- ماذا هناك؟ ماذا...

سألها أخوها بإضطراب شديد:

- هـ... هـ... هناك... أنظرا... هناك...

وتعلقت نظراتهما بإصبعها... وهي تشير الى الخارج... عبر النافذة وقد إنعقد لسانها... إشارات خرساء.

- آه... يا للبشاعة!!

صرخت... الأم هي تهمّ بإسدال ستارة النافذة.

- لا... لا... لنرى من هو...

- من هو؟... ألم تعرفه... إنه... المدير... مدير الناحية...

قالت روناك...

- كيف رضي أن يُمسخ على هذا النحو... كيف؟

- رضي؟ وهل يرضى إنسان أن يستحيل جراداً...

- الأولى أن تقولي أية قوة حيوانية طائشة، تلك التي شوّهته على هذا النحو.

قالت روناك بإضطراب:

- أيّاً كان... أيّاً كان... لو مات... لكان خيراً له ألف مرة... لكان قد غدا نوراً... مثل الآخرين الذين يرقدون في النهر... أمي... ïÝÜ " ...

وتساءل كلاهما بصوت واحد:

- ماذا... ماذا... ياروناك...

- سيروان...

قاطعتها أمها... بقلق شديد...

- سيروان؟ خطيبك... ماذا به... هل رأيته بين الراقدين في النهر.

- لا... وذلك... مايقلقني...

- يقلقك؟ ماذا تقصدين...

- أخشى أن يكون قد...

- لا... لا... لاتسيء الى إبن خالتك.

- ارجو أن لايسيء هو الى نفسه.

كـان ïÝÜ " يرنو والألم يمزقه، الى السيد المدير... وقد إستحال جراداً ضخماً... وهو يسير وسط مجموعة من الجراد... تتطاير حوله تحّف به، في طرب وهرج... كأنها تزفُّ عروساً.

- لا... لا... الموت، بالرغم من كل ما فيه من قوة، أهون... وأرحم...

- وأشرف... وأنبل... يا أخي...

قالت ذلك وألقت بنفسها عليه تحتضنه... تقبّله وتتمسح به...

- لاتكن جراداً، مُتْ... ولا تكن جراداً... لاتدع أيّاً منا يصبح جراداً، لنَمُتْ... لنَمُتْ كلنا...

قاطعتها أمها بغضب:

- ماالذي جرى لك... هل جُننتِ؟

ظلت تطوّقه... وتهزّه...

– عِدني... يا أخي... عِدني...

قال ïÝÚz " والمرارة تعصر روحه... والخوف من المجهول... غيمة سوداء تطوق الفضاء...

– إطمئني يا أختي... إطمئني... سأجاهد بكل ما أملك من طاقة أن...

وعلا طرق شديد لحوح على الباب. صرخت الأم برعب...

– هجم علينا الجراد...

– المدير... المدير... قادهم إلينا...

وإزاء تواصل الطرق واشتداده... هجم ïÝÚz " ... على الباب.

فأمسكت به كلتا المرأتين...

– لا. لاتفتح الباب.

– مَنْ؟ مَنْ؟

– أنا... أنا...

وبدا الصوت مألوفاً بالرغم من غرابته. ومع هذا سأل:

– مَن انت؟ مَن تكون؟

– أنا... أنا... سيروان...

– سيروان؟

وقفزت روناك نحو الباب بلهفة وشوق للقاء خطيبها. بينما توجه ئاسۆس نحو السلم صاعداً الى الطابق الثاني... مدفوعاً بأمل اللقاء مع أصحابه وأحبته الذين يجرفهم النهر، أعمدةً من النور...

لم تكد روناك تفتح الباب حتى إرتدّت مصعوقه.

– لا... لا... آه...

وأغلقت الباب بوجهه بعنف... مما حدا بإمها أن تهرع نحو الباب تفتحه:

– لماذا؟ لماذا تغلقين الباب بوجه خطيبك؟ هل فقدت بقية عقلك؟

وإذ فتحت الام الباب ثانية، تراجعت بهلع...

– ربي عونك! ماهذا؟... مَنْ أنت... مَنْ تكون؟

ومرق سيروان وقد إستحال جراداً:

– خالتي... أنا... أنا... سيروان... آه... لا... لاتغلقي الباب... دعيني أشرح لك...آه... روناك... روناك حبيبتي... أرجوك إسمعيني لاتشيحي بوجهك عني... إسمعيني حسب... ثم... ثم.

– لا... لا... أخرج... أخرج... لاتدنّس بيتنا...

تعلّق سيروان... بالأم... توجّه نحوها... بكلّه...

– آه... خالتي... أمي... أرجوك... ليس لي سواكم... أحده ألوذ به لاتطردوني... لا تنبذوني... لاتكونوا أشدّ قسوة من هذه الحشرات التي إستباحت الإنسان والكون...

وجدت الأم نفسها تقول، ربما دون إرادة أو تصميم:

– لا... لا... ولكن...

– آه... أمي... أمي... أزحف على جبيني... نحو قلبك الكبير... فلا تغلقي باب... رحمتك الواسعة دوني...

صاحت روناك متقززة...

– ماالذي تقول... من أين تعلمت هذه اللغة المتحذلقة المنافقة.

تماسكت الأم. خاطبت أبنها:

– دعيه يابني... دعيه... نسمع... ماجرى له...

وكسيارة اسعاف تحمل محتضراً يوشك أن يموت... سُمح لها بالإجتياز إنطلق سيروان، وهو لايصدق الفرصة الذهبية التي هبطت عليه حين غرة من السماء.

– ماجرى لي فظيع... ماجرى شنيع... شيء... لاإنساني... لاحيواني لا أدري ماذا أسميه... لا أعرف ماذا أدعوه...

أفقت صباح اليوم المشؤوم... في ساعة متأخرة بعض الشيء... فوجدت حقل القمح الذي رفعت اعشابه الطرية الخضراء رؤوسها قبل أيام حسب يغطيه الجراد، فجُنَّ جنوني... فرحت اضرب ماأضرب وأسحق ماأسحق ولكن العدد كان أكبر من ان أقوى على سحقه كله... وكان في تزايد مستمر فرجعت الى كوخي... أبحث عن المبيد... ولكن عبثاً... إذ تذكرت

بأن مختار القرية، لعنه الله، كان قد طلبه مني قبل يومين...

- المختار... المختار... أيضاً...

- وكان الأفدح أن الجراد قد أحاط بالكوخ من بابه وفتحاته... يهم بإقتحامه والهجوم عليَّ... فأغلقت الباب والفتحات بما تيسّر عندي من ملابس وخرق... ولكنها أخذت تنفذ من السقف من الجدران... من تحت الأرض... وهي تنهش لحمي... تغرز أرجلها في عظامي... حتى خارت قواي... وفحيحها الأشبه بفحيح الأفعى... يملأ آذاني وكياني رصاصاً مصهوراً... ولا أدري - كيف بات يتشكل في أذني. كأمر... كصوت... غير واضح النبرات...

- أمر؟ صوت؟...

- قُلْ... إني جراد... قل أنا جراد... وأبيت... ولكن وجدت نفسي في النهاية... جراء الآلام التي غرزتني والدماء التي راحت تنزف من كل مكان من جسمي... أقول... بوهن... أنا... أ...نا... جـ...راد... وإذ ذاك... فقط كفّ عني الجراد...

- كيفّ؟

تساءلت روناك بمرارة... ثم أضافت...

- الجراد لايفترس الجراد... ولو الى حين...

- الى حين؟ أتقصدين أنه سيعاود الهجوم عليَّ... لا... لا... هذه المرة... سأموت... سأنهار... لن أقوى حتى على النظر إليه...

- وما جدوى موتك الآن... آه... ليتك قد مُتَّ... قبلما...

وإهتزّ البيت كله إذ ارتطمت به عاصفة عنيفة من الجراد، نزل ïÝÙz " على إثرها... مرغماً يطوي درجات السلّم طياً...

صرخ سيروان... متوسلاً:

- لا... لاجدوى... أرجوكم... لاتجعلوا الجراد يستشيط غضباً.

- ماهذا؟ من هذا؟... أنت... أنت... أخرج... أخرج حالاً... قبلما أقضى عليك.

وإختفى خلف الأم... التي وقفت حائلة بينهما...

- دعه ياولدي... لقد إحتمى بنا... لاأحد له سوانا...

وهزّت موجة أخرى... عاتية من الجراد... البيت مرة أخرى...

- ويحي... سينهار البيت فوق رؤوسنا...

أخذت ذرات من التراب تتساقط من السقف وشرعت الحيطان تتشقق... وتهشم زجاج النافذة الوحيدة... فإندفعت عبرها... مجموعة من الجراد... راح كل منهم... يدفعها... عنه... بما وقع بيديه... من الأواني والصحون والكتب والدفاتر... والكراسي... عدا سيروان... الذي قبع في ركن من الغرفة مسحوقاً... لا يقوى على النظر الى الصراع الذي إحتدم وإصطبغ بالدم بين الإنسان والجراد...

صرخت الأم بوهن:

- أ... أعيينوني... أنجدوني... إني... انهار... إني... أ... ...

- أسرع الى أمك... أنا أستطيع حماية نفسي...

صاحت روناك... بأخيها... الذي كان مغلولاً بالجراد... من كل جانب... وراح يبذل المستحيل في أن يثغر في جدار ثغرة ينفذ منها الى أمه... التي شرعت تئنُّ وهي تتهالك على نفسها... أمسك بها سيروان وهو يهمس بأذنها في إلحاح غريب... بصوت مبحوح:

- قولي... أنا... جراد... قولي أنا... جراد... يكفُّ عنكِ في الحال.

رفسه ئاسڈس بقوة... وهو يقول...

- لا... يا أمي... لا... أرجوك... أرجوك...

إنقلب سيروان على وجهه... وعاد ثانية يتشبث بالأم...

- هيا... يا أمي... هيا... هيا... ارجوك... قوليها... قوليها... قبل فوات الآوان...

كان الدم ينزف منها بغزارة... تساقطت على بعضها... مثل كيس أُفرغ من الهواء...

- أنا... أنا... مـ...اء... مـ...اء

وصرخ ïÝÙz " ... صرخة هائلة...

- آه... لقد قتلتم... أمي... قتلتم أمي...

وندّت من روناك صرخة... ضعيفة...

- و... داعاً... ïÝlz... حبيبي... ود...

- روناك...

وقفز نحوها... كانت مثخنة بالجراح... متكورة على نفسها...

- لم... أقلها... و... لن... لن... أقو...لها... و...دا...عاً...

وإنطلق ïÝlz " بقوة جنونية... من النافذة... وهو يصرخ...

- لن أكون... جراداً... لن أكون جراداً...

جثم سيروان على رأس روناك... وراح يبكي وينشج.

- آه... آه...

كان صوت ïÝlz " ... يدوّي، وحده، كأنه آتٍ من كل الجهات :

- لن أكون جراداً... لن أكون جراداً...

ثم لم يلبث أن إستحال الصوت المنفرد الآتي من كل الجهات... أصواتاً... جماعية... هادرة... منبثقة من كل مكان...

- لن نكون جراداً... لن نكون جراداً...

خانقين ١٩٦٨

الشمس... الشمس

حين عاد الشرطي عربيد حسن الى منزله، بعد غيبة ثمانية أيام طوال، من شهر آب ذي الشمس الحارقة التي تحرق المسمار في الباب، وبلياليه الفائضة بالقيض والبق والذباب كان قد غدا خرقة مبللة، متهالكة على بعضها، من شدة الإعياء، بلا حول ولا قوة، التعب يسيل من أوصاله مع العرق الزنخ الذي ترشح به مسامات جلده الأسمر، شديد السمرة، حتى إنه لم يجب على عذابات زوجته، الصبية الحسناء، ومعاناتها طيلة هذه المدة بأكثر من:

- كنا في مأمورية.

- لو... لو أخبرتني... أو... أو بعثت من يطمئنني عليك... كدت أموت من القلق والخوف...

قاطعها وهو يتثاءب بكلمات ممطوطة... يقطعها النعاس:

- كانت... مأ...مورية... خا...صة... أأي ي ي ي...

وأضاف مسرعاً قبلما يتيح لها فرصة للإستفسار عن طبيعة هذه المأمورية... وخصوصيتها الخاصة جداً:

- هاتي ماعندك... الجوع يقتلني.

بين تردد وإستغراب تساءلت الزوجة:

- ألا... ألا تغير ملابسك... تصب بعض الماء... على جسمك...؟

إحتدَّ:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أقول لها الجوع يقتلني... تقول لي... كذا... وكذا...

أجابت بإعتذار مشوب بقلة حيلة...

- فقط... فقط... ريثما اهيىء لك... ما تأكله...

– أما في البيت شيء يؤكل؟ أي شيء؟ حفنة تمر؟ رأس بصل؟ كسرة خبز؟
– بلى... بلى... وي!! كيف؟ هل يمكن؟... معقول؟

وإنصرفت في عجلة الى تلبية طلب زوجها... وهي... تردد:

– الآن... الآن... حالاً... ثوان حسب... ثوان.

ولم يكد ينتهي من تناول طعامه، حتى أخذت معدته تثقل عليه، وإحساس بالخمول، أشبه بالخدر، شرع يسرى في أوصاله.

أغمض عينيه وفتحهما. فتح فاه وأغلقه، بضع مرات، وهو يتثاءب، قبلما يُفرغ في جوفه الملتهب، الممتليء بالبصل الحار، والتمر، دورق اللبن الكبير، دفعةً واحدة.

نهضت زوجته، وبالرغم من انه لم يلحظ ذلك، إذ لم يكن حافلاً بها في هذه اللحظة بالذات فقد إرتأت أن تقدم له تفسيراً لقيامها:

– أعدّ لك الشاي!
– لا. لا أريد. أو... أو... وووو...

وأضاف بينه وبين نفسه، متمتماً، بقناعة عميقة ورضا تام:

– الحمد لله...!!

مطّ شفتيه، تثاءب مرة أخرى، وبضع مرات أُخر، وهو يتحامل على نفسه، ناهضاً، متوجهاً نحو السلم المؤدي الى سطح الدار. تساءلت زوجته بدهشة شديدة:

– أين؟

تطلع نحوها... بعينين... أثقلهما النعاس... ولا يكاد يسمح لهما بالإنفتاح:

– في الصباح... يتوجب عليّ أن أقدم لهم... تقريري.
– و... و... ولكن...
– لابدّ أن أرتاح. أنام. لقد أنهكتني الأوغاد الى حد الموت.

وقرص خدها برقة، مما شجعها أن تجرؤ وتسأل بإستنكار:

– تنام؟ في عزّ الظهر؟
– عزّ الظهر؟ لقد غربت الشمس... يا حرمة. ماذا جرى لعقلك؟

تراجعت. وراحت تتلمس لنفسها عذراً، لما بدا لها أن زوجها حسبه تطاولاً عليه. وعلى حقوقه المشروعة، الأمر الذي بات يحذّرها منه، على الدوام. ولا سيما هذه الأيام بصورة خاصة:

– أ... أ... قصد... السطح حار. مازال حاراً... لم أرشّه بعد... لو... لو تجلس معي بعض الوقت نتحدث... قليلاً... و...
– تعبان... تعبان جداً.

قالها بضجرٍ شديد، وحسم نهائي... وتابع سيره نحو السلم...

دفنت الزوجة فشلها وإرتباكها في ذلّة، أخذت تعتادها في الأيام الأخيرة. وراحت تتبعه بمسكنة ظاهرة، وإذ أحسَّ بها خلفه. توقف. إلتفت نحوها تساءل بإستياء:

– ماذا هناك؟
– أفرش لك المنام.
– أفرشه بنفسي.

أجاب بإقتضاب، وواصل سيره مترنحاً... كالمخمور.

قبعت في مكانها، بلا حركة، عيناها فقط راحتا تتبعانه وهو يرتقي درجات السلم الطيني، يضربها بحذائيه الثقيلين بوهن... فتتطاير أتربة خفيفة، لاتلبث أن تتلاشى. وحين توقف وصاح بها "إسمعي" إختفّت كمن فزّ من نوم عميق:

– نعم... نعم... عربيد.
– إذا سأل عني أحد، فأنا غير موجود. لم أعُد... من مأموريتي بعدُ.
– حتى العريف خلف؟
– وحتى أبو العريف خلف.

أجاب بغضب. وصدرت منه بضع كلمات أُخَر، قبلما يتوارى عن نظرها، فوق السلم. لم تسمعها، ولكنها تأكدت إنها شتيمة. وربما شتائم عديدة... موجهة إليها... أو الى العريف خلف... أو... أو... تمتمت ببطء شديد. وحزن غامر... شرع يتصاعد ويتشعب في داخلها "حسناً... حسناً" وأضافت بضعف "سأكذب هذه المرة أيضاً... سوف أكذب... كالمرات السابقة" ورسمت بيديها علامة يأس وإستياء مكبوت.

ماذا جرى لعربيد؟ ما الذي يجعله حاد المزاج وعصبياً الى هذا الحد.

ثمانية أيام بلياليها المزروعة بالأرق والحشرات، ونهاراتها المنقوعة بالقلق والملل والحرّ الجهنمي الحارق. وأنا وحدي، يتركني وحيدة، فريدة، لاأنس ولا جان. أنا والحيطان الصماء الخرساء تنهبني الوحشة والوحدة، يمزقني الشك والخوف... وإذ يعود... لايكلمني ثلاث كلمات... ولا يمكث بجانبي ثلاث دقائق؟ لا. لا. ان عربيد لم يعد ذلك الـ(عربيد) الذي أعرفه... عربيد الأليف... اللطيف... الظريف. الذي كان يحدثني ساعات وساعات عن (وظيفته) وتفانيه في سبيلها، بفخر وإعتزاز ورضا رؤسائه عنه وثنائهم الدائم عليه وعلى أدائه... وإعتمادهم الكلي عليه، هو، دون سواه، لقد... لقد... تغير كثيراً... منذ بدأوا يكلفونه بهذه المأموريات، التي تولج الليل بالنهار... والنهار بالليل، دون تفريق أو تمييز والتي يسميها هو، بإحساس بالمباهاة... بـ..."الخاصة"... وحتى الجيران... جيراننا الطيبين، المخلصين، الوديعين، الذين كثيراً ما ساعدوني، وقضوا لي حاجاتي وكانوا يزورونني... ويدعونني الى زيارتهم، حين أكون وحدى، يؤنسون لي وحدتي ويحيطونني بودّهم ومحبتهم وروحهم الإنسانية المتعاونة، قد منعني من التردد عليهم. مثلما منعهم من التردد عليّ. لماذا؟ ماالسبب؟ و... و... ثم ما حكاية النوم المبكر هذا؟ أنام أحد في هذا الوقت، وعلى السطح، في حر آب اللاهب. حتى الدجاج لاتنام في مثل هذا الوقت. إذن لماذا؟ ماذا هناك؟

لملمت بقايا أسئلتها الولود، مع فتات الخبز وقشور البصل ونوى التمر. والقت بها في القمامة. وراحت تغسل يديها ووجهها بالصابون المعطر، وحين شرعت تسرّح شعرها الكستنائي الطويل، أمام المرآة، إكتشفت أن ثوبها متسخ بعض الشيء... فقررت، على الفور، تبديله "مسكين... لاشك أن التعب قد هدّه، وغيرّ طباعه، كان الله في عونه، ليس هيناً على الإنسان أن يقضى ثمانية أيام، في هذا الجو الكافر، بعيداً عن أهله وبيته. بلا راحة ولا غسل. يلهث هنا وهناك، ربما بلا طعام ولا نوم..." قالت ذلك وهي ترتدي منامتها الوردية الرقيقة، التي تكشف عن مساحة غير قليلة من صدرها وذراعيها. والتي إشترتها مع جهاز عرسها قبل خمسة شهور فقط. مؤملة نفسها، بالرغم

من كل شيء، بليلة لذيذة، سعيدة، الى جانب زوجها، بعد ثمان ليال من العذاب والحرمان، والقلق والإضطراب، حتى رائحة البصل التي تبغضها حد الموت، والتي كثيراً ما صدتها عنه، ودفعتها أن تصدّه عن نفسها، وطنت نفسها على تجاهلها!! لا. لا. فهذه الرائحة التي تفوح بها كل مسامات جسده، قوية، نفاذة، ومن السطوة بحيث لايمكن تجاهلها وما عليها إلا أن تتحملها، وأمرها الى الله، أو أو... التخفيف من حدتها، فراحت ترش على جسدها، ووجهها، تحت ابطيها، المزيد من العطور...

قبلما تبلغ سطح الدار، حيث يرقد عربيد، وبينما لاتزال في منتصف السلم تقريباً، تناهى إليها صوت شخيره المتميز. فكرت "نائم على ظهره" ثم أضافت:

"كالعادة... كلما نال منه التعب".

بالفعل كان مستلقياً على ظهره، وقد علا بطنه على نحو غريب، وهو ساكن جامد... ذراعاه ساقطتان الى جانبيه... بإرتخاء، ولا مبالاة... تبدوان كأنهما ذراعا شخص آخر... لاتمتان بصلة الى هذا الجذع المنتفخ الممدود. الذي لايتحرك منه سوى صدره، يعلو ويهبط بإنتظام... وسوى فتحتي أنفه، وشفتيه الغليظتين، واللتين تنفتحان وتنغلقان، بين آونة وأخرى، أو بالأحرى، تهتزان برتابة. لينطلق منهما هذا الصوت المألوف عندها جيداً... برررررر... خووووو... خ خ خ خ...

توجهت نحو الحذائين الملقيين فوق المنام باهمال، على مقربة من قدميه الملبستين بالجوربين. اللذين يصعب التعرف على لونهما بسبب ما تكدس فوقهما من أتربة وأوساخ... إنحنت على الحذائين لتحملهما بعيداً. إقتحمت أنفاسها رائحة عفنة... شديدة العفونة "لعله لم ينزعهما طيلة هذا الزمن الطويل". سدت فتحتي أنفها وأبعدتهما عن المنام، حيث ستتمدد الى جانب زوجها. دفعتها بقدمها... بعيداً بعض الشيء. وإذ إنحنت ثانية كي تنزع عن قدميه الجوارب إستقامت فجأة كأنّ عقرباً لسعت أناملها وهاجمتها الرائحة نفسها، بشكل أكثر عنفاً وعدوانية وأشدّ عفونة ونتانة. أخفقت في التغلب عليها. أو حتى تحملها... بالرغم من كل العطور التي رشتها على نفسها.

إرتدّت ولكنها علّلت إرتدادها "أخشى أن يستيقظ فيغضب ويقرّعني" إكتفت بأن سحبت الغطاء الرقيق "الشرشف" وغطت رجليه حتى الركبة، آمله أن تخنق كل الروائح، تحته.

إزداد إهتزاز الشفتين، وتسارعت إنتفاخات المنخرين وإنغلاقاتهما، وعلا الشخير أكثر... وأخذت تنويعات متباينة تتخلله، حاولت أن تسحبه نحوها، تعدّل وضعه، تجعله ينام على جانبه، غير إنها فشلت ولم تستطع تحريك هذا الجثمان الثقيل قيد أنملة. كان العرق يتصبب منه بغزارة... مما جعل جلده... يلتمع، تحت ضوء القمر وأشعة النجوم، في السماء الصيفية الصافية، فبدأ أكثر سوءاً "بسبب البصل، كل هذا العرق الذي يسيح فيه بسبب البصل... آه... كل ذلك البصل الأزرق الحار التي إلتهمه" وأضافت "والحر أيضاً، الحر قاتل" تناولت طرف ثوبها وراحت تروّح له، وماهي إلا لحظات حتى تعبت ووجدت نفسها غارقة في العرق، هي الأخرى، فكفت وتمددت الى جانبه... ملتصقة به تماماً، وشرعت تلتصق به أكثر فأكثر. طوقته بذراعها. تحملت رائحة البصل والروائح الأخرى التي تفوح من فيه وقبلته... ولكنه لم يحرك ساكناً. وفشلت محاولا ت أخرى، عديدة، بذلتها لحمله على الإنتباه لوجودها... لصق جسده وجود أنثى شبه عارية لصق جسد رجل. ولكن من غير جدوى، ولولا هذا الشخير متنوع النغمات، المتصاعد بإستمرار وحركته الشفتين والمنخرين... لحسبته ميتاً... إحتواها اليأس فأقلعت عن محاولا تها اللامجدية، نهائياً، أدارت له ظهرها بقنوط وتأفف وإستياء، تململت في مكانها... قليلاً... ثم إنقلبت على وجهها، واضعة الوسادة تحت بطنها... تحركت فوقها، بكل قوتها بضع حركات... ثم خمدت في مكانها... وغرقت في... النوم.

في الصباح، حين أفاقت، وجدت شمس الصيف ترش الكون. وقد فرشت أشعتها فغطّت السطح كله، عدا بقعة صغيرة قابعة في الظل الذي يلقيه سياج بيت الجيران حيث يرقد عربيد حسن. ألقت نظرة عليه. كان لايزال غارقاً في النوم والعرق، سوى ان جلده، تحت أشعة الشمس الفضية، غدا أكثر لمعاناً، وإنه قد إنقلب على وجهه... وصوت شخيرة قد خفت الى حدٍ ما. تركته على حاله ونزلت كي تعد له إفطاره. بيد أن الشمس لم تتركه على حاله، فقد

طفقت تزحف نحو ببطء ودأب. لامست قدميه، وكوّر جسمه الا أن الشمس ظلت تواصل زحفها بإتجاه الرأس. سحب الغطاء فوق رأسه بإنزعاج. فبدا ككرة، منتفخة، مغطاة. وإذا كان الغطاء الرقيق قد أنقذه من أشعة الشمس الساطعة، ملقياً إياه في ظلمة مؤقتة. فإنه قد عجز عن إنقاذه من حرارتها اللافحة المتسربة خلاله، لاسيما، وإنها بمرور الوقت أخذت تقوى وتشتد. وتجعل جسمه الممتليء يطفح بالمزيد من العرق اللزج... مما دفعه الى بذل محاولة أخرى للهرب منها. فشرع يزحف نحو أسفل حائط الجيران، الذي أدرك بغريزته انه ينعم ببعض الظل. ولكن الشمس ظلت تلاحقه، ولم تدعه يستمتع بالفيء إلا هنيهة قصيرة ثم راحت تغمره وتصليه بنارها، دون أن تجدي المياه التي باتت تسيل من كل أنحاء جسمه في تخفيف حدتها... وإن كانت قد ضاعفت هيجانه... فقد سربلته بالدبق. وإذ خارت مقاومته تماماً، إستشاط غضباً. فنهض وبدا كأن واحداً قد صبّ فوق رأسه برميل ماء. وهو في غاية الإنفعال والهيجان، وكان أول عمل قام به هو أن قدم تقريراً مفصلاً، مطولاً، مسنوداً بالبراهين والأدلة، والوثائق والشواهد، حسبما كتب، الى رؤسائه، ضدا الشمس متهماً إياها بالخيانة والتآمر وإقلاق راحة المواطنين المخلصين للوطن والمتفانين في سبيله.

و... و... و... و...

بعقوبة ١٩٨٦

رَماد فوق الجرح

المسألة بدأت على النحو الآتي:

كان يونس يحلق ذقنه، على عادته صباح كل يوم، حين رنّ جرس التلفون. خفق قلبه بشدة، وهرع إليه بسرعة، إذ حسبها المكالمة التي ينتظرها. والتي تتعلق بالوظيفة التي وعدوه بها:

- آلو... يو... نس... أنا... أنا...

وسكت الصوت. صاح يونس بقلق:

- أمي: خيراً؟ ماذا هناك؟ تكلمي...

جاءه صوت آخر أكثر تماسكاً:

- إنها النوبة اللعينة يا... يونس.

عرفه، أنه صوت شقيقته فاطمة. إضطرب وتساءل:

- وكيف حالها الآن يا فاطمة؟

- سيئة... سيئة جداً. تلبط مثل سمكة خرجت لتوّها من الماء. لا أدري ماذا... أفعل.

ندّت من يونس صرخة إزاء نبرة أخته الشاكية العاجزة:

- آه...

وأضاف سريعاً، بعدما حسم موضوعاً في ذهنه:

- أنا قادم... قادم حالاً. لاتقلقي.

وإذ أغلق التلفون. تذكر أن السيارة قد أخذتها زوجته. رفع السماعة ثانية. وقبلما يدير أيّ رقم إجتاز هنيهة تفكير. وراح يدير الرقم الذي تبادر الى ذهنه:

- آلو؟ محمد؟ آه... من حسن الحظ أني وجدتك. أمي مريضة والسيارة عند

سعاد... هل يمكن أن...

وقاطعه المقابل بدعابة:

- مريضة؟ أم تدّعي المرض؟

- لا. لا. إنها النوبة القلبية... وحالتها خطيرة... كما يبدو.

قال الآخر بنبرةٍ إتسمت بقدر أكبر من الجدّية:

- ثوانٍ أكون عندك.

إستغل يونس هذه الثواني التي إستطالت الى دقائق في إتمام حلاقته وإرتداء ملابسه. في سرعة قصوى. وأول ما شق سكون الصمت الذي لفّ كل شيء في البيت، صوتُ منبّه السيارة. ركض الى الخارج تاركاً الأشياء كلها. على حالها من الفوضى.

- أسرع... يامحمد... أرجوك.

قال يونس. وهو لايزال خارج السيارة.

- يا أخي... قل صباح الخير على الأقل.

إكتفى يونس بـ آه. وجلس الى جانبه.

وقبلما يحرّك محمد سيارته. ناوله منديلاً ورقياً من علبة المناديل الموضوعة في مقدمة السيارة. وقال:

- خذ. أمسح آثار الصابون من على وجهك.

- آه... لحظة... لحظة. أغسل وجهي.

أجاب محمد بسرعة:

- لا. لا وقت لدي.

وأضاف متحسراً. وهو يشعل سيجارة:

- الزمن يفرّ مني. كما يفرّ الماء من بين الأصابع.

وإندفع بسيارته مسرعاً. نحو الأمام. يروم القبض على الزمن الهارب.

أخذ يونس يمسح وجهه دون أن يقول شيئاً.

شعر بألم طفيف في صدغه الأيمن. كما لو كان ناشئاً من وخز إبرة، أهمله.

حتى أن الرطوبة التي تسللت الى رؤوس أصابعه من المنديل الورقي. لم تحمله على الإهتمام به. بيد أن الملاحظة العابرة التي أبداها محمد، بإقتضاب وبرود تام متفهماً:

- جرحت وجهك؟

جعلته يلقى نظرة خاطفة على المنديل الذي همّ بالقائه خارج السيارة. وإذ أبصر نقطة حمراء معتمة في زرقة الورقة السماوية...

قال:

- يبدو.

قالها بلامبالاة، وهو يفتح زجاج السيارة ويرمي المنديل الذي إتسخ بالصابون والدم.

نهره محمد:

- لاتعرضنا للعقاب يا يونس.

- العقاب؟

تساءل يونس بدهشة. ومدّ يده الى علبة المناديل. ليسحب ورقة أخرى. إذ أحس بالسائل الساخن لايزال يسيل على صدغه الأيمن. إنعطف محمد نحو شارع جانبي.

- ممنوع... إلقاء النفايات في الشارع.

قال ذلك وهو يلقي ببقايا سيجارته عبر النافذة الكائنة على يساره لم يعقّب يونس. لم يكن في حالة مزاجيه تسمح له بالتعقيب. إكتفى بسحب منديل جديد وبإعادة العلبة التي سقطت بين قدمي محمد. من جراء ذلك أو بسبب الإنعطافة القوية التي إنعطف بها محمد نحو اليمين، الى مكانها.

- ثم... لاتهدر المزيد من الورق.

- أعطيك علبة جديدة... حينما نعود.

- نعود؟

وتفادي بمهارة حفرة كبيرة على الشارع. وأضاف:

- لا يا أستاذ... دبّر حالك. فأنت لن تعود معي.

- ها؟

- أنا... على موعد.

تساءل يونس ساهماً:

- معها؟... مع سهاد؟

أحس يونس بأن المنديل قد تبلل وأنه بحاجة الى تبديله.

- ما هذا؟... إنه لاينقطع.

- سهاد... يا يونس... تملؤني... تكاد تنسيني كل من عداها.

إلاّ أن يونس كان مسكوناً بقلق بات يتسع:

- الدم. الدم لاينقطع.

أجاب الآخر ببرود شديد:

- سينقطع. إضغط على الجرح بعض الوقت.

سحب يونس منديلاً آخر من العلبة التي إحتفظ بها عنده.

- على مهلك يا أخي. أقول لك انى على موعد. وأنت تهدر... مناديلي، بلا حساب.

أعاد العلبة الى موضعها، دون أن ينظر الى وجه يونس.

هالته بقعة الدم الكبيرة على المنديل، فلم يحفل بما فعله محمد وإنما قال بصوت مرتجف:

- إإ... إنه... لايتوقف... يا محمد.

- ها؟... كيف؟... لابد أن يتوقف.

- لقد إخضلّ المنديل الثالث... وهو لا...

ردّ محمد يد يونس التي إمتدت نحو العلبة من جديد، وهو يقول محاولاً أن يبدو الأمر... كدعابة:

- قبلما تأخذ الرابع. دعني أرى.

قال ذلك وهو يخفف من سرعة سيارته بعض الشيء:

- إلتفت... إلتفت نحوي.

اضاف دون أي إنفعال أو تأثر:

- آوهو... إنه خدش... خدش بسيط.

وعاد بسيارته الى سرعتها السابقة.

- خدش؟ خدش بسيط وكل هذا الدم؟

همس يونس كمن يخاطب نفسه. بينما قال محمد بصوت عالٍ:

- ربما كانت الشفرة مثلومة.

- بل كانت سليمة... جديدة وسليمة.

وعاد يخاطب نفسه بصوت مسموع:

- أيمكن أن تكون، مع ذلك، ملوثة.

- ملوثة؟

أطلق محمد ضحكه عالية. وهو يقول بإستهانة بالغة:

- لو كانت ملوثة لقتلتكَ في الحال.

إستدار نحو اليسار وأضاف:

- عقّمه بالكولونيا.

- الكولونيا؟ أتحسبنا في صالون تجميل...

ضحك محمد ثانية وأشار الى صندوق السيارة الصغير قبالة يونس:

- إفتح... إفتحه... وستعرف أين أنت؟

ولم يدع وقتاً ليونس كي يفتحه، إذ أسرع هو بفتحه.

أطلق يونس صرخة دهشه: ياه!!

صدمهُ مرآى عدة تجميل نسائية كاملة... عطور... مساحيق... كريم... كولونيا... إلخ... بضع زجاجات ويسكي بحجم علبة الشخاط.

ظل لفترة يبحلق فيها. سأل محمد، بشعور عال بالزهو:

- هل عرفت، أين أنت الآن.

- في مبغى... مبغىً متنقل.

أجاب يونس بإحساس لم يخلُ من التقزز وهو ينتقي زجاجة كولونيا. بينما قهقه الآخر.

- إحترم خال أولادك. إنها الأخيرة في حياتي.

- الأخيرة؟

وصرخ، إذ لامس الرذاذ الجرح وفاحت الرائحة.

- آخ... كأنها حجرة نار.

عقّب محمد وهو لايزال يقهقه ويتنشق الرائحة التي إمتلأت بها السيارة:

- إنها النار فعلاً. النار التي أعدت لأمثالك من...

وتفادي بصعوبة شديدة. سيارة كبيرة. كاد يصطدم بها.

- إنتبه لسياقتك الرعناء يامحمد.

- خفت؟

وإستغرق في ضحك صاخب. حتى بات يهتز من على معقده.

وصرخ فيه يونس بحدة.

- إحذر... الضوء الأحمر.

عاطت الفرامل بقوة، فغطت على قهقهات محمد التي كانت لاتزال تهدر.

- كدت تقتلني... لعنك الله.

- لا. لا. إطمئن... يعزّ عليّ أن تترمل أختي وهي في... عنفوان شبابها.

وأضاف في الوقت الذي أخذ يشعل سيجارة جديدة.

- يونس... لقد سحرتني هذه الأنثى تماماً، وبشكل غير معقول... أزاحت كل من قبلها. بنت سداً أمام كل من بعدها... تربعت على العرش ملكةً أبدية. بلا منافس ولا منازع. كما يقال.

- ذلك ما تقوله عن كل واحدة يلقيها إبليس في طريق مغامراتك...

- ولماذا إبليس وليس ملاكاً من ملائكة الحب؟

كان يونس راغباً عن كل حديث من هذا النوع. قال بضجر:

- تحرك. لقد عاد الضوء الأخضر.

وإذ إستقامت السيارة بعد إستدارة صغيرة. قال محمد مضفياً نشوة طاووسية على نبرات صوته:

- يبدو لي... اني أكبر من أن تحتويني إمرأة واحدة.

لم ينطق يونس ظل غارقاً في المنديل الذي تغير لونه تماماً... بينما كان يونس متلذذاً بأفكاره وهواجسه، كطفل يدير قطعه حلوى لذيذة في جوف حلقه.

- سهاد. آه... ياسهاد. إنها دنيا... دنيا... كاملة...
- غريب. إنه يأبى أن يتوقف. بالرغم من...

خرج محمد من أحلامه. وإلتفت نحوه، بعدما خفف من سرعة السيارة.

- مع أن الجرح لايبدو عميقاً.
- الجرح؟ صار جرحاً؟ قبل هنيهة قلت إنه خدش... خدش بسيط.

أخرج يونس مرآةً صغيرة من الصندوق. ولكن الدم السائل لم يدعه يرى بوضوح عمق الجرح ولا مساحته.

تألّم محمد إذا أبصر الصفرة قد بدت على وجه يونس.

- إسمع يا يونس. من الأفضل أن آخذك الى المستشفى...
- وأمي؟ إنتفض يونس

أجاب محمد:

- تعود إليها بعد المستشفى.
- لا. لا... أن قلبها تعبان وأخشى أن...

لم يملك محمد نفسه من الضحك.

- مازال بوسعها أن تتعب وتتلف أيضاً قلوب ثلاثة رجال... آخرين.

ضحك يونس. كذلك إذ تذكر أن زوج أمه الثالث قد توفى قبل بضعة أيام وبمرض القلب بالتحديد. قال محاولاً تغيير مجرى الحديث.

- لو تسرع يامحمد... ماذا جرى لك؟
- الى المستشفى؟
- لا. لا. الى البيت... الى أمي أولاً...
- أمك على مايرام... صدقني.
- لابد أن أراها... أولاً.

أصرّ يونس. وأضاف متوجعاً:

- إنها أميّ... يامحمد... أميّ.

* * *

أمام الدار، كان ثمة حشد من الناس، وسيارة إسعاف. شاهدا الأم فوق نقالة يحملها رجلان بملابس بيض. ففغر محمد فاه وقال بدهشة:

- كأنَّ الأمر جاد هذه المرة.

سحق بقايا سيجارته بينما صاح يونس راكضاً نحو أمّه وكفّهُ على صدغه الأيمن:

- أمي.

فتحت الأم عينها بوهن... سمع يونس صوتاً أشبه بالأنين، مشبعاً... بالحنان:

- يو...نس... ولدي... حمداً لله... إنك جئت... قبلما...

ولم يدعها الرجلان تنهى بقية كلامها.

- آه... دعوني... أودع أبني الوداع الأخير... يا...

أهمل الرجلان إحتجاجها ودفعا بها الى السيارة...

صرخ يونس وهو يشق طريقة بين الناس المتجمهرين:

- أمي.

وسمع صوتها ترد عليه قبلما يغلق الرجلان باب السيارة:

- إنه ابني... يا قساة... ابني...

ثم إختنق الصوت.

في هذه اللحظة خرجت فاطمة من البيت. حاملة حقيبة منتفخة.

- تأخرت يا يونس... تأخرت كثيراً.

قالت ذلك وهي تسرع نحو السيارة وتتخذ مكانها الى جانب السائق، وإذ إستقرت وإلتفتت نحو أخيها... صرخت بهلع...

- يونس... وجهك مدمّى...يو.

وإنطلقت السيارة سرعة... ولم يسمع يونس بقية كلامها... ولكنه انتبه الى

أن يده قد تراخت عن خده وأن المنديل قد سقط من بين أصابعه. وأن منبّه السيارة يصرخ ويولول وينشر عويلاً متقطعاً. سرعان ما خفتَ وتلاشى:

– يونس... يونس...

– ها...

– الدم... لايزال يسيل... يايونس.

– الدم؟

وإصطبغت أنامله بالدم. أسرع محمد الى سيارته، ليعود بكمية من المناديل. قال وهو يقدمها له.

– لماذا... لاتدخل البيت وتغسل وجهك و...

– أسرع بي... الى المستشفى يامحمد.

ألقى محمد نظرة خفية على ساعته... أضاف يونس بحرقة وتوسل.

– لعلي أحظى بالنظرة الأخيرة... يامحمد.

لم يجد محمد ازاء عمق نبرة يونس وحرارتها إلا أن يطأطيء رأسه ويذعن.

– هيا... يايونس... هيا.

ألقى يونس المناديل التي تبللت ولم تعد تجدي. وصعد السيارة. وما أن إستقر. حتى مدّ يده نحو علبة المناديل.

– آه... فرغت العلبة والدم لايزال يسيل.

والتقط الخرقة التي يمسح بها محمد زجاج السيارة.

– لا. لا... إنها غير نظيفة.

صاح به محمد. وأخرج من جيب سرواله منديلاً. قدمه له دون أن يلتفت نحوه.

– خذ... خذ... منديلي.

أضاف بعدما إستدار نحو اليسار.

– يُستحسن أن نبتاع علبة جديدة.

– أخشى أن نتأخر على أمي يامحمد. أرجوك لاضرورة.

إخضلّ المنديل، حتى بات بوسعه أن يعصره. إضطر أن يخطف الخرقة التي

حذره محمد منها، حين أحس بالدم اللزج الدافيء ينحدر على رقبته:

– محمد... لماذا لاينقطع هذا الدم؟

– مندهش... أنا الآخر مندهش.

قال ذلك وزاد من سرعة سيارته. قال يونس بضعف شديد:

– لاتسرع... أرجوك.

– ينبغي أن نصل المستشفى بأسرع وقت وإلا...

– أشعر بدوار... دوار شديد...

قالها بصوت لايكاد يسمع.

خفف محمد من سرعته وإلتفت نحوه... كانت الصفرة قد غزت وجهه.

– ليس الى هذا الحد. وإلا فاتك الموعد.

إبتسم يونس. حاول محمد أن يكون لامبالياً:

– كل مرة أنتظرها ساعات وساعات. لتنتظرني هذه المرة بضع دقائق.

سكت. أشعل سيجارة، برقت في ذهنه، مع الأنفاس الأولى التي راح يمنحها من سيجارته بلذّة، فكرة.

– يونس لماذا لاتضع الرماد فوق جرحك؟

ولما لم يتلقّ جواباً. إلتفت نحوه:

– يونس.

إلا أن يونس لم يجب. بدا كالنائم على معقده. صاح محمد بهلع:

– يونس... يونس

جفل يونس:

– ها؟ وصلنا المستشفى؟

– سنصل يا يونس. إطمئن... سنصل سريعاً وسيكون كل شيء على مايرام.

قال يونس ونبرة ألم تسري:

– ترى من أين لي كل هذا الدم الغزير؟ كأني أرنب مذبوح بعد جرى طويل.

– ألا... يوجعك...؟

- البتة. الغريب إنه لايوجعني البتة. لماذا لاتسرع بعض الشيء، قد أحظى منها بالنظرة الأخيرة.
- حسناً... حسناً.

وأدَ محمد فكرة الرماد فوق الجرح، إذ لم تجد صدى عند المقابل إمتلأ حلقه بالمرارة رمى السيجارة وزاد من سرعته.

حين وصلا المستشفى. لم يقو يونس على النزول من السيارة وحده. تحامل على محمد... وسارا معاً.

في صالة المستشفى تراخت ذراعه اليمنى التي كانت تطوق محمداً ووجد نفسه يتكوم عند قدميه.

صاح أحدهم:

- على المصطبة... مدده على المصطبة... هيا... يا إخوان... هيا... وإمتدت أكثر من يد.

حملوه مددوه على معقد خشبي طويل.

- الطبيب. لينادِ أحدكم الطبيب.

تفرّق بعضهم. وأسرع أكثر من واحد بإتجاهات مختلفة.

- يونس... آه... يونس. إفتح عينيك... يونس.

وتناهي الى أذن محمد صوت فاطمة، من الممر الجانبي.

- دكتور... كيف حالها الآن؟
- بخير... إجتازت الأزمة بسلام. بوسعك أن تدخلي.

أسرع محمد نحوه، أمسك بكلتا بديه، يجره نحو يونس جراً. وهو يتوسل:

- دكتور أرجوك. الحالة خطيرة جداً.

تساءل الطبيب، إذ رأى الدم: ارتد الطبيب:

- طعنة سكين، أم...؟
- لا. جرح نفسه بالشفرة.

وأضاف محمد بسرعة، خشية أن يتصور الطبيب أمراً آخر:

- أثناء الحلاقة دكتور.

آنذاك فقط هدأ الطبيب وقال بدهشة:

- معقول؟

أمسك رسغ يونس. فتح إحدى عينيه المغلقتين.

- مع شديد الأسف. فات الأوان. (ترك اليد تسقط).

جمد محمد في مكانه، مذهولا ً. أخرجته من ذهوله دقات ساعة المستشفى. لم يعرف عددها. ولم ينظر إليها. أسرع الى سيارته أدار المفتاح. وإنطلق مسرعاً.

لم يجدها في المكان الذي إتفقا عليه. توقف. أطفأ محرك سيارته تلفت يمنة ويسرة. بقلق مشوب بغضب مكبوت "حقيرة تصلبني ساعات. وحينما أتاخر عنها بضع دقائق... تتركني..."

وإذ همّ بتحريك سيارته لمحها مقبلة من بعيد.

وقفت عنده. إبتسمت:

- آسفة. حبي. تأخرت.

وأضافت من خلال إبتسامتها التي إتسعت.

- كالعادة.

قال باقتضاب وبلهجة آمرة:

- إصعدي.

وأشار الى الجانب الآخر من سيارته. ثم أدار المفتاح.

- لاتقطب. إبتسم على الأقل. مكروه. إنها ساعة وحسب.

زمجر:

- إصعدي.

ماتت الابتسامة على شفتيها. وفتحت الباب. تراجعت حين رأت الدم على المقعد وعلى أرضية السيارة.

- ما هذا؟ هل قتلت أحداً؟

جرّها الى الداخل بقوة. جلست على المقعد الذي كان يشغله يونس قبل هنيهة، بحذر شديد. مخافة أن تتلطخ ملابسها أو حذاؤها بالدم. دمه... دم يونس.

بعقوبة ١٩٨٧

البيت

دخلت الأم المطبخ. فوجئت بإبنها واقفاً أمام النافذة، يتطلع عبرها الى المطر المنهمر في الخارج، سألته بدهشة بالغة:

- ما الذي أيقظك مبكراً، يا علي؟

توجهت نحوه غير منتظرة جوابه. وهي تقول برجاء وأمل:

- لاتقل إنك تزمع العودة الى القرية. مثلما فعلت في العام الماضي. قطعت إجازتك وهربت.

- لا، هذه المرة سأقضيها هنا. معكم في البيت.

وإلتفت تجاهها وعلى شفتيه إبتسامة باهتة. هالتها عيناه...

- عيناك محمرتان... كأنك لم تنم. و... ووجهك شاحب... ماذا بك ياولدي؟ هل أنت مريض؟

أمسكت بكلتا يديه بين كفيها. قلقة مضطربة:

- يداك الناحلتان باردتان. لماذا لم تشعل المدفأة. كيف تتحمل هذا البرد القارس؟ لحظة... لحظة أشعلها الآن.

وبينما هي تبحث عن علبة الثقاب إقترب منها علي. وقال بعد تردد قصير، مشيراً الى الغرفة العليا.

- أمي... الى متى تمكث عندنا... هـ... هناك.

- تعني... في غرفتك...؟

تساءلت الأم. توهج عود الثقاب بين أصبعيها وراحت تشعل المدفأة النفطية... المنتصبة وسط المطبخ. أطرقت قليلاً تصغي لهاجس الخوف الذي أخذ يتحرك داخلها.

- أتنوي مبادلتها بغرفة... أختك... شير... شير.

طفرت من عينها، في غفلة منها. دمعة جموح قطعت كلامها. فأسرعت تمسحها بطرف ردنها حريصة أن لاتدع إبنها يراها:

- لا. لا. أبداً.

أجاب بنبرة قاطعة تقطع شكوكها التي غزتها بلا أي مبرر وتمنعها من الإجهاش بالبكاء على عادتها، لكنها تذكرت أبنتها الوحيدة، وإسترسل يطمئنها موضحاً:

- إذا كنت لا أطيق وجودها في غرفتي، فكيف أستيسغ إستحواذها على غرفة شيرين التي إنطفأت في عمر الورد.

وندم على العبارة الأخيرة التي فلتت منه، في غمرة إستسلامه، رغماً عنه، لطغيان عواطفه وأحزانه، إذ ايقن إنها ستفجر آلامها وأوجاعها المكبوتة، فتنسجها حديثاً مبلولاً لاينقطع ولا يتوقف. لاتقطعه ولا توقفه إلا دموعها التي ستنهمر وتطغى عليه. وسرعان ماوقع ماكان يخشاه.

- سبع سنوات يا علي. سبع سنوات وبضعة أيام لم تتعد الأسبوعين و... و....

شهقت مختنقة بالدمع.

أطلقت آهةً حّرى... آه... آخ...

أشاحت بوجهها سارحة بنظراتها الى الخارج، الى السماء التي ترسل دموعها مدراراً... وبغزارة تحسدها عليها، من غير أن يحاسبها أو حتى يلومها أحد وسمعها تسأل نفسها، بصوت مّتشنج... متقطع!.

- هـ... هل ضاعت... ط... طفلة في مثل هذا العمر؟ مستحيل. حتى المياه المجنونة... الغاضبة لاتقتلع زهرة يانعة من جذورها في يومها السابع.

لشدة تعلقها بإبنتها التي هلّت عليها بعد إنتظار طويل. قاس ممض، بدا كما... لو كان عقماً ابدياً إستغرق سنوات طويلة. كانت تعد عمرها بالأيام. أمس كان عمرها كذا. واليوم كيت. وغداً يصبح كذا ومع أن الأيام راحت تتكوم لتستحيل شهوراً وسنوات. فانها لم تقلع عن عاداتها ظلت الأيام عندها... تطغى على كل ماعداها. ولم يعد الزمن في نظرها غير أيام. مجرد أيام قلائل قصار. تنقضى هي الأخرى كما الومضة تمتمت دون أن تستدير نحوه... بصوت مسموع:

- بعد... أيام... تبلغ العشرين.

لم ينطق علي... ظل ساكتاً... يستمع الى دقات قلبه الواجفة.

في اليوم الأول من إجازته السابقة "وقفت امامه تتأمله. تتفرس فيه كأنها تراه للمرة الأولى: سبحان الله كأنك هي..." لم يقل شيئاً. لم تبال بصمته "هي الآن في مثل طولك. ربما تقصر عنك قليلاً. وذلك لأنك تكبرها بضع سنوات. بيد أن لها... نفس ملامحك، الحيية الخجول. ولكن الصارمة والواثقة وقت الجد ونحافتك أيضاً. أنت حينها كنت صغيراً. صغيراً جداً... لاتتذكر شيئاً، لم يطق صبراً، إنفجر: "حينها. كنت في الرابعة عشرة. ولم أكن صغيراً. وأتذكر كل شيء. كل شيء يا أمي... فلا تدمي قلبي..." وتراجعت، مكسورة القلب مخذولة "حسناً... حسناً... لاتصرخ... أنت الآخر مثله، مثل أبيك. تهيج وتثور. بلاسبب. لابأس... لن أعود الى ذكرها... ثانية".

ولكنها عادت. مرات ومرات. حتى ضاق بها. ضاق بالألم الذي يمزقه. كلما سمعها تتحدث عنها... فحمل حقيبته وعاد الى القرية... يقضي إجازته بين المرضى من مراجعيه الفلاحين القروين في المركز الصحي.

"ولكن... لا... هذه المرة لا. لن أعود... قبلما".

- علي... كررته ثانية... علي.

َرنا إليها. كانت قد كفكفت دموعها وتوجهت إليه بكلّها أدرك إنها بصدد أن تقول له شيئاً يعرفه، ولا يود سماعه وهمَّ أن يمنعها. ولكنه لم يفعل. وجد الأمر فوق طاقته. قاسياً، لاإنسانياً. هي تنتظره يوماً. يوماً... ساعة. ساعة... لتشكو إليه. هو دون سواه. همومها وأحزانها. التي لاتجرؤ على ذكرها أمام زوجها الذي سرعان ماينهرها. وتعود الى نفسها تجترّها وحدها. فتفقس أحزاناً مضاعفة لاحد لها. ولا قبل لها بتحملها.

ألفى نفسه، يستجيب لها ويقول بهدوء تام:

- نعم... يا أمي.

لهنيهة ظلت مشتته، مترددة. ثم لملمت نفسها وتغلبت على ترددها:

- أقول... هل بالإمكان... إذا. إذا كان لايضيرك. أن... أن نفاتح أباك لعله

يوافق أو... أو لايعارض أن يقيم حفلة... عيد ميلاد....

وكاد ينفجر ويصرخ بها... حفلة عيد ميلاد لمن... للميتة؟ ولكنه ضبط نفسه في اللحظة الأخيرة، وتساءل بدهشة وإستنكار:

- حفلة عيد الميلاد ؟

- لا... لايذهب بك الخيال بعيداً - حفلة صغيرة. على قدر الحال. تقتصر على الأصدقاء والأحباب... فقط... فقط لو يوافق أبوك.

إعتصر الألم قلبه بشدة. رددت أرجاء نفسه صدى صرخة خرساء مكتومة إنشقت من أعماقه "يا إلهي... ماذا أفعل... هل احمل حقيبتي وأعود...".

- ولكن الحاج لايوافق... انا أعرفه. قاس هو أبوك يا علي... قا... قا....

وإختنقت بالكلمة. كأن يداً خرافية أطبقت فيها. وألقتها في دوامة من الحيرة والإرتباك.

- لا... لا ياعليّ - عليَّ اللعنة... لاشك إني أهذي... آه... ان أباك إنسان رائع. نادر المثال. عاقل وحكيم... أرجوك. أرجوك إنس كل ماقلت... لاتأخذ هذياني مأخذ الجد... آه... إنها الحالة الغريبة التي تتلبسني. كلما تذكرتها. تفقدني عقلي... تطلق لساني بما لاأعيه... ولا أعنيه... لاأعينه بتاتاً يا علي.

إحتضنها علي مشفقاً ومواسياً. وراح يقبلها محاولاً التخفيف عنها، بيد إنها لم تكن قادرة ان تغفر لنفسها زلة لسانها... فظلت تهدر:

- أبوك علي. ابوك تهمّه سعادتي. سعادتنا جميعاً... ولا يفكر إلاّ بها... و... ويقول إنها لاتتحقق إلا بالتخلص من الوهم... بـ... بـ التحرر من عبودية الوهم ذلك مايقوله بالضبط.

- صحيح يا أمي الحبيبة. ما يقوله صحيح جداً. الوهم سراب في صحراء حارقة... يلهث وراءه الظمآن، متشقق القدمين، متشقق الشفتين ولا يعود... بغير الخيبة. فارحمي نفسك من هذا العذاب الذي تعيشينه منذ سنوات.

إنكمشت على نفسها... وهي تقول بإنكسار، غير مصدقة:

- و... وأعيش عذاباً أقسى وأمرّ. عذاب واقعٍ خالٍ من... من شيرين...؟

- شيرين غابت يا أمي. خَلَت منها حياتنا. تلك هي الحقيقة. يجب أن تقتنعي بها رغم مرارتها. وتردمي ينابيع الألم التي يفجرها الوهم في أعماقك ويجددها على الدوام.

ظلت تحدق فيه بعينين تبرقان أو بالأحرى تعكسان بريقاً غريباً. كما لو كان صادراً من كرتين زجاجتين لاحياة فيهما ووجهها الناحل بارز العظام، قد غدا، على حين غرة، أكثر نحولاً، وعظام وجنتيها أكثر بروزاً وحين شدها إليه. بدا له إنه يحتضن هيكلاً عظيماً في ثوب فضفاض لو حُشيَ بضعفه لما إمتلأ.

داهمة فجأة حزن عميق. من نوع غير مألوف. لم يألفه من قبل ولا جرّبه. ترى هل تجاوز الحد وصار أقسى من الوهم والسراب اللذين يحذرها منهما؟ أشد توحشاً و... ومرارة من واقعها الذي تهرب منه وتلوذ بالوهم والسراب؟

تصلب هنيهة ثم قال في نفسه "ليكن... حتى الموت نفسه، بالرغم من كل قسوته ولا إنسانيته، يكون أرحم، حين يقبل دفعة واحدة، من أن يظل ينساب في الحلق جرعة... جرعة بصورة يومية، تنتظم العمر كله كما الحال معها".

كانت هي بين ذراعيه، تصغر... تتضاءل. وإذ إنسلت، لم يكد يشعر بها إلاّ حين سقطت ذراعاه على جانبيه. ورآها تبتعد، تسير نحو الموقد المحشور في زاوية المطبخ - دون أن تنبس ببنت شفة غارقة في همها... في بحر أفكارها، حيث تتقاذفها أمواجه العاتية:

أإليَّ... إليَّ يوجه مثل هذا الكلام الغريب وهو الذي ظل يطوي الليل والنهار عند النهر... شد نفسه حتى بات جزءاً منه... يخوض فيه أو يحرث ضفافه، باحثاً عنها بجنون، من محلة ئازادي حيث وقعت البنت الى قصبة تازة التي عندها يتشعب نهر (خاصّة) وتضيع مياهه ولا يعود سوى مجموعة سواقٍ ضحلة المياه مكشوفة الأحشاء لو سقط فيها مسمار لعثر عليه الطفل. وحتى بعدما... ذابت ثلوج الجبال وتسربت مياهها هنا وهناك وتوقفت سيول الربيع. وجّف النهر وعادت أعماقه. كما هي معظم أيام السنة. احجاراً ملساء تلمع تحت شمس حزيران وتموز وأكوام رمال تتوزع طولاً وعرضاً. لم يفارق علي النهر، أخذ يقضي جلّ نهاره في مقهى (روبار) ومعظم ليله في نادي المعلمين الواقعين على النهر. لماذا هذا المقهى وهذا النادي بالذات دون سواهما مع أن

كركوك مدينة فسيحة... واسعة تمتليء بأمكنة أكثر راحة؟ اليس لأنه هو الآخر كان يتوقع ظهورها... أو سماع خبر عنها.

قالوا الجثة لاتمكث في النهر إلاّ يومين أو ثلاثة. ثم تنتفخ وتطفو فوق سطح الماء فيراها القاصي والداني، ولكنهم ذرعوا النهر وعلى مدى عشرات الأيام ولأبعد المسافات بمئات العيون. عيون لاتغمض. لاتكلّ ولا تتعب. تُستبدل وتتجدد كل بضعة ساعات وما أكثر العيون الوفية، المخلصة، الصادقة التي تطوعت، لقد إستحالت كركوك كلها عيونا لاتنام تبحث ليل نهار عن شيرين. ولكن شيرين لم تظهر لم تطف على وجه الماء لم يراها الداني ولا القاصي. ذلك يعني بكل تأكيد أنها حية... وأنها لم تتحول الى جثة وأن أحدهم قد أنقذها... وهي عائدة الى بيتها لامحالة... لامحالة.

فتحت الصنبور لتملأ القوري. فتدفق الماء بقوة ضاجاً، ضاجاً مليئاً بالطين. يوم النحس ذاك. أيضاً كان نهر خاصة... شاذاً ضاجاً وصاخباً. مياهه الهائجة تتدافع طبقات من الطين والغرين... آه أيها النهر العتيد أيها الشائخ العجوز يامن تقطعت عروقك ولم تعد غير أخاديد محفورة في الأرض. يامن نشف ريقك وغداً أتربة ورمالاً ويبس لعابك وإستحال حصىً وأحجاراً. كيف فاض بك الغضب يوم الشؤم ذاك. وتقيأت كل تلك السيول العارمة، المتهورة المجنونة ولفلفت زهرتي اليانعة في طوفان فيئك البغيض الكريه... الذي ظل يندلق أياماً وليالي.

عاع... عاع... عوع... عوع... عووو عاعا.

– أمي... ماذا بك؟ أمي.

وإنتبهت... أنها قد سهمت عن نفسها. وراحت تطلق أصوات من يتقيأ فعلاً. قالت... بلا مبالاة:

– خيل الي إني أبتلع كمية من النمل.

– النمل؟

تساءل بإستغراب وهو يدفع قوري الشاي. بعيداً عن مسقط الماء الطيني المتدفق من الحنفية. تمّهل بعض الوقت. ريثما صفا. وأخذ ينساب شفافاً...

رقراقاً. غسله جيداً ثم ملأه. ووضعه فوق الموقد الغازي. أضرم تحته النار وإستدار نحو أمه.

– لم تقولي شيئاً... بشأن...

– بشأن غرفتك؟

قاطعته. ألقت بالمنشفة التي كانت تجفف بها وجهها على أحد المقاعد:

– ليست في البيت غرفة فارغة ياعلي.

إختضّ علي، خضته العبارة.

إنها العبارة نفسها التي أطلقتها على ابيه. حين قال لها ذات مساء. "وفاء كبرت يا زينب وليس من اللائق أن تنام معنا في غرفتنا"، كان واضحاً إنه يلمح الى غرفة معينة ردت بإنفعال "ليست في البيت غرفة فارغة يا حاج" ولكن الحاج أصرّ. كاشفاً عن نيته "بل هناك. لننتقل الى غرفة..." ولم تدعه يكمل. صرخت بحدة وبلاترو "لا" وأبصر هو الغضب في عيني أبيه يشتعل. فأسرع يقول "لننتقل الى غرفتي. أنا أشغل غرفة أختي" وكان أن كافأته أمه بنظرة مليئة بالإمتنان... لاينساها... أبداً.

أمسك بها علي من كتفيها برقة...

– أرجوك يا أمي... لاتسييء فهمي... إنا لا أطيق وجودها في البيت برمته... في الدنيا بأسرها... إنها...

– علي... أشفقْ على أمك. ولا تخلق مشاكل مع أبيك... ينبغي أن لايسمعك وأنت تتحدث عنها على هذا النحو.

– بل ينبغي أن يسمعني لابد أن يسمعني.

– لاتضعني بين فكّي رحا... يا ولدي. أرجوك دع الأيام القليلة التي تقضيها في... البيت... تمضي بسلام.

أدارت له ظهرها وراحت تشغل نفسها بإعداد الشاي وتهيئة الفطور هي الأخرى برمةُ بها ولا تطيق وجودها ولكن ماذا بوسعها أن تفعل وكل ماتفعل يرتد إليها مشاكل وخصومات بعدما يصطدم بالرجل الصخرة الذي لايلين.

– يا أمي، فكرّي معي. إذا كان ثمة مبرر لايوائنا إياها، حين كانت طفلة

رضيعة... بريئة... بلا أحد. فإنها لم تعد الآن كذلك. وبقاؤها عندنا يسيء إلينا... وهي ليست بحاجة إلينا... ولا ...

– ونحن أيضاً لسنا بحاجة إليها.

زعقت بحدة:

– لم نكن يوماً بحاجة إليها.

– إذن ما الأمر يا أمي... ما السرّ؟

تساءل علي بهدوء.

صرخت الأم وقد بلغت قمة إمتلائها بالغضب والعجز:

– الأمر عند أبيك... السرّ عند أبيك. أووه... الى ماتقودني ياعلي...

ومع الدقة الأولى للساعة المعلقة على حائط المطبخ دفعته عنها:

– دعني... دعني أوقظ أباك. إنها الثامنة.

وإندفعت خارجة وهي تضيف في إنفعال شديد:

– الى متى يظل نائماً؟

وصفقت الباب خلفها بقوة. جعلت ضلفة الباب ترتد... وتنفتح ثانية. من غير أن تشعر. تاركةً إياه في حيرة مغلقة.

وفي حالة غضب عارم شمله. سحق. تحت قدمه صرصراً طائراً. أسود كبير الحجم إقتحم المطبخ من فتحة الباب وإلتصق برجله اليسرى. أحاله الى مايشبه بصقة ملوثة على مفرش المطبخ. تقزز من مرآه. إقتطع قصاصة من الجريدة المفروشة فوق منضدة الطعام. لف بها بقايا الحشرة القذرة وألقاها خارجاً... ولكن ريحاً عاصفة... مشبعة بزخّات من المطر... إعادتها الى الداخل. بحث عنها هنيهة. لم يعثر عليها ولم يشغل نفسه بها طويلاً... "ستكنسها أمه... مع النفايات وفضلات الطعام..." أهمل أمرها تماماً.

كانت دفقات المطر تصفع زجاج النافذة بقوة. طيلة ليلة أمس لم يتوقف المطر وسيتواصل هطوله اليوم أيضاً. فالغيوم السوداء لاتزال تغطي السماء. "أحسن".

قال في نفسه سيكون ثمة متسع من الوقت للحديث مع أبيه. فلا أحد في

مثل هذا الجو المشحون بغضب السماء، يغامر بأعمال البناء وما شابه. فكّر... وهو يرنو الى شجرة الصفصاف العريضة التي تتلاعب بها الرياح العاصفة تهزها يمنة ويسرة حتى لتكاد تقتلعها من جذورها... وليتها تفعل. مانفع هذه الشجرة الثرثارة، الصاخبة البدينة في الوقت الذي كسرت الرياح، ليلة أمس. شجرة البرتقال الفتية الشابة. التي زرعها أبوه. يوم ولادة شيرين والتي كانت مثقلة بثمار تلتمع... تتراقص حين تداعبها الرياح... مثل كرات مغسولة من الذهب.

إرتد عن النافذة إذ لمعت السماء فجأة. وقذفت بلسان نار، مثل تنين خرافي... وأعقبه هدير... إهتز له البيت.

"السر عند أبيك... الأمر عند أبيك".

دوت في أعماقه الصرخة التي أطلقتها امه. والتي كان يحاول جاهداً أن يغلق أذنيه دونها... أن يتجاهلها. وبرق في ذهنه ماقالته ذات مرة "أبوك – لايستطيع... التخلي عنها" فإختلطت معه وتداخلت... أوقعته في عجز ذهني... تام... إحتدمت في نفسه رغبة شرهة الى الدخان. وحين وضع السيجارة بين شفتيه وقرب رأسه من المدفأة. أحس بالجوع، يعصر معدته وخشى أن يحدث له مايحدث كل مرة. عندما يقذف بالدخان المر على معدة خاوية فتجرفه نوبة سعال لحوح. ثم تسلمه الى الغثيان والتقيؤ وتشرع سكاكين حادة تمزق أحشاءه وتسيلها سائلاً أصفر... داكناً... متدفقاً من فيه مصحوباً ومتبوعاً بآلام وأوجاع... وأقاويل وإتهامات باطلة... "لقد أفرط في الشراب".

أعاد السيجارة الى العلبة. وقرر أن لايدخن قبلما يلقي في جوفه لقمة، شعر بدوخة في رأسه. وبتشتُّت في أفكاره. وإنعدام القدرة على التركيز... نفد صبره ولم يقو على الإنتظار لحين تناول الفطور معهم. صبَّ قدحاً من الشاي. غمس فيه قطعة من الخبز وإقتطع بأسنانه جزءاً صغيراً منها وأخذ يلوكها في فمه بهدوء.

أثار المذاق الحلو للشاي الحار شهيته الى السيجارة وهيجها. تكرمشت بضع شعرات في رأسه وحاجبيه حينما قرب وجهه في فتحات المدفأة. لم يبال، إكتفى بفركها وراح يمتص أنفاساً عميقة من سيجارته ويطلقها أدخنة متداخلة

الحلقات حيناً منفرجتها حيناً آخر.

عادت الصرخة تدوّي. مامعنى إنه لايستطيع التخلي عنها؟ ومتى كان الحاج شكر علي القوي، الصارم المعتد برأيه. خاضعاً لقوة غير قوة عقله وإرادته؟ أيكون... الحاج وقع في... في... ويفكر بـ... بـ وخذلته شجاعته لم يجرؤ على تلفظ أي من الكلمتين. بل أسرع بنفيهما معاً. بيقين وجزم "مستحيل" الحاج رجل تقي ورع. لايمكن أن يخرج على العرف أو يفعل مايخالف الشرع، "إنها كارثة لو وقعت من شأنها أن تعصف بالبيت وتقوّض أركانه على رؤوسهم جميعاً. على رأسه أولا ً لا. لا. مستحيل" إمتلأ حلقة بالدخان "إنها حماقة حماقة كبرى... بل... بل جريمة كبرى... لايمكن أن يقترفها الحاج..." نفث الدخان... سحابة مفتتة محلوجة إذن ماذا في الأمر؟ ما سر هذا التعلق الغريب بها وهي لاتمت إليهم... بصلة.ألا يعرف حقيقتها وقد باتت سيرة سيئة على كل لسان؟

أبوك كان خارجاً من الجامع، بعد صلاة العشاء والتراويح. قالت له أمه حينها بكل صراحة وحدها ملقاه على عتبة الباب، ملفوفة بخرقة قذرة. ملطخة بالدم وعويلها يقطع نياط القلب. فأشفق عليها وجاءبها الى البيت ترضع مع أختك ثم راحت تصب لعناتها على من سمتهم بالزناة والمجرمين الذين لايتقون الله ولا يخشونه ويلقون بثمرات آثامهم على أعتاب بيوت الله. مستغلين طيبة مرتاديها ونقاء سرائرهم. وهو في سنواته السبع إذ ذاك لم يستطيع أن يجد أي تفسير لهذا الحادث... البشع الغريب وظلت الطفلة الجديدة موضع عنايتهم ورعايتهم جميعاً. تأكل وتشرب، تحيا وتكبر مع شيرين دون تفريق أو تمييز. ولم يكن ثمة مايعيبها سوى محاولا تها الدائمة للإستحواذ على لعب أخته مع إنها تمتلك مثيلاتها. وأيضاً مالاحظوه جميعاً من إنها كثيراً ماتعود من... بيوت الجيران. بحاجة ما. قد لاتكون ذات قيمة. زاعمة إنهم أعطوها إياها بينما تؤكد شيرين إنها إستولت عليها بالبكاء والإلحاح أكثر الأحيان و... وبالسرقة أحياناً أخرى. ولم يكن العقاب الذي يفرضه عليها الأب، بالرغم من قسوته في معظم الحالات. ليردعها كثيراً، إلا أن الأمر الآخر الذي أقلقهم جميعاً وتصدى له الأب بحزم هو فشلها المتكرر في الدراسة

وهروبها شبه الدائم من المدرسة. ولكن أيضاً. من غير أن يحقق معها نجاحاً يذكر فقد كانت الصبية في عناد البغل.

أشعل من عقب سيجارته سيجارة جديدة وراح ينفث دخانها.

علي لم يحبها ولكن أيضاً لم يكرهها إلا بعد مافعلته بشيرين... آخ... شيرين لقد كانت إنسانة أخرى، قطعة كريستال، صافية، نقية، شفافة... تشع على البيت بمهرجان ألوان من الفرح والذكاء. والأمانة والصدق... و...

صرّ الباب، وإمتلأت فتحته بقامة أبيه - ملتفاً بمعطفه الأسود السميك تتبعه أمه. أطفأ سيجارته بسرعة وقدم له الكرسي الذي كان يشغله وجلس قبالته. إنهمكت الأم في عملها. عند الموقد تسترق السمع وتتلفت نحوهما بين آونة وأخرى. هاهما معاً... وجهاً لوجه... وبينهما ثالث غير مرئي ولكن محسوس... يهيمن عليهما... بحضوره المتوتر المشحون بنذر عاصفة... على وشك... الإنفجار.

أخذ الشاي يغلي. مع أن النار التي تحته هادئة. خففت من النار ماتستطيع كي تمنع... فورانه الذي يفسد مذاقه. إنهما لايزالان صامتين ساكنين ولكنها متأكدة إنهما... يفوران من الداخل. مثل ديكين ينتظران الفرصة الملائمة للوثوب وبدء المناقرة. لماذا لايبادر أحدهما بالكلام. إن هذا الصمت الغاضب الجاثم بينهما يقلقها. ليتكلما. فقد يحتكمان الى العقل ولا يكون الأمر بالسوء الذي تخشاه ولا تستطيع منعه.

لم يقل علي شيئاً. ربما بإنتظار أن يقول هو شيئاً. بيد أنه لم ينطق هو الآخر ربما للسبب نفسه ظل مسيجاً بصمت أكثر سمكاً من المعطف الذي يلفه حول جسمه. ولا تتحرك منه سوى أصابعه المتشققه. المبيضة من آثار الكلس. وهي تداعب المذياع الصغير الذي أخرجه من جيب معطفه وتصدر عنه خرخشه غير عالية. ترى هل أفضت إليه أمه بشيء. ليتها فعلت. فإن ذلك من شأنه أن ينقذه من مشقة البحث عن مخرج من هذه الحيرة التي تسوّره.

- هيا... هيا... كلا.

قالت الأم وإتخذت مكانها بين الرجلين. وراحت تملأ اقداح الشاي... أخرَسَ الأب الخرخشة غير النافعة. ظل علي يداعب سلسلة ساعته المعدنية دون أن

يتحرك أو حتى ينتبه لأمة وهي تحثه...

– هيا... يا علي... هيا ياأبني... مُدّ يدك.

– مع هذه السموم. هل بوسع أحد أن يأكل شيئاً؟

خرج الأب من صمته وهو يشير الى منفضة السجائر. ألقت الأم بمحتوياتها في سلة المهملات بسرعة. وتوجهت الى علي تعاتبه برقة.

– لم نصدق إنك تخلصت منها ياعلي. لماذا عدت إليها ثانية؟

وأسرعت تقدم بنفسها الجواب، على عادتها. أو بالأحرى... العذر له:

– لعلها... الوحدة هناك. الوحدة قاسية.

" لست وحيداً هناك. معي أناس رائعون. فلاحون... قرويون. طيبون والطبيب نفسه... رائع... وكلهم أصدقاء صميميون... ولكني وحيد هنا... هنا..."

أضاف الأب مداعباً... ولائماً في الوقت نفسه...

– وأية عودة. عودة رنگو الذي لايتفاهم. منذ الصباح الباكر وعلى الريق.

فندّت شفتاهما عن إبتسامة إنعكست على وجهه تقطيباً.

– دخنت ثلاثين سنة. قبلما أقلع عنه الى غير رجعة. ولم أضع في فمي سيجارة إلاّ بعد ماأشرب شاي الصباح وآكل شيئاً حتى ولو كان قطعة خبز يابس.

إذن فهو أو هما معاً. بإتفاق بينهما أو بدونه يرميان الى إبعاده عن موضوعه الأساسي ظل يحدق في قدح الشاي الذي شربه والذي لايزال فوق المائدة وحوله مافضل من قطعة الخبز الذي يأكله. لم يقل شيئاً. شعر بنفور شديد من كل حديث ليس في الصميم.

مضت فترة وهما يأكلان. عَلَت خرخشة المذياع ثانية حين عادت الأصابع المجصّصة تداعبه... لم تلبث أن صَفَتْ [القوات الصهيونية تحتل قرية في جنوب لبنان و...] قال الأب بغضب:

– لاتزال... هذه الدويلة سادرة في غيّها.

وأغلق المذياع بعصبية.

علّقت الأم:

– خلية سرطانية خبيثة. ينتهي بها الحال الى تلويث الدنيا من حولنا إذا لم تُقتلع.

– إذا لم تقتلع. ردّ الإبن. إذا لم تقتلع. كررها ثانية وهو يتأمل أباه.

أهمل الأب ماقالاه ولم يحفل بنظرات إبنه... تساءل وهو يشير الى المقعد الخالي.

– و... وفاء؟

– كعادتها. عادت متأخرة، وطلبت أن ندعها ترتاح.

– أميرة!!

قال علي. بصوت عال. وبإمتعاض. لم يعلق الأب ولا الأم. إنصرفا الى أكلهما.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. ألقت مع تحية المساء معطفها المبلل فوق الكرسي الألمنيوم في الصالة. سألتها أمه عن العشاء. أجابت بصوتها الممطوط... (تعشيت... خالة) خالة؟ كانت تدعوها فيما مضى... ماما... ومن يدري ربما نادتها فيما بعد بإسمها المجرد. لم لا؟ ألا تنادي مَنْ كانت تسمية بابا بـ... الحاج؟ ثم قالت شيئاً آخر لم يسمعه ولكنه سمع أمه تردد "حسناً... حسناً" هي الأخرى لم تقل يا إبنتي. كما إعتادت أن تقول دائماً. تلك علامة جيدة... لتتوضح الحقيقة لتوضع النقاط ينبغي. أن تكون.

– ألا تأكل شيئاً ياعلي؟

سيعقب هذا السؤال رفع المائدة. وإنفضاض الجلسة التي تجمعهم... معاً كانا يرنوان إليه في إنتظار جوابه. تناول قطعة جبن وراح يمضغها... إستعذب ملوحتها وأخذ يديرها في حلقه. مد يده الى علبة السجائر. مدفوعاً برغبة قوية ولكنه توقف. لم يعتد أن يدخن في حضرة أبيه. تناول بدل العلبة قدح الشاي. كان بارداً لم يستسغه ومع هذا فقد أفرغه في جوفه. فقد إمتصت الملوحة رطوبة حنجرته.

– أبي... أريد أن اتحدث معك حول البنت...

أجاب الأب بإمتعاض:

- إن للبنت أسماً يا علي. وأنا من أطلقه عليها... ويسوءني جداً أن تتجاهل ذلك وتتعامل معها كنكرة.

أجاب الأب بسرعة. كما لو كان الجواب مهيئاً منذ زمن.

قطع من الغيوم... سوداء... خفية شرعت تنطلق مع كل حكمة من حكماته التي ينطقها بهدوء وعمق... وتتناثر في فضاء الغرفة الصغيرة... وما أسرع ماتتجمع... وتنفجر رعوداً وعواصف وزوابع. أعنى من تلك التي لاتزال تلطم البيت من الخارج.

حبست أنفاسها. صامتة... ولكن ضربات قلبها المتصاعدة... المتعالية... أخذت... تخضها... قال علي بهدوء:

- أنت أطلقت عليها أسماً واحداً فقط. وهي الآن قد إنتحلت مجموعة أسماء. وليس بينها الأسم الذي...

قاطعه بسرعة:

- لا أحسبُكَ... تصدق كل هراءٍ تسمعه.

الولد يتهور - يقترب من أرض النار الخامدة. والحاج بعقله الكبير. يبعده بحذره... إبتعد ياعلي. فالأرض التي تدوس عليها بقدمين عاريتين ليست رماداً، كلها، إن تحتها جمرات نار. فحذار ياعلي... حذار... يا ولدي.

إسترسل علي بيقين:

- للأسف يا أبي... ليس هراء.

طائش أنت يا علي. طائش وأهوج.

إختضت. سقط قدح الشاي من يدها، خطفت المنشفة وراحت تمسح المائدة من آثاره وهي تردد: عفواً... عفواً... لكن أحداً منهما لم يحفل بها. كلاهما مندفع نحو منطقة النار بقوة شيطانية.

تساءل الأب:

- هل تحققت من الأمر؟

هذا الهدوء، الرصين، الرزين، يقتلها. إن تحته ناراً تشتعل... تتأجج. وحدها تعرف مداها وحدها التي إكتوت وتكتوي بها. وهو... هو... الأحمق الحبيب

يصبّ فوقها الزيت دون أن يرحمها.

أجاب علي برصانة:

- لقد تعلمت منك يا أبي أن لا أطلق الأحكام جزافاً. ومع هذا إذا كنت في شك اسأل البيوت التي تتسكع فيها. ولكنَ لاتسأل عن وفاء. إسأل عن بدور. أو عواطف... أو أحلام... أو...

وإندفعت الأم تقاطعه. نافذة الصبر:

- ما الذي تقول يا علي؟ لماذا؟ لماذا ياحاج؟

وتوجهت نحو الحاج... لكن علي هو الذي بادر:

- لماذا؟ تسألين... لماذا؟

وهمَّت أن تزعق به... لا. لست أنت من أسأل. أسأله هو. إن صمته المريب هذا يخيفني إنه يأكل نفسه من الداخل انا أعرفه. ليكفَّ... ويتكلم.

- لأنها هكذا... إعتادت منذ كانت صغيرة على سلب الناس أشياءهم لم تخرج من بيت دخلته إلا ومعها شيء منه.

- هم... كانوا يعطونها.

لم يكن جواب الأب دفاعاً عنها. ولا تبرئة لها. فهو قبل غيره إكتشف سرقاتها. ولكنه العناد الذي يركبه...حسب:

- ذلك ماكانت تزعمه هي... أما الحقيقة... فشيء آخر.

إلتهب وجه الأب. لقد بدأ الغيظ المكتوم يطفح على وجهه ويصبغه بذلك اللون الدموي المرعب.

- الحقيقة هي الحقيقة. ولن تكون شيئاً آخر إلاّ حين تنظر إليها بعين الحقد.

- الحقد؟ ماذا تقول يا حاج؟

صاحت الأم مستنكرة بشدة... بينما ظل الحاج في هدوئه الجيّاش بالغضب.

- إبنك يا زينب تكلّس عند حادثه النهر. عند الأوهام التي خلقها لنفسه... حول حادثة النهر.

- لقد كنت عند النهر ورأيت كل شيء بعيني. ولم تكن عيني - إذذاك على الأقل. عيناً حاقدة.

توسلت إليه أمه:

- إهدأ... يا علي... إهدأ يا إبني.

ولكن علي ظل يواصل:

- وإذا كانت حينذاك طفلة... لاتعي ماتفعل. ولا أحد يحملها جريرة أفعالها. فأنها لم تعد كذلك الآن. ولا بد أن تدفع ثمن كل ماتفعله... نادها يا أبي. نادها أواجهها بكل الحقائق في حضورك وحضور أمي...

أحسَّ الأب بالحصار حوله يضيق... وهو يكاد يختنق... والصمت لم يعد ملاذاً... آمناً... ولا حصناً منيعاً.

- تعرف جيداً إنها تنفر من وجودك. ولا تأتي مادمت هنا.

وهاجت الأم قبل علي:

- ومن تكون هي، يا حاج، حتى تنفر من وجود إبني في بيته؟

شعر علي بأن أباه قد ضربه بفأسه ضربة قاسية فوق رأسه. شقت في روحه جرحاً لايندمل. وفي كيانه شرخاً لايلتئم... قال بمرارة...

- قد تكون هي صاحبة البيت، يا أمي، ويتوجب عليَّ أن الغي وجودي وأترك لها بيتي تعيث فيه فساداً... مثلما تفعل في...

- علي.

صرخ الأب. ومع الصرخة المدوية. إرتفعت كفّهُ العريضة القوية. ذات الأصابع المتشققة والمتحجرة معاً. أمسكت بها الأم بسرعة. قبلما تهوى على وجه إبنها فتفتته. وهي تزعق خارجة عن طورها:

- حجي شكر. هل جُننت؟

وتخشّبت الكفّ الهائلة. الخشنة. كفّ البنّاء العتيد التي يقول كل من عمل معه إنه كثيراً مايستخدمها في كسر الطابوق والصخر بدل الفأس.

بَهُتَ علي. غارت الدماء من وجهه. تيبس في مكانه. لم يكن خائفاً. ولكن مصعوقاً. غير مصدق ماجرى. ثم أخذ يرتجف وهو يصر على نواجذه وقد إنعقد لسانه ولا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل. أطبق على علبة سجائره بأصابع متشنجة وراح يسحقها. وهو يسدد نحو أبيه نظرة مشحونة بالحنق.

تركها مفرومة على المنضدة. وتوجه بخطوات ثابتة نحو الباب دون أن يفتح فاه بكلمة.

تركت الأم اليد المرفوعة تسقط وهرعت الى أبنها. دامعة العينين.

- علي... علي يا ولدي.

ولكن علي كان قد أغلق الباب خلفه، وحين همَّت بفتحه. زمجر الحاج شكر دون أن يلتفت نحوها:

- دعيه!

تصلّبت في مكانها. يدها مطبقة على مقبض الباب. عينها مصوبة على الكائن الملفوف بالسواد. وقلبها هارب مع الولد الهارب من البيت. من غير أن تدري الى أين.

- لقد ضاعت مني البنت يا شكر. ولن أدع الولد يضيع. ولتبق وحدك معها في البيت. وعسى أن لاتطردك مثلما تطردنا... يا... يا ظالم.

وقبلما تدير مقبض الباب. كانت الكّف ذات الأصابع المتحجرة قابضة على ذراعها. وصوت أشبه بالزئير يصرخ بها:

- تعالى.

جرّها بقوة وأجلسها على مقعدها. صاحت الأم:

- فكَّ قبضتك عني... أنت تسحق عظامي.

وتراخت القبضة. بإحساس شديد بالألم وبنبرة مشبعة بالأسى قال:

- حتى... أنت... يا زينب.

- حتى أنا؟ ماذا تقصد يا حاج؟ وماذا فعلت أنا غير طاعتك حتى في أبشع أخطائك. منعتني عن ذكر أبنتي الوحيدة فأطعتك. أمرتني أن أصبح خادمة لمعدومة الأصل تلك. فصبرت. قلت لك يا حاج. البنت قد خرجت عن الطريق نهرتني. وسكت. فماذا فعلت حتى تحرقني بنار قسوتك. وماذا فعل ابنك غير قول الحق. حتى تطرده في مثل هذا الجو الذي لايطرد فيه الكلب.

- أنا لم أطرده... هو الذي...

- قم يا حاج. تعوذ بالله من شيطان غضبك. وقم الى إبنك لاتدعه يترك البيت من لك سواه ومن له سواك إنه عضيدك وسندك.

ولكن الحاج لم يتحرك. ظل جامداً في مكانه. لايتزحزح. مثل صخرة كبيرة مغطاة بجلد أسود سميك لايخترقه رجاء ولا يؤثر فيه توسل.

- آه ...يا حاج لم تكن قط بهذه القسوة. فماذا دهاك. كيف تحجّر قلبك الى هذا الحد. وبات أقسى من صخورك وأحجارك؟!

أخذت الصخرة تئن بصمت.

- هيا ياحاج... هيا... لاتفرّط بإبنك من أجل مَنْ لاتساوي قلامة ظفر من أظفاره العشرين.

- أرجوك يا زينب... أرجوك... كفي عن ذِّر أملاحك فوق جروحي.

- جروحك؟ إذن فأنت تعرف. تعرف وتنكر. وتعرف وتعاند... لماذا ياحاج، ما الذي بينك وبينها، كيف إستعبدتك هذه القذرة على هذا النحو؟

وتصدّعت الصخرة بصرخة مزلزلة.

- إخرسي.

- لا. لن أخرس. لابد أن أعرف الحقيقة لابد أن أعرف كل شيء. لابد أن...

ولكنها خرست فعلاً. حتى قبلما تفضي إليه ببعض مايحتدم في نفسها. أخرستها صفقة الباب الخارجي القوية فقفزت الى النافذة بهلع. رأت اينها الذي ترك البيت يسير تحت المطر مهرولاً. وحقيبته الصغيرة المدلاة من عاتقه ترتطم بساقه وهو يخوض الوصول وبرك الماء. كأن أحداً يطارده. فتحت النافذة. ونادته بأعلى صوتها:

- علي... علي ولدي - إبني.

ولكن الريح وزخّات المطر. ردّت الصوت الى الداخل. وظل علي يبتعد. وإذ مرقت بجانبه سيارة اجرة ورأته يشير إليها ثم يركض خلفها. أدركت أن الأوان قد فات. وإن الولد قد راح الى حيث لاتدري. فأطلقت عويلاً حاداً متشنجاً وتكومت على نفسها غير قادرة على الوقوف.

- راح... الولد راح... ولدنا راح... يا... شكر.

إنعطف علي. بعدما فاتته السيارة ولم تستجب لأشارته، نحو اليمين، أخذ يمشي ملتصقاً. بالحائط محتمياً به من رشقات المطر التي تنشرها الرياح في كل مكان. لاح أمامه مقهى العم خدر. توجه نحوه بحماس. ولكن لم يلبث أن فتر حماسه وتوقف على بعد بضعة أمتار. سيجابهه العم خدر بالسؤال نفسه. وهذه المرة لن يستطيع. حتى أن يعده بالحل حينما يعود من القرية. فها هو يعود من غير أي حل.

إلتصق المعطف المبلل الثقيل بجسمه. ولم يعد يقيه من البرد الذي أخذ ينفذ الى عظامه. سرت في جسمه قشعريرة ولم يجد بداً من مواصلة سيره نحو المقهى. فقد كان بحاجة ماسة الى الدفء والشاي الساخن والإختلاء بنفسه بعض الوقت... ريثما يتوقف المطر أو يخف. ويجد وسيلة للوصول الى القرية. ويغرق في عمله الذي وحده يمكن أن يحفف عن روحه وطأة قسوة أبيه وتعنته. وينسيه عذابات أمه. وعجزها. وعجزه هو أيضاً... عن فعل شيء. أي شيء أزاء تلك الفاسدة المفسدة التي تسيطر على أبيه ومن خلاله ترمي الى السيطرة على البيت وعلى من فيه.

كان المقهى... نظيفاً... نظيفاً... مضاءً... كما إعتاده دائماً. مليئاً بالدفء ورائحة الشاي.

ألقى حقيبته على الأرض. نشر معطفه على متكأ المقعد الخشبي الطويل. وأخذ... يمسح وجهه ورأسه بمنديله. ولم يكد يجلس حتى أقبل العم خدر، يسبقه سعاله المتقطع جلس الى جانبه، إنكمش هو على نفسه.

- ها علي... ماذا فعلت يا ولدي؟

عاجله بالسؤال. لم يمهله أن يرتب في ذهنه جواباً... أي جواب.

- لاشيء.

أدهشته هو سرعة جوابه.

إنتصب العم خدر واقفاً.

- أنت الآخر لاتختلف عن أبيك. لقد خذلتنا يا علي ولكن نحن أهل المحلة سيكون لنا شأن آخر معها. إن وجودها في داركم إساءة لنا جميعاً ولن نسكت عليها.

تركه. معطّل الفكر والإرادة واللسان وتحت وطأة إحساسٍ طاغٍ بالمهانة وشعور عارم بالعطب. لم يجرؤ عى طلب الشاي. ولكنه ودّ من أعماقه لو يعطف عليه ويأتيه به من تلقاء نفسه. وإذ يفعل سيطلب منه الثاني والثالث. ولكن العم خدر ظل أمام الموقد... يحرك النار. ملقياً في إهمال تام. أشعل سيجارة وراح يرقب من خلال زجاج المقهى المطر المتساقط في الخارج كالشلال. لو يخف بعض الشيء. "آه... لقد... تسرعت... تسرعت كثيراً. ما كان ينبغي أن أترك البيت" ولكن قد جرى كل شيء بسرعة أذهلته. لم يكن معها قادراً على التفكير ناهيك عن التفكير السليم. لقد تصرف كالغائب عن الوعي.

دخل المقهى شاب في مثل عمره. يغطي رأسه بجريدة. إتخذ مكانه أمامه غير بعيد عنه.

خصلات شعره الفاحم المسترسل. تغطي رقبته. نفض الجريدة بضع مرات. ثم بسطها أمامه.

مال بجسمه الى الأمام ومدّ رأسه وقرأ عنواناً بخط واضح "مقاومة الشعب اللبناني لقوات الغزو تتعاظم... وقبلما يقرأ تفاصيل الخبر. قلب الشاب الجريدة الى صفحة الرياضة. فتراجع الى مكانه. مقرراً أن يستعير الجريدة من الشاب بعدما ينتهي منها.

صاحب المقهى لايزال أمام موقدة. يحرك نيرانه ويلقمها المزيد من الحطب اليابس... وقطع الفحم الصغيرة غير ملتفت نحوه بالمرة. خطف حقيبته. القى معطفه على عاتقه وسحق بقايا سيجارته تحت قدمه. وخرج أمام المقهى توقف لم يكن المطر قد إنقطع... ولكنه خف بعض الشيء وخيوط مشعة من الشمس كانت تتخلل الغيوم هنا وهناك... وتهرئها. إرتدى المعطف... أحكم أزراره... وسار. ولم يكد يمشي بضع خطوات، حتى إنعطف نحو اليسار وكان البيت الذي تركه قبل هنيهه، بيته هو، بيته هم، قبالته مغسولاً بالمطر الربيعي... وأحجاره الكلسية قد باتت... مشعة نظيفة... تلتمع فوقها قطرات الماء العالقة... فأخذ يغذ نحوه الخطى.

بعقوبة ١٩٨٨

الكلب العجوز مغمض العينين

كان الكلب العجوز جائعاً جداً، ومتعباً الى حدٍّ لايصدَّق. فقد أنهكه الجري المتواصل واللهاث المضني. طيلة الأيام السبعة... الماضية. في البحث، دون طائل، عما يسد رمقة. فأقعى أمام الباب، لعل سيدته أو سيدّه أو أحد المارة، يشفق عليه ويمنحه ما يأكل.

وإذ طال مكوثه على تلك الحال وشرعت مؤخرته العجفاء توجعه. وحرارة الشمس التي إشتدت. مع إقتراب الظهيرة وقيضها التموزي، تزعجه. تمطى متثائباً وإنسحب الى الوراء. حيث الظل المنحسر الذي يلقيه جدار البيت الحجري الواطيء، على ساحة صغيرة. فالتصق بالباب الخشبي الموارب... و... تمدد... يائساً.

بين آونة وأخرى، راح يهزّ ذيله الوبري بوهن شديد، يطرد الذباب الذي يتجمع على مؤخرته ويقرصها، بلا اشفاق، قرصات قاسية، أو يحرك رأسه ذات اليمين واليسار، متجنباً الذباب الذي ما يكاد يطير حيث يتجمع حتى يتكوم ثانية على بوزه يمتص اللعاب السائل من شدقيه المفتوحين. وعلى منخرية، يخوض بأرجله المشوكة، في المخاط الدبق الذي يلتمع بين فتحتي أنفه، يفسد عليه قيلولته التي يمنّي نفسه بها. ملاذاً أخيراً ووحيداً يمكن أن ينسيه، ولو لبعض الوقت، الجوع الذي ينهشه من الداخل بشراسة.

لمح، عبر نظراته المتكسرة، سيده من بعيد... عائداً الى البيت خالي الوفاض. لم يحفل، ولم ينهض لإستقباله والتمسح به والتعبير عن حبّه له. مثلما إعتاد أن يفعل في الأيام الخوالي، لا لإستهانته به. فذلك أمر لم يدر بخلده قط. بحكم العشرة الطويلة التي تربط بينهما، والتي إتسمت دائماً بالإحترام والإجلال المتبادلين. ولكنه في اللحظة التي إقترب منه سيده، كان هو قد نجح، بعد صراعه المرير، مع الشمس والذباب، في إغماض عينيه... وإقتناص هنيهة

غفوة مفضية الى الولوج في دنيا الأحلام السعيد. حيث الشبع والبرودة. فلم ينتبه له ولم يشعر به، إلا وهو ينغزه... ببوز حذائه الذي تهرأ وبرز منه أبهامه، بظفره المتقرن كعظمة خالية من اللحم. حادة. مدببة. ونبره بصوت متهدج ينضح بالغضب:

– رُحْ... رُحْ... إبحث عمَّن يطعمك... نحن لم يعد لدينا ما نأكل... ومن لايجد ما يأكله هو... لايقدم شيئاً لغيره... هيا... هيا... تحرك...

إستاء الكلب العجوز من سيده كثيراً... لا... لأنه ينهره ويطرده... بهذا الشكل المذلّ. فهذه حالة قد باتت وبالرغم من كل المودة القائمة بينهما، والتي لايسمح لنفسه قط بالشك في عمقها. تتكرر منذ فترة غير قصيرة بصورة يومية. وأحياناً تتكرر في اليوم الواحد أكثر من مرة واحدة. غير مقتنع تماماً... بأن سيدّه لايعني ما يقول. فهو الآخر، مثله، يقدّر العشرة ويحترمها... ولا يمكن أن يفرط بها بسهولة... بسبب ما اصابة هذه الأيام من ضيق... بيد انه قد إستاء من سيده لأنه أخرجه من غفوته اللذيذة وأحبط الآمال التي عقدها عليها... ولم يقدّر الجهد الجهيد الذي بذله في سببها ولا ذلك الكفاح العنيد الذي خاضة، ضد الذباب والشمس... حتى إصطادها.

كتم استياءه وإكتفى بهزِّ ذيله النحيف. بطريقة حاول أن تكون حركته بعيدة كل البعد عن مشاعره الحقيقية الدفينة. بل وتعمد أن يجعلها تبدو ودوداً... لاأثر للإستياء أو الامتعاض فيها. ولا رائحة للتذمر أو اللوم تفوح منها... محمّلاً إيّاها كل ما بوسعه أن يؤكد لسيده، بأنه وبالرغم من كل شيء... متفهم أحواله، هذه الأيام... ولا يزال ذلك الوفي والمخلص الذي عرفه وخبره جيداً، لزمن طويل...

في النهاية، فكّر الكلب العجوز، ليس له في هذه الدنيا... الواسعة الجرداء، الخالية من عظمة عارية من الجلد واللحم. غير سيده، وبيت سيده، يقيانه أهوال التشرد وإعتداءات الكلاب والناس. وينقذه من أذى روح الشر، المندلقة، هذه الأيام... دون ان يردعها رادع... أو يخفف من غلوائها... أحد.

وإذا كنت تخاصم سيدك، خاطب الكلب العجوز نفسه، لكل صغيرة وكبيرة. أو تحاسبه على كل نزوة من نزواته المتقلبة المتغيرة، على الدوام... ستجد

نفسك. أيها العجوز المهجور، ملقى في الشارع القائظ. لاظل تأوي إليه... ولا مخلوق يمّن عليك. فكن عاقلاً... وحليماً... وأكثر منه صبراً وتحملاً... هو المتوتر المستفز... دائماً.

عند هذه القناعة التي شحن بها نفسه، نكس رأسه... وأطلق نُباحاً متقطعاً... أشبه بمواء قطة ذليلة... ثم لاعب ذيله ثانية. ودفن نظراته الكسيرة في ظله الساقط أمامه. حريصاً، أشد مايكون الحرص، أن لايدعها تتقاطع أو تلتقي مع نظرات سيده التي حدس... بفعل تجربته وخبرته الطويلة معه. في أمثال هذه الحالات... إنها الآن تتقد غضباً...

أخذ يتراجع الى الوراء... فاسحاً الطريق أمام سيدّه ليدخل الدار، دون أن يحتك به. بل وسمح لنفسه، ربما بدافع الفضول لمعرفة أسباب غضب سيده عليه... أو بقصد طلب العفو والمغفرة لسوء سلوكه، غير المتعمد... إزاءه... أو... أو... مؤمِّلاً... أن يكون سيدّه، قد عاد، على خلاف عادته، هذه الأيام، بما يخرس جوعه الصارخ... مع إنه قد أيقن اليقين كله بأنه قد عاد... بلا شيء... خفيفاً مثلما خرج من البيت مع إشراقه الفجر. ولكن الأمل في الحصول على مايثلم سكاكين الجوع التي تقطع أحشاءه... لم يكن يفارق. أو... أو... لكل تلك الأسباب مجتمعة... ولأسباب أخرى... لم يقف عندها طويلاً... أسرع يتبع سيده الى الداخل... عبر الفتحة التي تركها في الباب... دون أن يرفع رأسه.

شاهد سيدته. وهي عجوز مثله. كثيراً ما ألقت أمامه بقطع عظام هشة مليئة بالنخاع... مكسوة، معظم الأحيان، بقدر غير قليل من اللحم المسلوق... وهي تقول "لقد تساقطت أسناني... لم تعد لدي أسنان قادرة على طحنها...خذها... خذها... أيها الصديق العجوز... كلها بدلاً عني..." آه... سيدة عظيمة... كريمة... طيبة... في منتهى الطيبة والكرم... ولكنها هي الأخرى، أخذت، هذه الأيام. تبخل عليه وتجوعه... ترى ماذا دهاها... لماذا تغيرت الى هذا الحد؟

رأها تقبل نحو سيده وسيدها... تحمل فوق أقدامها العارية هيكلها الهزيل المتداعي... المنطوي على نفسه... وتسأله بصوت خافت، لايكاد يسمع:

– ها؟ لاعمل؟ اليوم أيضاً؟

أجاب بإنكسار شديد... يثير الشفقة والرثاء... أو بالأحرى كرر سؤالها... بإقتضاب مشوب بنبرة أسى:

- لاعمل اليوم أيضاً.

إحتدّت سيدته.

عرف ذلك من الكفّ المعروقة التي إرتفعت بجلدها الأبيض الرقيق العاجز عن إخفاء عظامها، لتغطي فاها وتمنع الرذاذ... المتطاير من بين شقوق وفتحات أسنانها المتساقطة ويصيب وجه سيدها... فيلقم نار غضبه المتأججة... حطباً يابساً:

- ولكنه اليوم السابع ونحن بلا أكل... اليوم السابع يا رجل.

إحتد هو الآخر... وقال بغضب غير موجه إليها إذ لم يتطلع نحوها:

- وسيأتي اليوم السبعون أيضاً. ماذا أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل.

وإنكمشت السيدة العجوز على نفسها، فوق إنكمشاها الظاهر، وشرعت تتراجع... بإنخذال واضح... وتردد بما يشبه الإعتذار:

- حسناً... حسناً لاتغضب... فقط لاتغضب.

أشفق عليها... سيده وسيدها... وراح يشرح لها الحال. دون أن تطلب هي أي شرح... بنبرة يمتزج فيها الحزن والألم:

- وقفت في مسطر العمال... تحت نصب البطولة والإنتصار حيث يقضى العمال بإنتظار العمل... حتى أخذت الشمس... تشويني شوياً. إنفضَّ من حولي الجميع... مَنْ حالفه الحظ وقع عليه إختيار المقاولين وأصحاب العمل. ومن خالفه عاد الى بيته خائباً. وحدي لبدتُ هناك... أكثر من خمس ساعات... دون أن يلتفت اليّ أحد... ناوليني قدح ماء.

أضاف، بعد هنيهة، وهو يعيد إليها إناء الماء، ويمسح باليد الأخرى قطرات الماء العالقة بشعرات شاربة البيضاء الكثّة المتهدلة:

- لا أحد يريدني. كلهم يبحثون عن الشباب والفتيان وحتى الصبيان الصغار... وأنا قد تجاوزت هذه المرحلة منذ نصف قرن...

تألمت سيدته العجوز... لحاله... ولم تشأ أن تتوغل في جرحه أبعد. فكتمت

ألمها... خزنته في نفسها، فوق خزين آلامها... هربت الى الغرفة الوحيدة في البيت. بينما راح سيده... يعصر بطنه...

- آخ... بطني...

لقد هيّجت رشفات الماء التي عبّها بلا تروّي آلاماً في بطنه. عرف الكلب العجوز ذلك... إذ رآه يتلوّى ويصرخ بصوت مخنوق خجول... بطني... بطني... لامه الكلب، في دخيلة نفسه... ما كان ينبغي أن تشرب ذلك القدر من الماء... على الجوع...

طاطأ رأسه وراح، بكسل وخمول، يتمسح به... مواسياً...

خرجت سيدته من الغرفة الوحيدة التي دخلتها... حاملة سلّة محشوة... منتفخة:

- ماهذا؟ ماذا تفعلين؟

سألها برقة... حلت محل الغضب الذي كان يمور به. ربما بسبب الألم الذي لايزال يعاني منه والذي جعله رقيقاً الى حدما:

- أبيع ماتبقى من ملابسنا. لعلها تعود علينا... بما يسدّ الرمق.

أجابت وهي تحتضن "صرّة" الملابس التي حسبها الكلب العجوز. لأول وهلّة... سلّة... منتفخة... عبر عينيه الكابيتين.

- وهل تبقى في البيت... شيء صالح للبيع...؟

قالت وهي تهرب من مواجهته:

- ملابس الشتاء... لسنا بحاجة إليها الآن؟

- وحين... يحلّ الشتاء... هل نواجهه عراة؟

- من يضمن بقاءنا حتى الشتاء... ياعيني؟

أمّن على قولها:

- صدقت. من بوسعه أن يحيا بلا طعام، حتى يرى الشتاء؟؟

خرجت محنية الظهر. تحت ثقل سنواتها الثمانين. وهمها العجوز... الذي تئنُّ تحته أكثر من سنوات عمرها.

داست دون أن تدري، على ذيل الكلب، المقرفص قرب الباب. ندّت منه

صرخة ضعيفة، على شكل عواء قصير، توجهت نحوه... بقلق، معتذرة:

– أوه... أنت!!... آه... عفواً... لم أرك.

وأضافت بألم: يبدو أن عيني، أيضاً، لم تعودا تنفعان.

غـادرت بسرعـة، دون أن تغلق البـاب، ودون أن تسـمع العواء الآخـر الذي صدر عن الكلب العجوز، بنغمة مختلفة. كأنه يقول لها: لابأس... لابأس... بوسعي أن أتفهم... حالك!

كـان سيده لايزال يرغي ويزبد، ويغلي من الداخل، كالمرجل على نيران آلام وأوجاع، غير مرئية، ويتلوى:

– بطني... آخ... بطني!

ماذا بوسعي أن أفعل من أجلّه؟ كيف أساعده، وأخفف عنه الأمة.

تسـاءل الكلب بينه وبين نفسـه متوجعاً من الحال التي يرى سيـده يعـاني منها... لاشيء... أقرّ بأسف شديد... وتمدد في مكانه، منتظراً سيدته التي قد تعود، ليس كما عاد سيده، فارغ اليدين.

– هذا الزمن القذر... قد بات زمن كلاب... الزمن، زمن كلاب.

صـرخ إثر نوبة جديدة من الآلام، شـاكيـاً بمرارة... لا... لاأحد. منقلبـاً على وجهه.

دبَّت في الكلب العجوز الذي كـان لشدة خموله وتداعي أعضـاء جسمه، يوشك أن يذهب فريسـة سائغة للذباب والجوع. قوة غريبة... فإنتصب واقفاً على قوائمه الأربع، وفي لمح البصر أطلقها للريح... يسايبقها ولا يلوى على شيء... منتشياً بفرح خفى. يطير به طيراناً، ويشحنه بحيوية تبعث الحياة في أيام الشباب والشبع. لم يتوقف إلا خارج المدينة. عند كهف مهجور، ينزوي فيـه كل ظهيـرة جماعتـه، وهم* يتضورون جوعاً ويجتـرّون بصمت أحلاماً تصنعهـا خيـالاتهم المجنحه، تحلق بهم في دنيـا الشبع الذي أصبح خارجها مستحيل الوصول إليه... بل وحتى الإقتراب منه.

لقيهم، كما إعتاد أن يلقاهم، كلما دفعته الحاجة إليهم، أملاً في العثور

* هنا وفي مواضع أخرى إستخدامٌ خاص لبعض الضمائر تقتضيه الضرورة الفنية.

على عظمة زائدة، أو عصيّة على أسنانهم... من غير أن يحظى بشيء... ومن غير أن يتعظ هو من فشله المتكرر. كانوا متهالكين على أنفسهم، وعلى بعضهم البعض... بلاحول ولا قوة وفي خور شديد... لايقوي أي منهم على الوقوف على قوائمه... هرّ الكلب العجوز، صارخاً بهم:

– هلمّوا، أولادي، هلمّوا...

لم يلتفت أي منهم نحوه... ولا أعاره أيّ إهتمام... فقد تبادر الى أذهانهم جميعاً، أن الكلب العجوز... قد جاء للغرض نفسه الذي يأتي كل مرة من أجله... وسيعود خائباً بالنتيجة نفسها التي يعود بها كل مرة من تلقاء نفسه، دون أن يكلّف واحد منهم عناء الردّ عليه سلباً أو ايجاباً. ظلوا على حالهم... راقدين لايحركون ساكناً... كمجموعة موتى لفظتهم قبورهم.

هرّ الكلب العجوز... ثانية وصرخ فيهم بنبرة أشدّ حدّة:

– لقد... جئتكم. ياجماعة، بنبأ مثير... بخبرٍ سار... سعيداً جداً...

مرة أخرى عانق الفشل محاولته في إثارة هذه الكائنات المرتخية المتساقطة على الأرض، بلاحياة. زعق الكلب العجوز:

– ياكلاب اسمعوني... لقد حلّ... زمننا.

– زمننا؟

تساءلت الكلاب كلها، بصوت واحد. ثم تعددت الأصوات بقدر تعدد مصادرها وإختلفت نبراتها بإختلاف أصحابها، إذ راح كل واحد منهم يسأل من موضعه، بلهفة متصاعدة:

– أحقّ ما تقول؟

– هل حلّ زمننا فعلاً...؟

– زمن الكلاب... أيها الكلب العجوز...؟

– زمن الكلاب... أيها الأعزاء.

أكّد الكلب العجوز بنبرة يقينة لاتدع أي مجالٍ للشك... متذكراً ومقلداً سيده الذي أحال ببراعة نالت أعجابه سؤال سيدته الى جواب جازم: وطاب له إثر الذهول الذي خيّم على الجميع... أن يكرر جوابه... ويزيده تأكيداً:

– بالضبط... زمن الكلاب... زمننا نحن...

إستقامت الرؤوس المرتخية، وإعتدلت الأعناق الملتوية. وإنتصبت الهياكل المتداعية... ولولا أن الأجساد كانت متيبّسة إمتصّ الجوع مياهها... لسال اللعاب أيضاً، من الأشداق التي إتسعت الى آخرها.

تساءل كبيرهم، وهو كلب أسود ضخم. كثير الشكوك، يمتاز على أقرانه بجوعه الدائم الذي لايعرف الشبع... مثلما يمتاز بشراسته ودمويته... مما جعل الجميع يهابونه... ويسلّمونه قيادهم طائعين...

– أهي خديعة أخرى أيها الكلب العجوز... خديعة تكلفنا... المزيد من الجهد... اللامجدي...

– لا... لا... أبداً... أبداً.

أسرع الكلب العجوز ينفي شكوك الكلب الأسود. ويوكد أقواله المستندة على أقوال سيده التي لايرقى إليها الشك في رأيه:

– إنها الحقيقة... الحقيقة التي لاتقبل الجدل. وقد قالها سيدي بنفسه. وسيدي لايكذب... أبداً... فأسرعوا... أسرعوا ولا تهدروا شيئاً من الوقت. نندم عليه كثيراً.

إندفعت الكلاب الجائعة، نحو المدينة، يتقدمها الكلب الأسود. الضخم... بينما راح الكلب العجوز يلهث. وهو يحاول اللحاق بجماعته التي باتت المسافة بينه وبينها... تتسع... وتتسع...

توقفت الكلاب على مشارف المدينة. تلتقط أنفاسها. وتستعد لإقتحامها. رفعت مناخيرها تعبّ الهواء الهابّ من المدينة... تبحث بين طياته عن الرائحة أو الروائح التي تفتقدها وتنشدها منذ زمن طويل. وإذ لم تعثر عليها... تسلل إليهم خيط من الشك... وراحت تتبادل نظرات الريبة فيما بينها. ولكنها وقبلما تتخذ قرارها، آثرت الإنتظار والتريث... ريثما يصل الكلب العجوز. الذي ماكاد يبلغ المكان، مبللاً، منهاراً... حتى إستشف كل شيء من النظرات النارية المصوبة تجاهه... التي لاتحمل في طياتها سوى معنى واحد: وهو إتهام موّحد، صريح، بالكذب والخداع.

– سيدي لايكذب أبداً... سيدي لم يكذب قطّ.

لاذ بسيّده مرةً أخرى... حصناً يقية الشرّ المتوقد في العيون.

– لندخل المدينة.

لم ينتظر جوابهم... ولا قرارهم... فقد كان بحاجة شديدة الى الإبتعاد عنهم... الى الفرار منهم... بصورة وقتية حسب... فهو واثق. إنه قد آن وقت الفرار... سيلحقون به... ولو كان في السماء... السابعة أو تحت طبقة الأرض السابعة...

هذه المرة، لم تدعه الكلاب، يتأخر عن الركب... وضعته في المقدمة. وأخذت تعدو خلفه... وتحيط به يميناً ويساراً... وعيونها... ملتصقة به... لاتفارقه ولا تغفل عنه.

دخلوا المدينة في لمحة عين... فقد وجدوا أنفسهم خِفافاً طائرين على جناح الجوع... هرعوا الى أول مطعم لاح لهم... فلم يجدوا غيرَ مقاعد فارغة... وموائد خالية... إقتحموا المطبخ... فلم تكن ثمة غير نيران منطفئة... وأدوات وقدور وصحون، نظيفة، لاتقف عليها. ذبابة واحدة... ولا تطنُّ حولها.

داهموا... مطعماً آخر... وآخر... وثالثاً ورابعاً... وعاشراً... فلم تكن حال أيّ منها... بأفضل من غيرها...

تمكن منهم التعب، وإشتد بهم الجوع الذي هاج. توقفوا لاهثين منقطعي الأنفاس. نظراتهم نيران متأججة مصوّبة الى الكلب العجوز. الذي أخذ يرتعد من الخوف... ولا يجرؤ على فتح فيه بكلمة واحدة. فقد أخرس الرعب الذي تنسجه النظرات المصبوبة عليه لسانه... وعطّل كل قدرة عنده على التفكير... بتدبير خطة... للخلاص...

في إستسلام كامل للمصير الذي يحدودنه له... أطرق ساهماً... منتظراً اللحظات... أو بالأحرى اللحظة الخاطفة التي تلاشيه. في عجز تام. عن أية قدرة... لتجنبها...

ولكن...

وفجأة... قدح ذهنه الخائف المرتعد... بفكرة...

لم يتمهّل للتثبت من صوابها... والتأكد من صلاحيتها أو مدى نجاحها أو فشلها... وإنما إنطلق على الفور... لتنفيذها.

تبعته الكلاب الأخرى. بدوافع شتى... أقواها... وقاسمها المشترك الأعظم، أن لاتدع الكلب العجوز، بعد تلك الخديعة... يفلت من أنيابها.

ظل الكلب العجوز... يجري... وهم يجرون وراءه... ولم يتوقف، ولم يتوقفوا بعده، إلاّ حين بلغ مزبلة المدينة... هجم على أكوام... الزبالة والفضلات المتفسخة، يهدم تلولها الصغيرة، المبثوثة هنا وهناك... ينبش فيها بيديه ورجليه وبوزه... والآخرون وراءه يفعلون فعله... يمزقون أحشاء المزبلة في كل موضع. ينشرون الروائح العطنه... المتعفنة... بين طيات الهواء وتلافيفه... فتحملها الرياح الهابّة... لتخلق فضاءً شاسعاً من النتانة. بيد أنهم... لم يعثروا... إلاّ على عظام مهروسة... سحقتها الأسنان البشرية... ومضغتها... ثم لفظتها الأفواه، بعدما إمتصّت نخاعها... وأخرى صلبة قوية... منزوعة اللحم والجلد... عصت على الأسنان الآدمية؛ وهي تتصدى لأسنانهم وأنيابهم سكاكين حادة... تجرّح شفاههم... تكسرّ قواطعهم... فإمتلأت أفواههم بالدم... وإمتلأت نفوسهم بالحقد... على البشر الذي راح ينافس الكلاب... ويسابقهم الى أكلاتهم. وفقد بعضهم صوابه... لمذاق الدم المجّ في حلوقهم... ولمرآه القاني... على شفاه الآخرين... فإشتد هيجانهم. ولكنهم... تحلّوا بالصبر مرغمين، فالكلب الأسود الضخم... لم يقرر شيئاً بعد... فغدوا... مراجل... مغلقة... تغلي من الداخل... تحلقوا حول الكلب العجوز. ضربوا حوله سياجاً... متماسكاً... يعجز الفأر من النفاذ خلاله... ثم أخذ السياج... فوق تماسكه يتماسك أكثر وفوق ضيقه... يضيق أكثر. وكل واحد فيه... يهتم بالإنقضاض عليه... وإفتراسه قبل صاحبه.

أحسَّ بالخطر الأكيد يداهمه... يحيط به من كل صوب... ويحدق به من كل حدب. إنكمش الكلب العجوز، الذي تضاعفت سنوات شيخوخته فجأة، على نفسه. جمد في مكانه، مسلوب الارادة... متيبّس العروق. عيناه فقط... راحتا تتحركان في حركة زئبقية. تبحثان عن منفذ. عن مهرب. عن فتحة صغيرة في هذا السياج الغريب، المتحرك الذي لايتوقف عن الحركة والتقدم نحوه والإطباق عليه. فأقعى في مكانه يائساً مستسلماً لحكم القضاء وقدره... المتمثل في حكم الكلب الأسود وقراره الأخير...

– أتقدِّر خطورة ما فعلت بنا أيها الكلب العجوز؟

هرّ الكلب الأسود الضخم. لم يحر الكلب العجوز جواباً. فقد أدرك أن أي كلام يقوله يزيد الموقف خراباً. ويصبّ على نار الغضب المتأججة المزيد من الزيت.

– أجَّجتَ شهيتنا الى اللحم.

تولّى الكلب الأسود الضخم الشرس، الإجابة على سؤاله بنفسه بعد ما طال إنتظاره لها من الكلب العجوز...

– لقد هيّجت البركان الخامد في أحشائنا... منذ أيام.

قال آخر...

– ولن نرضى بغير اللحم... بديلاً...

قالها أكثر من واحد بتصميم وعناد.

وفي دفاع مستميت يائس، راح الكلب العجوز، يتلعثم:

– هـ... هـ... هو... هو... لا... أنا... ليس... أنا...

صرخ الكلب الأسود الشرس، الجائع على الدوام، بفم ممتلىء بالدم. ورذاذ متطاير... من بين شقوق وفتحات أسنانه التي تكسر بعضها.

– إفترسوه... إفترسوا الكلب العجوز...

لطعت الأفواه دماءها... بسرعة... وأخذ السور الحي، يتحرك نحوه... شرع يتوسل بهم واحداً واحداً. ولا أحد يستجيب لتوسلاته. فالحلقة يراها بأم عينية... تضيق وتضيق... وتمتص هواء المسافة الكائنة... بينه وبينها... وماهي إلاّ ثوانٍ... وتنقضّ عليه... هذه الأنياب الدموية الكثيرة... تطرحه أرضاً. ثم... ثم... تقضم حتى عظامه...

لم يستطيع تصديق مايجرى أمامه... وتراه عيناه القلقتان إنه أمر يفوق كل خيال... إنه توقع يتجاوز كل واقع... كيف يمكن أن تنقلب الأمور الى هذا الحد المريع... وتبلغ هذا القدر الهائل من البشاعة.

حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر قد لايعدو أكثر من عملية تخويف أو إرهاب غير عملي، يمارسه الكلب الأسود الضخم عقاباً له... لكي يحتفظ من خلاله

بسطوته عليهم جميعاً... ولكن يحفظ بينهم مكانته السامية التي حققها لنفسه، عبر صراع طويل مع كل متحديه... وقتل ونهش كل من ينافسه عليها... أو يفكر أن ينافسه ذات يوم... أو... يستهزيء به بدعابات سمجة... تقلل من أهميته... وقدراته... وإنه في النهاية، سيعفو عنه... إذ يعتبر الأمر كله هفوة... أو خطأ... وقع فيه بعفوية ودون تعمد... بل... بل... أن سيده هو من أوقعه... فيه...

عند هذا الحد من التفكير، الذي منحه قدراً ما من الشجاعة. رفع الكلب العجوز رأسه المدلاة... وإنتزع عينيه المزروعين في الأرض، نصف المغمضتين... وفتحهما... فهاله ما رأى... ويدور... كل شجاعته وأوهامه التي شحن بها نفسه. لا... إن مايراه من تصميم في العيون الجاحظة المحمرّة... ومايسمعه من صرير الأسنان المصطكة. لايمكن أن يكون هزلاً... ولا حتى عقاباً تاديبياً خفيفاً... مثلما كان يرجو ويأمل. فتلاشت شجاعته التي إستجمعها... الأمر جاد لاسبيل الى الشك فيه... ولكنه ظل متشبثا بأهداب الحياة... ففي محاولة يائسة أخرى لإنقاذ نفسه من الموت المحقق المحدق به من كل جانب... والزاحف نحوه... بقسوة... قال:

– هو... هو من يجب أن يدفع الثمن...

قالها متعلقاً بخيوط حياة واهية... تفرُّ من مسامات جلده بعد مقارنة سريعة... أجراها... بين طرفي معادلة تراءت له... يشكل سيده أحد الطرفين... وهو الآخر...

– سيدي... هو الذي كذب عليّ...

أصرّ الكلب العجوز، وأضاف... مستجمعاً كل مهارته وحذقه في أغرائهم:

– هو... هو أكثر لحماً... ويكفينا... كلنا...

ووجّه عينين متسولتين الى الكلب الأسود الضخم. الذي هرّ، فتوقفت الحلقة عن الحركة... فداخله إطمئنان هش... وإستعاد بعض شجاعته.

– وأنا... أنا... بنفسي أقودكم اليه... الآن...

فكّر الكلب الأسود هنيهة... كان الكلب العجوز خلالها في غاية القلق والإضطراب... يتقلب فوق نيران الشكوك والآمال. وحين هرّ الكلب الأسود.

– ليكن!

تنفس الكلب العجوز الصعداء. ولم يصدق أن تواتيه هذه الفرصة النادرة... للنجاة... بهذه السرعة:

– ولكن تذكر أيها الكلب العجوز... انها فرصتك الأخيرة... أن كذبت علينا ثانية. أو خدعتنا مرة أخرى فنحن وبالرغم من تقرن جلدك. وتعظم لحمك آكلوك. لامحالة .

– كلوني قطّعوني... إفترسوني... إفعلوا بي كل ما تشاءون. وإنطلق يعدو.

صرخ بهم... يحثُّهم على الجرى، إذ راهم يجرون أجسادهم الهزيلة المتعبة... بصعوبة بالغة:

– أسرعوا... أسرعوا... قبلما تعود سيدتي.

وأضاف هامساً، مخاطباً نفسه... انها سيدة طيبة جداً. ويحزّ في نفسي أن اراها... تتألم...

وسقطت من عينه دمعة... داستها أقدام الكلاب الراكضة خلفه. بلامبالاة. وجد الباب، لايزال نصف مفتوح، كما تركه. فأيقن أن سيدته لم تعد، بعد. إلتفت نحوهم:

– بهدوء... أدخلوا... بهدوء.

هرّ الكلب الأسود الجائع على الدوام.

– أنت من تدخل... وانت من تهجم. وإن تلكأت هجمنا عليك.

تمنى الكلب العجوز... من كل أعماقه، أن يجد سيده، نائماً... فذلك من شأنه أن يسهل مهمة الإنقضاض عليه... إذ يجنبّه مواجهته... وإلتقاء عينيه بعينيه ورؤية جوعه وحزنه اللذان يطفران منهما.

داخله فرح خفى إذ وجده ممدداً... بيد أن فرحه سرعان ماتلاشى... إذ عرف أنه غير نائم... كان مستلقياً على ظهره. يعصر بطنه عصراً... ثم... لم يلبث أن إنقلب على جانبه الأيسر. وأدخل جمع أصابعه في حلقة دفعة واحدة. وشرع يمصّها بنهمٍ غريب.

إستغرب الكلب العجوز حال سيده وإستنكرها. إذ ظن إنه يأكل أصابعه،

وخشى أن ينتهي به الأمر الى أكل كل أعضاء جسمه عضواً عضواً... مما يثير غضب الكلب الأسود الشرس، ويتهمه مرة أخرى... بالكذب والخداع. حين يدخل هو وصحبه ولا يجدون ما يأكلون. وآنذاك سيكون وحده، الضحية والفريسة المرتقبة. فانتابه قلق شديد. وأخذ يدور حول سيده... متلصصاً... يبحث عن موضع ملائم... للإنقضاض عليه، قبلما ينهي نفسه بنفسه ولكن سيده فاجأه، بإخراج يده من فيه... سليمة:

– عُدتَ؟ عُدتَ خائباً مثلما خرجت؟ آخ... آخ... بطني...

أخذ يتلوّى... ويتقلب فوق فراشه، لايقرّ له قرار...

– كفّ عن التوسل اليّ بعينيك الملئتين بالجوع... أنا الآخر. جائع مثلك... بل أشد منك جوعاً... آخ... بطني... آخ.

نبح الكلب العجوز... نباحاً ضعيفاً منقطعاً... ياسيدي... قد بات الأمر خطيراً... خطيراً جداً... تجاوز حدود الإحساس بالجوع... تحملّ آلامه وأوجاعه... فأنت ياسيدي قد كذبت عليّ حين قلت أن الزمان قد بات زماننا... وأنا بدوري... لشدة ايماني بك وبصدقك... كذبت عليهم... أنا أسامحك وأغفر لك... كل شيء. ولكن هم... هم... لايسامحونني ولا يغفرون لي أي شيء... آه... آه...

إمتلأت عينا الكلب العجوز... بالدموع... إذ تذكر أيامه الأولى معه... أيام كان جرواً صغيراً... ضعيفاً... بلاحول ولا قوة... فإلتقطه هذا الرجل الطيب الممدد أمامه... من الطين اللزج... حيث ألقاه فيه صبي شرير... بعد طول ضرب وتعذيب... وهو يوشك أن يختنق... فأنقذه... وفتح له بواب بيته. وأسبغ عليه مع سيدة البيت كل ألوان الرعاية والحب... وظل كذلك حالهما معه طيلة سنوات العشرة العديدة... حتى زحف الجوع... و...

– ما جدوى مكوثك هنا، يا ولدي. رح أبحث لك عن عظمه تأكلها... تقيك هذا الموت البطيء المتربص بنا جميعاً

دنا منه أكثر... وراح يتمسّح به... برقّةٍ فائقة ويتشمّمُهُ بعمقٍ وعن قرب... كمن يستغفر شخصاً عزيزاً عليه، يجد نفسه مرغماً على الإساءة اليه بينما كان سيده يدفعه ويبعده عنه بلا قوة... وهو ينصحه:

– إذا كنت تأمل أن تعود سيدتك بشيء. فتأكد إنها لن تعود بما يزيد عن

حاجتنا... بل... بل لن تعود حتى بما يكفي حاجتنا صدقني... ومن الخير لك أن لاتعتمد علينا بعد... اليوم.

دمعت عينا الكلب العجوز مرة أخرى، إذ تذكر مايتوجب عليه أن يفعل بسيده. وما يقابل به هذه الطيبة وهذا الحنان، اللذين يمتليء بهما كل كيانه. عبر تلك الكف المعروقة الرقيقة، التي تربت على رأسه... فإلتصق به أكثر. ولو إستطاع الأنهال عليه تقبيلاً... وأخذه بالاحضان... مثلما كان هو يفعل به، أيام زمان... فلعن الزمن الأسود الذي ساق سيده الى هذه الحال... وساقه هو الى الكلب الأسود القاسي. الذي يفرض عليهما. بلا رحمة، فراقاً أبدياً... وبهذا الشكل المأساوي البشع... دون أن يملك له رفضاً... ولا حتى تغييراً.

هرّ الكلب الأسود الشرس... وتناهى إليه ناضحاً بالغضب.

– أوَتتلذّذ بتعذيبنا أيها الكلب العجوز... أسرع... أسرع ماذا تنتظر إهجمْ عليه... قبلما نهجم عليك.

حينذاك. وجد الكلب العجوز نفسه، ملقًى في عجز تام، فلم يجد بدأ من أن يتململ في مكانه... محاولاً الإبتعاد عن سيده... منكّس الرأس... دافناً عينيه في الأرض... بحثاً عن موقع مناسب لشن هجومه المرتقب على سيدهّ، الذي كان لايزال يربت بيده الهزيله على رقبته... ويداعب شعره الأشعث الخشن...

ولم يكد الكلب العجوز... يبتعد عن سيده خطوة... حتى سمعه ينادي عليه... بصوت حنون... معتذراً:

– تعال... تعال... من يدري... قد تعود سيدتك بما يكفينا جميعاً... فإصبر... فإصبر... وتحمل جوعك لحين رجوعها...

تمهّل الكلب العجوز. بعض الشيء، وإرتخى في مكانه... مما جعل الكلب الأسود الشرس الخالي من الرحمة. يزعق به... بحدة وتهور:

– حذار أيها الكلب العجوز، حذار. لاتصدقه... إنها كذبة أخرى من أكاذيبه. فقد عرف سيدك طريق الكذب وإستمرأه ولن يتوقف... ولا يتراجع عنه...

جمد الكلب العجوز، في مكانه... عاجزاً عن إتخاذ قراره.

– تذكر ايها الكلب العجوز... وعدك...

إختضّ الكلب العجوز. وأخذ يرتعد خائفاً. وفي الوقت الذي. داهمت سيده نوبة ألم جديدة. وشرع يتلوى منقلباً على جانبه الآخر... إبتعد عنه زاحفاً... وقف على مبعدة منه... دون أن يجرؤ على الإلتفات نحوه:

– هيا... هيا... أيها الكلب العجوز...

وإذ ذاك التفت نحوه... وحين رآه... قد أدار ظهره له ولم يعد بوسعه أن يراه... إستجمع شجاعته وكل حرصه على الحياة وإنقضّ عليه بسرعة خاطفة. أطبق على رقبة سيده الرقيقة الهزيله... بكل ما أوتي من قوة الجائع الذي يعثر على فريسة دسمة بعد طول عذاب ومعاناة. غرز فيها أسنان فكيه القويين... حتى كادا يلتقيان، عبر العنق النحيل وعظامه الرخوة الفارغة. صرخ سيده صرخة مكتومة. ورفس بظع رفسات ضعيفة، بيد أنّ الكلب العجوز كان قد سدّ أذنيه... وأغمض عينيه فلم يسمع صرخة سيدّه... ولم يرّ رفساته... غير إنه شعر بأن حلقة يمتليء بالدم... وفريسته تخمد في مكانها. بلا حراك، إذ ذاك أدرك بأن الأمر قد إنتهى. وأن الفراق الأبدى مع سيده قد حلّ... ومع هذا : لم يجرؤ أن يفتح عينيه، ويتطلع نحوه. فظل مغمض العينين...

وكقذائف خاطفة متتالية، إنطلقت الكلاب الجائعة، المتربصة كلها... تهجم على سيده وتنهشه... ظل الكلب العجوز قابضاً بأسنانه على خناق سيده، لايتركه ولا يفتح عينيه... وغير قادر على مشاركة جماعته في نهش لحم سيدّه. ولكن إذ فاحت رائحة الدم المسفوح واللحم الممزق، وإمتلأت بها خياشيمه... إستجابت لها أحشاؤه الداخلية، مُستَفزة بقوة وعنف، فإقتطع مضغة صغيرة وهو مغمض العينين مقرراً الإكتفاء بها. ولكن جوعاً عميقاً كالذي يعاني منه منذ أكثر من أسبوع... أنىّ لمضغة واحدة أن تسدّه. بسرعة خارقة أبعد عن ذهنه صورة سيدّه التي تشعره بالإثم والخيانة، وراح يضرب بشدقيه المفتوحين وأنيابه الحادة، هنا وهناك، يقتطع قطعاً من اللحم، كيفما إتفق. وسرعان ما إستطاب طعم اللحم وإستعذبه، ملتذذاً به كثيراً. فاندفع يفترسه بشراسة ويلقية في جوفه، حتى دون أن يمضغه، حاله حال اقرانه... سوى إنه ظل مغمض العينين.

وإذ أتت الكلاب النهمه الجائعة على اللحم كله، لحم سيدّه وصديقه ومنقذه،

خرجت متثاقلة، تجر نفسها جراً. وتلتقط أنفاسها بصعوبة، دون أن تمسح شفاهها من آثار الدم. بقي الكلب العجوز وحده، ممدداً، أمام العظام المفتتة، المنزوع منها اللحم والجلد، بمهارة فائقة. والمغطاة بطبقة من الدم المنحثر. دون أن يراها فقد ظل، وبعد كل الذي جرى مثلما كان قبله مغمض العينين.

وإذ تناهى الى سمعه صرير الباب الخشبي، مصحوباً بوقع أقدام خافت، عرف أن سيدته قد عادت فصعق تماماً، وهمّ أن يطلق ساقيه للريح، ولكن إحساساً بالخجل والعار، إحتواه، وشعر بنفسه عاجزاً كلياً، لايقوى على أية حركة... كأنّ شللاً مفاجئاً شاملاً، أصاب كل أعضاء جسمه دفعة واحدة... أعاد المحاولة مرة... أو مرتين... قبلما يسمع صرير الباب ثانية وهو يُغلق... ووقع الأقدام الخافت... يتوضح... وبذل كل ما يستطيع. ولم يقدر أن يتجاوز... عتبة باب الغرفة... إلاّ زحفاً... بيديه... وبعض صدره. تساءل برعب... آآ... آهو... الموت؟... هو... المو...ت... إذن...

وكلما إقترب منه وقع أقدام سيدته... إزداد إحساسه بالعجز وإقتراب الموت منه... وإزدادت دقات قلبه وتسارعت. وراحت أنفاسه... تتلاحق... وإذ رأته سيدته على تلك الحال، هالها أمره، وأسرعت نحوه بقلق شديد:

– آه... كلبي... كلبي العجوز العزيز... صديقنا الوحيد... ماذا جرى لك، هل قضى عليك الجوع... لا لاتمت فقد عثرت لك على بعض العظام...

والقت عظمة... أمامه... ولكن الكلب العجوز... لم يحرك ساكناً... ولم ينتبه لسيدته وهي تقلبه ظهراً على بطن وبطناً على ظهر... كما لم يسمعها وهي تنتحب بحرقة... ولم يرى دموعها التي راحت تسيح من عينيها الغائرتين بغزارة...

بعقوبة ١٩٩٣

غيوم بلا... مطر!

تونس حورية بيضاء بضفائر خضراء تجدلها كل صباح ومساء. منطلقة من أعماق البحر الأبيض أجمل من حوريات كل البحار وأنظر. فتغسل الأرض وتعبق بشذاها. يتهافت عليها عشاق الروح والجسد. يتنافس من أجلها طلاب الجمال والمتعة. يرتوي منها عطاش العلم والمعرفة. تخترق جسدها الناسك طرقات مرشوشات برحيق الورد... مظللة بظلال أغصان الزيتون الوارفة. مزدانة بزهور الفلّ والياسمين... منضودة فوق أطباق من قش... منسوجة بألوان قوس قزح... وهي تتوج هامات صبية صغار... وصبيات صغيرات... بخدود موردة... وعيون متلهفة... وأصوات مزقزقة كالعصافير... لاتتجاوز السنوات التي يحملونها فوق أجسادهم الغضة... سنوات الورود التي يعرضونها أمام السائحين والزائرين بشوق ومحبة، إلا قليلاً.

هكذا كانت المدينة ترتسم... أو ترسم نفسها في مخيلتي... التي هدّتها متاعب السفر والخمر والسهر.

- أهي زيارتك الأولى...؟

سألني السائق ممزقاً شرنقة الصمت والتأملات التي نسجتها حول نفسي.

- أجل.

أجبت مضطراً بإقتصاب حريصاً على سلامة الشرنقة والعودة اليها بأسرع وقت. بيد أنه لم يدعني... وإذ واصل:

- تونس عروسة شقراء.

وكور أطراف أنامله... وقبل رؤوسها بحرارة...

وجدتني أخرج من الشرنقة طوعاً... أو رغماً عني... وأنا أتطلع... عبر زجاج السيارة الى كل ما حولي... بفضول طفل وتشوقه الى كل جديد.

- بل بيضاء... أو خضراء... أو بيضاء وخضراء... كل شيء فيها أبيض وأخضر.
- وأزرق إذ تزور البحر. وأحمر أيضاً إذ يحتضنك الماء... كل الألوان التي خلقها اللّه تجدها هنا.

سأل بعد صمت قصير:

- سياحة؟
- تقريباً و... وثمة معرض للوحاتي... يقام اليوم.

زفر:

- آه... باهي، باهي.

أسرعت أقول

- لامحمد... إسمي... محمد... الـ

وقبلما أنطق الأسم الثاني، صعقني بضحكة. بل قهقهة مجلجلة صاخبة إختضّ لها جسده البدين. حتى كاد المقود يفلت من بين يديه.

قلت باستياء:

- ليس في إسمي مايثير الضحك.

وفجأة فقد الرجل كل مرحه، وتلبسته حالة غريبة من الإرتباك والإضطراب.

- عفوك سيدي!

أهذا معقول؟ أبداً والله لقد... أضحكني سوء الفهم الذي حصل.

- سوء الفهم؟
- باهي... ياسيدي الكريم يعني جميل... جميل.
- أهي كذلك؟

وأطلقتُ أنا الأخر ضحكة عالية... إذن لك الحق يا أخي.

- ما الإسم الكريم؟
- السعيد... السعيد... بن مصطفى.

- باهي... إسمك... باهي جداً... أيها الأخ العزيز...

وأنطلقنا كلانا في آن واحد في قهقهة عارمة، أعادت إليه مرحه وحيويته... تمزقت الصورة التي تشكلت، في ذهني، والتي رسمتها المدينة بنفسها بفرشاة سحرية غير مرئية، وبألوان جذابة، متناسقة، منسجمة حد الأعجاز والإستحالة. أول ما توقف السائق أمام الفندق، الذي أُختير لإقامتي... وشابت بياضها المشع دكنة، إنه بناء غريب... قاس... يستقبل الضيف بعدوانية لامبرر لها إطلاقاً، بأحجاره الكلسية الضخمة التي أصفرّ لونها بفعل الأتربة وبصمات الزمن... وغدت مثل وجه مجدور مصاب بالسل، مكومة بعضها فوق البعض بلا تناسق ولا إنسجام، كقلعة من القلاع الرومانية التي توحي بالفظاظة، حتى أن السائق وقف مشدوهاً وقال:

- هذا نزل الملك الذي أبحث عنه.

وأضاف منتكساً:

- لماذا هذا بالذات؟ فثمة نزل في المدينة خير من هذا بكثير.

قلت بخيبة أمل:

- لأن مضيفي تاجر. تاجر لوحات وتحفيات... وأنتيكات... و... و...و

تناولت حقيبة ملابسي الصغيرة ودلفت.

لطمتني رائحة الحجر مليئة بحرارة تشوبها رطوبة زنخة، قلت لصاحب الفندق بوجه متجهم وبلا أية تحية:

- أنا محمد... محمد... محمد الجبل.

لم يبد الرجل الإهتمام الذي كنت أتوقعه، أو آمله، إكتفى بأن رفع إلي وجهاً أسمر، خالياً من أي تعبير. نطق ببرود:

- تشرفنا... هل من خدمة؟

وإبتدأت خيبتي الأولى، أو بالأحرى الثانية، فالأولى كانت الفندق نفسه، قلت أنا الآخر ببرود، وبوجهي المتجهم الذي زاد تجهماً:

- يفترض أن تكون ثمة غرفة محجوزة بإسمي.

قلت ذلك وفي أعماقي تعتمل رغبة قوية أن يقول آسف ليس ثمة حجز بهذا الأسم. فأحمل حقيبتي وأغادر النزل الحجري. ولا ألتقي بوجه محدثي الأملس الخالي من كل تعبير ولكن على الضد، أبدى الرجل إهتماماً غير عادي له إذ راح يبحث في سجلاته.

- لحظ، لحظة، ياسيدي!

ولم يطل به البحث إذ أعلن بسرعة وحماس!

- المعذرة ياسيدي، إذن فأتت محمد الرسام الذي ننتظرك، لقد تأخرت يا...

- الطائرة... الگمارك... الإجرا - آ...ت.

كنت مرهقاً أتثاءب. لا أقوى على ربط كلمة بأخرى، ولا إطباق شفتي. فتتساقط الكلمات، كمجموعة أحجار، رخوة منفصلة بعضها عن البعض.

رفع سماعة الهاتف بيد، وأشار بالأخرى بأدب جم، الى صالة دائرية مضاءة بلون حليبي، تغطي جدرانها ستائر بيضاء. مسدلة، تزينها ورود بنفسجية صغيرة، تفترش الأرضية سجادة حمراء فاقعة، وأرائك وثيرة، ومقاعد، وموائد عديدة بيضاء.

- تفضل أستاذ، تفضل، استرح ريثما أعلمهم بوصولك.

كان جسمي عود لبلاب طري، لين، زاده العرق المتصبب من سائر مساماته طراوة وليونة، غير قادر على الوقوف ثانية أخرى دون إسناد، فإرتميت بنصفي الأعلى على المكتب الذي يقف خلفه، وصداع شديد يكاد يفلق رأسي.

- لو سمحت ياسيد...(أمسكت بيده أمنعه من المكالمة التي ينوي إجرائها وأصيب على وجهه الذي إستحال فجأة الى علامة إستفهام) أنا... أنا... شديد التعب تسدي إلى فضلاً... لو أرشدتني الى غرفتي.

- كيفاش... ياسيد؟ لابد أن ترتاح قليلاً... تشرب شاي تونس الأخضر... و...

- أشكرك جداً، أنا كما ترى خرقة مبلولة، لا أقوى على الوقوف أريد أن أنام وأعدك أن أشرب الشاي الأخضر والأحمر... والأبيض وأي لون تختاره فيما بعد...

تغير وجهه: كأن فرشاة خفية شرعت تضرب فوقه ضربات فنان بدائي:

- غير معقول. هل هذا معقول؟

أخذ ضجري يتصاعد، وهو يغلي فوق نيران تعبي التي يلقمها نفاذ صبري المزيد من الحطب اليابس، تساءلت بغضب:

- عن أي شيء تتسائل يا أخ؟

أجاب الأخ بنبرة غير أخوية تماماً:

- أنا لا أتسائل. أنا مندهش، والدهشة تصعقني... وأنا...

- كن أنت ماتشاء أن تكون، أعطني مفتاح غرفتي، أو أنتقل حالاً الى فندق آخر.

تناولت حقيبتي باليمنى وبسطت كفي اليسرى أمامه. بإنتظار المفتاح. إلتقط مفتاحاً تأمله هنيهة قبلما يناولني إياه قائلاً:

- تفضل غرفة رقم "١٣".

وكأن مئة عقرب لسعتني دفعة واحدة صرخت:

- لا. رقم (١٣) لا. أعطني أي رقم آخر.

أذهله زعيقي، لفترة ظل جامداً، فاغر الفم، فم ككهف مهجور يردد صدى، راح يخاطب نفسه همساً:

- شرقي... شرقي آخر... يؤمن بخرافة الأرقام!!

- أجل شرقي وشرقي حتى النخاع.

وإستدرت على أعقابي بغضب شديد، قفز من فوق مكتبه، لحق بي قبلما أبلغ الباب الخارجي.

- أرجوك أستاذ لم أقصد إغاضتك. تعال، تعال. إختر أية غرفة تريد.

وأضاف وهو يسحبني:

- ياه... مرجل ، مرجل ، يغلي.

أهملت ماقال .

الغرف مملوءة بحرارة دبقة، ممزوجة برائحة التراب، وهي تعوم في فضاء منبهات السيارات وأصوات محركاتها وفراملها، أسرعت الى إغلاق النوافذ

العريضة المفتوحة على الشارع.أجّلت فكرة الإستحمام أو بالأحرى أجّلتها الى مابعد النوم، ألقيت بنفسي فوق السرير بكامل ملابسي، أملاً في إقتناص هنيهة نوم، تعيد إليّ بعض توازني الجسمي والنفسي. فأغمضت عيني شعرت بألم حاد... كأني أغمضها على قذى، والصداع الرهيب مايزال يجول في رأسي، غولاً بأقدام من رصاص. لا، لا، مازال النوم مطمحاً بعيد المنال، إن لم يكن مستحيلاً، تناولت من حقيبتي قرصين مهدئين... للصداع... آه ماكان ينبغي أن أعبّ كل ذلك الكم الهائل من الخمر، ولكن المضيفة، بشرتها البرونزية، وقامتها المياسة، وقصة شهرها الولدية، كانت في منتهى الجاذبية، أني لم أردّها. أو حتى أتباطأ في التلويح لها ومناداتها أول ماتشرق من غرفة الخدمة. حاملة صينيتها الفضية وفوقها الكؤوس المضيئة نتشعشع... هكذا أنا... قوي... صلب... صلد... جبل... أستطيع أن أقاوم رغبتي الملتهبة الى الشراب نهاراً كاملاً، ولكن ما أن تندى شفتي بقطرة واحدة حتى تذوب كل مقاومتي... وتنهار كل دفاعاتي ومتاريسي في الأقداح التي تترى.

- أرسمني، لم أجب -(كنت أشرب، أشربها)... أم... أم... لست حلوة؟

قلت:

- بل حلوة... حلوة الى حد أخشى الإحتفاظ بك.

- ومن قال إني سأسمح لك بالإحتفاظ بي. إرسمني، إرسمني ثم إسني مثلما أنساك أول ماتهبط من الطائرة.

- لا أنسى الوجوه التي أرسمها.

- كل الوجوه؟

تساءلت بمرح شهي.

- كل الوجوه لأني أصلاً لا أرسم إلا الوجوه التي تدخل مزاجي.

إنتعش اللون، رفعت كأسي:

- بصحة الوجه الملائكي الذي إقتحم مزاجي وتربع فوق عرشه ملكاً دون منافس.

- أثمّة مكان لأخرى فوق عرش فنان؟

آخ رأسي آه ياروح الخمر الخفية، إذا لم يكن لك إسم تُعرفي به، فلنسمّك الشيطان كما يقول شكسبير. أو نسمّك... إمرأة كما أقول أنا.

– لي أصدقاء رسامون كثار... ويسعدني أن أتعرف على رسام جديد من العراق.

– تتعدد الهوايات غالباً، وأحياناً تتناقض.

– ماذا تعني؟

كانت الخمرة قد تمكنت مني والشيطان قد شهر لسانه ضدي. قطبت الجميلة فتلبّد الوجه الصافي بقطع من الغيوم... روح الخمرة تصرخ بي، لاتراجع الى الأمام.

– ثمة من يجمع الطوابع... وثمة من...

– الأصدقاء؟

– ذكية. تتلقفها وهي طائرة. هكذا نقول نحن في العراق عن الذكاء المفرط.

– أنا اليوم رائقة المزاج. ولن أسمح بتعكيره بسبب ملاحظة خشنة من فنان خشن.

ثم أضافت بخشونة بددت كل رقتها:

– هل تريد المزيد؟

– إذا لم تكن خشونتي قد جرحت مشاعرك الرقيقة.

رفعت القدح الفارغ، ووضعت مكانه آخر ملآن:

– لادخل لمشاعري في عملي.

لم تكن صادقة، فقد تغيرت كثيراً مما دفعني الى المزيد من الشراب والى تقريع نفسي ولومها، وصبّ اللعنات على الشيطان الذي يسبح في القدح ويخترقني مع كل جرعة... ثم مايلبث أن ينتصب في جوفي، يجوفني ويلعب بي على هواه آه رأسي!!

يبدو أن نوماً قلقاً مضطرباً مزروعاً بالكوابيس والإختناقات والعطش. قد نساني لفترة ما... إذ أفقت مذعوراً على بعضهم بهم بإقتلاع الباب، فصرخت

بحدة:

– على مهلك... على مهلك... أنا قادم.

– أي نوم غريب هذا يا أستاذ؟ قد كنا أن نحطم الباب. وأنت ولا كأنك موجود... أين اللوحات؟

... أجبت بصوت نائم: في... في... المطار.

ثم شرعت أتثائب بضجر.

– في المطار؟

كادت عيناه تقفزان من محجريهما وهو يتساءل:

– لماذا في المطار؟ ماذا تفعل لوحاتك في المطار؟

– معتقلة!!

بضيق شديد صرخ:

– سي محمد أرجوك، ليس الوقت وقت مزاح، أخبرني... قل لي...

– حسبوني سارق لوحات... أو حسبوها أكياس مخدرات، المهم أخذوها كلها... وأعطوني هذه الوريقة.

ولم أكد أُخرج الورقة المدعوكة من جيب سروالي، حتى خطفها.

– وتركتهم يأخذونها بهذه البساطة؟ آه... ما أنت يا أخي... ما أنت؟ هيا... هيا معي الى المطار. آه يا إلهي... المعرض يفتح في الثامنة والساعة الآن تجاوزت السادسة... هيا يا سي محمد... أسرع... أرجوك.

– أما تراني بأي حال أنا؟ أذهب وحدك... وإذ تعود تجدني جاهزاً.

– أرجو ذلك. بل لابد.

وأضاف وهو يطوي درجات السلم نازلاً:

– يا سي محمد... لاتنسى أن تكتب كلمة لدليل المعرض، ضروري. ضروري جداً.

شقشقة المياه المتساقطة على جلدي العاري... وحدها التي شرعت تملأ كياني... وتبعث فيّ الإنتعاش... الذي شرع يعيدني الى الوجود رويداً... رويداً.

في صالة الفندق تناولت طعاماً خفيفاً، أشعلت سيجارة. وطلبت قهوة قبلما أنغمر في التفكير بالكلمة التي يتوجب عليّ أن أكتبها.

كتبت بضع كلمات لم تعجبني. كتبت أخريات... وأخريات... مزقت الورقة... مزقت ورقة أخرى... وثالثة ورابعة... لا... لا أستطيع... لا أستطيع البتة.

لماذا ينبغي للرسام أن يكون حاضراً خارج عالم الضلال والألوان والخطوط في الوقت الذي لايشترط في الكاتب أن يكون موجوداً خارج الكلمة والحرف؟ ما الضرورة التي توجب على الرسام أن ينظّر مايرسم؟ شعرت بعجزي يستفحل ويشلّ كل قدرة عندي على تقطير أفكاري وسلسلتها في سياق الكلمات والحروف وأنظمتها الخاصة. ومنعها عن الإندلاق على هذا النحو الفوضوي. بعضها يزاحم بعضاً... بعضها يسابق بعضاً بلا ضوابط ولا ترتيب أو تنسيق. آه... إن سيل الأفكار المتيسر سيجرفني بعيداً... ويتلف لي وقتاً عزيزاً...

أنا بأمسّ الحاجة إليه قبلما يعود السيد الرابح بن موسى متعهد معرض الفنانين المغمورين

- القهوة يا سي محمد.

رفعت عيني فإذا بصاحب الفندق يحمل اليّ القهوة بنفسه، شملني خجل شديد... آه... يالطيبة هذا الرجل وسماحته وسعة صدره... نهضت مرتبكاً، وقد طغى عليّ شعور بالحاجة الى أخذه بالأحضان وزرعه بقبل قلبية حارة... لعله يغفر لي سوء سلوكي ورعونتي. ولكنه منعني وهو يقول بطلاقة وطيبة:

- لا عليك ياسيدي... لاعليك... أنت ضيفنا... وعلى الرأس والعين مادمت بيننا.

أشعلت سيجارة أخرى وطلبت قهوة ثانية. وأنا أعصر ذهني وأعصابي وكل قواي أستحليها بضع كلمات. ولكن بلاجدوى. لماذا لا أترك المساحة المخصصة لي خالية... وأدع عيون المشاهد... أو لوحاتي من خلال عيون المشاهد تكتب... وتقول ماتشاء؟ تأملت الفكرة... راقت لي كثيراً... وبدت لي إنقاذاً معقولاً من المأزق الذي يقودني السيد الرابح إليه، ولكن ياترى هل تروق له، هو الآخر؟ ما شأني به؟ المهم أنها تروق لي وكفى.

وبدلاً من أن أرتخي بعد ما توصلت الى هذا القرار النهائي... وجدتني أكتب على الورقة بتوتر شديد: ثمة رسامون يرسمون ويكتبون... وآخرون يرسمون وحسب. وأنا بلا فخر ولا تواضع... أنتمي الى الفئة الثانية. وبعدها تراجعت الى الوراء. وشعور بالرضى والإرتياح أيضاً... يسري في كياني ورحت أنفث دخان سيجارتي... وأرنو الى هنا وهناك كسجين تحرر بقوة من جدران سجنه. وألقى نفسه في عالم كل ما فيه جديد، فأخذ بتأمله بعيني طفل مدهوش... يا إلهي.

إخترقتني وعدة كهربائية هزت أوصالي، لا، لايمكن أن تكون هذه المخلوقة الخارقة امرأة... فالإله الرحيم الرؤوف. خالق البشر والطير والنبات والجماد، الذي يوزع سائر عطاياه ومنحه بالقسطاس المستقيم أعدل من أن يسبّب كل هذا الجمال والجاذبية لامرأة واحدة، إلا إذا كان قد خلقها لنفسه، مثلما فعل خالق بجماليون... آه... لا... لا... اللهم غفرانك... لاشك أن خللاً قد أصاب عقلي وجعلني أجدّف. وأي حمار ذلك الذي يمكن أن يحتفظ بعقله سليماً إزاء جمال صاعق، مزلزل... كهذا الجمال المصبوب كله في كيان... يدبُّ على رجلين مثل سائر البشر... وماهو من البشر ولا ...

- القهوة أستاذ! قهوتك... ياسيدي! القهوة... يا... أستاذ القهوة...

- ضعها يا أخي... ضعها وكفاك زعيقاً في إذني... ألا تراني مشغولاً... مسحوراً؟

وكنت فعلاً مشغولاً ومسحوراً بها... ممتلئاً بسحرها الجذاب حتى الشعرة... كل كياني مشدود إليها... كل جسمي يدور حيث تدور بين المقاعد والموائد... كما يدور بغل الناعور حول الوتد المربوط به.

- أين أصنعها ياسيدي؟

يا للحاجة هذا الصبي!!

- صنعها فوق رأسي ياتاج رأسي، ضعها فوق عيني يا أعز من عيني، أين توضع القهوة عادة ياحبيبي... أليس فوق المنضدة؟ أم لك إجتهاد آخر؟

- الأوراق ياسيدي... أوراقك تغطي المنضدة كلها.

قالها وهو يكاد (يخرب) من الضحك... لملمت الأوراق كلها... دعكتها... رميتها في سلة المهملات.

– أيكفي هذا الفضاء لوضع فنجان صغير... أم أجمع كل المناضد في منضدة واحدة؟

قهقهه النادل... ناولته ورقة نقدية. قال دون أن يكف عن ضحكة الصافي البريء:

– يعيشك... ياسيدي... يعيشك إن شاء اللّه ياربي.

هبط الجمال بقربي... نزل من عليائه وجلس خلفي على مبعدة أمتار مني حسب، آه ما أشقى من يرنو الى هذا الجمال ولا يستطيع أن يعانقه ويلثمه، ماأتعس من يحيا الحياة صحراء ويقع فجأة على هذا النبع الصافي الرقراق... ويعجز أن يرتوي منه... أو حتى يبلل شفتيه من رضابه! هذا الشعر المنسدل فوق نهار ربيع... هو ضالتي التي أنشدها... هاتان الشفتان الرقيقتان... هذا الأنف الدقيق... هذان الخدان الموردان، هذه العنق الرخامية الطويلة... هذا الصدر المنتصب بكبرياء... آه... رقبتي... ألا لعنة إلهة الجمال على أوجاع الرقبة... هذا الوجه... بكل تفاصيله ودقائقه. أعرفه بهذه الغلالة من الرصانة التي يتراءى خلفها... لقد إلتقيت به... يوماً ما... حتماً... ولكن... أين... ومتى... ربما... ربما أول ما ولدت... أو... أو... قبلما أخلق... وفي كل مكان كلما أغمضت عيني أسمو الى الجمال... الجمال المثال... الذي أعشقه منذ بدأت أعشق الجمال... أأكون خلقته من مادة الحلم والتوق الدائم... الى البساطة المعجزة...

وشاء اللّه لحكمة في ذاته العليا أن ينفخ فيه الحياة ويجسّده لي... ولكن أهي لي؟

أخذت ترتشف قدح العصير مباشرة بعدما أزاحت جانباً القصبة المجوفة، ثم تمسح شفتيها إثر كل رشفة بمنديل ورقي رقيق شفاف برقة وشفافية كأنها تخشى أن يجرح المنديل الناعم شفتيها الأكثر نعومة وليونة... بكل تأكيد... ثم تطوية بعناية فائقة بضع طويات وتثنية، عفواً تضعه بهدوء حالم في منفضة السجائر الوردية، كأنها تمارس طقساً دينياً، دون أن تحفل بي أو بمن حولها،

مما حملني إضافة الى الأوجاع التي بدأت تسري في رقبتي أضعافاً مضاعفة أن أغير مقعدي، وأنتقل الي مقعد آخر وأجلس متعبداً قبالتها... تماماً وجهاً لوجه... وأول ماتلامست عيوننا، إبتسمتُ... بيد أنها أهملت إبتسامتي... غضّت بصرها... أطبقت أهدابها الطويلة... غطت النبعين الصافيين ياخسارة...! رفعت القدح الى شفتيها ثانية، ولكنها لم تشرب... لم ترتشف حتى هذه المرة شرعت تعضُّ أطرافه بأسنانها اللؤلئية... لماذا؟ ماذا تقصد؟ لا أدري... بل... بل أنها تريد أن تحطمني... إذ ترمز الى تحطيمه "تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لايعاد له السبك" ولو شاء اللّه أن يعيد سبكي أرجوته أن يسبكني قدحاً، وبالتحديد قدح عصير، رقيقاً، شفافاً يشعشع عبره عصير الليمون... إذ تسقط عليه أضواء فندق "الملك"، وتلثمه شفتان... أو تقضمه أسنان حليبية، تتربص به خلف شفاه وردية... مصبوغة بلون فؤادي المسفوح... حتى تحطمني و... تفترسني... و... وثم يعيد القادر القدير... سبكي مرة ثانية... القدح نفسه... و... دون ملل.

(موناليزا)

إهتف بصوت أخرس فتضعضع كل أوصالي... موناليزا القرن الحادي والعشرين، وكل القرون السوابق واللواحق. ترى كيف السبيل إليها؟ أتمنى من كل قلبي أن أكون ذلك الراهب المتهتك راسپوتين في سحره وجاذبية عيونه المغناطيسية التي لاتفلت منها أنثى.

(باهي... باهي)

أردد بنشوة عامرة وجذل حقيقي، هذه المرّة لم تذهب نظراتي الطويلة المسددة نحوها... سدى... نقد تصدقت عليّ بنظرة... نظرة قصيرة جداً... لم يتعد عمرها ثانية واحدة لقاء عشرات بل مئات النظرات الطويلات المصوبات نحوها. ولكنها رغم ذلك كانت كافية أن تمنحني حياة وشجاعة فائقة، فأومأت إليها أن تنضم إليّ أو أطير الى عشها رفضت الحالتين. غير أني لم أقنط، لاسيما وقد لاحظت أن رجائي قد أحدث فيها تغيراً ما... إذ لم يعد وجودي ملغىً كما كان. فقد راحت تختلس إليّ النظر بين آونة وأخرى. حريصة أن تبدو نظراتها عفوية. ولا تدعها تتقاطع مع نظراتي التي تحوم حولها، تحيط

بها من كل جانب... تلتصق بها... ولا تنزلق منها. فتحت حقيبتها البيضاء، أخرجت علبة سجارة، غرستها بين شفتيها الورديتين... يالسعادة هذه السيجارة التي ترضع رضابها، وتلامس شفتيها وتمص لسانها... آه... وقبلما تشعل عود الكبريت الذي هيأته، قفزت نحوها... ببسالة غريبة وعود ثقاب يتوهج بين أصبعي، رنت إليّ بعينين سوداويين، عميقتي الغور، إبتسمتُ... إنعكست إبتسامتي على شفتيها دعوة... أو هكذا طاب لي أن أفسر ابتسامتها الحييّة الخجول... وتصرفت على ضوء هذا التفسير، مستمداً منه شجاعة مضاعفة... فسحبت المقعد الذي يقابلها... إنطلقت قبلما أجروء على الجلوس، مثل محموم يهذي:

- سيدتي... أميرتي... لست صائد فتيات... ولا طالب لذات عابرات... ولكن جمالك الإلهي بهرني... هزّ كياني... زلزلني... فإسمحي لي أن أجلس قبالتك، أتعبد في محراب جمالك... وأتأملك وأرنو إليك حسب، لعلي أستعيد بعض توازني... ولك عليّ ألف يمين وقسم ووعداً أن أنصرف لحال سبيلي حين تأمرين محمولاً فوق نعش خيبتي... دافعاً نفسي هناك... بلا آمال ولا طموحات و... و... بلا حراك.

كنت شلالاً متدفقاً... بطلاقة وسلاسة، إستغربت أنا نفسي من نفسي... وماكدت ألمح ظلال ابتسامة رضى... أو مشروع إبتسامة... قبلما ينساب الى أذني... الصوت العندليبي العذب "لابأس" كنت قد القيت بجسدي الذي نخره القلق على الكرسي وجاءت حركتي من الطيش واللهفة بحيث جعلت المائدة تختض، وقدح العصير يهتز... فأسرعت أمسك به، ولم تسح منه سوى قطرات... إختطفت المناديل الورقية من المنفضة وهي معبقة برائحتها وعطرها... ومزدانة بلون شفتيها ورحت أمسحها... ثم وبدلاً من أرميها في سلة المهملات، دسستها بتأنٍ وتروٍ شديدين في جيب قميصي الأيسر فوق القلب تماماً... وأنا أقول بسعادة غامرة:

- عفواً مولا تي... يبدو أني لست وحدي الذي فقد توازنه.

أوسعت إبتسامتها وعادت تنفث الدخان من شفتيها القرمزيتين. حلقات متداخلة حيناً... منفرجة حيناً آخر... وسحائب شفافة... أحياناً أخرى. ومثل

بوذي مترع بالإيمان، وجد نفسه فجأة في حضرة إلهه "بوذا" الذي يحلم به ليل نهار... فصعقته الرؤية... حتى كاد يموت أو مات فعلاً من الشوق والوجد. فقدت النطق وإستحال لساني الذي كان قبل هنيهة ذرباً مهذاراً، لايعرف التوقف خرقة بلافائدة ولا نفع... إكتفيت أن أحدق فيها. أبحر في هذا الجمال الذي لم أرله مثيلاً... لافي الوجوه التي أتأملها ولا في اللوحات التي أرسمها... أو أبحلق فيها ساعات وساعات.

"سأرسمها"

لم يكن لساني نطق... وإنما صرخة مدوّية إنطلقت من داخلي. أجل سأرسمها. فالرسم لايحتاج الى كلام، ينتظم في لوحات وحروف صامتة بل يزدري بالكلام... فهو نفسه اللغة التي مابعد اللغة... والـ ما قبل اللغة أيضاً. ستكون أجمل لوحاتي... اللوحة الأجمل... اللوحة الحلم... يرسم الفنان مئات اللوحات وفي ذهنه... لوحة واحدة... هي ضالته المنشودة... وإذ يحققها يصمت أو يموت... والموت والصمت كلاهما... للفنان الحقيقي... سواء... لكن الحال بالنسبة لي مختلفة إذ سيكون صمتاً" صاخباً... يقيم الدنيا ولا يعقدها... يطلق كل الألسنة وهي تتنافس وتتسابق في الكلام... وسيكون موتاً زاخراً بالحياة... الحياة الفن... تبثها فيها لوحتي الخالدة... اللوحة الأخيرة... التي هاهي خطوطها الهلامية الأولى تتشكل في مخيلتي "والظلال" والظلال الدقيقة التي تتخلل الأضوية التي يلقيها...

سقط الضوء على خدها الأيسر... فتتوضح... وتتوضح خلالها "الرصعة" التي تزين صفحة وجهها... فائقة الجمال والروعة... والألوان تتشكل في.

- أما لديك شيء تقوله؟
- ها... لاو... وأنت؟
- أنا ماذا؟
- ها...
- لا... لاشيء عو... عودي كما كنت... أرجوك استديري نحو مسقط الضوء، أرفعي ذقنك... قليلاً.

- ما هذا يا أستاذ؟ ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟ إسحب يدك.

دفعت يدي بقوة.

- أنا... أنا... أرسمك.

- ترسمني؟

- أجل أرسم موناليزا.

- ليزا؟ ومن ليزا هذه؟ فرنسية.

- ها؟

- عشيقتك؟

- هي... هي معبودتي هل معك مرآة؟

- مرآة؟ أنت ساحر؟؟

- تقريباً، سأجعلك ترين موناليزا، بكل مافيها من سحر وجمال.

ودفعها فضولها الى إخراج مرآة صغيرة من حقيبتها.

- خذ أرني معبودتك.

وضعت المرآة أمامها مباشرة.

- أنظري... تأملي جيداً. هذه معبودتي.

- ولكن هذه صورتي... أنا... أنا عفيفة.

هززت رأسي نفياً وأنا أردد:

- لا... لا... لست عفيفة.

- لست عفيفة؟ من أنت حتى تتهمني؟

أسرعت أنفي سوء الفهم الذي وقعت فيه بابتسامة عريضة:

- أنت موناليزا... معبودتي.

- أتعرفني أكثر مما أعرف نفسي؟

وإذ أومأتُ إيجاباً، إتسعت حدقتاها وتسإلت بإستنكار:

- من أنت بالضبط؟ من رجال شرطة الآداب؟ من تكون؟ حتى... حتى...

- دافنشي... ليوناردو دافنشي... أقصد... أنا... أنا.

قاطعتني:

- خواجة؟ لايبدو عليك للوهلة الأولى... أنك...

وأطلقت ضحكة نافرة كادت تشوه الصورة التي لما تكتمل. وراحت تطرد سحاب الدخان من حولها.

توسلت:

- دعيها أرجوك إنها تضفي عليك هالة شبيهة بتلك التي تحيط بوجوه القديسات؟

- القديسات؟

وأطلقت ضحكة أخرى توأم ضحكتها الأولى ولكن بقدر أكبر من الإنتماء الى المجون و... البلادة، وإستمرت:

- أنت رجل غريب حقاً... مَن من هؤلاء القديسات؟ وهل ثمة قديسات في هذا الزمن؟

أغلقت كلتا عيني حرصاً على الصورة... خشيت أن تتسلل خارجهما... قبلما تجف ألوانها... ويكتمل معمارها، كنت أراها بوضوح... شفتاها مطبقتان، تنفرجان قليلاً لتقذفا غيوماً وسحائب متتالية، وموسيقى كلماتها تخترق أذني:

- هية... نمت؟ هل أنت نائم؟ لماذا لاتتكلم؟

- حين أرسم لا أتكلم.

- ترسم؟ هل تستهزيء بي؟ أين الأصباغ؟ أين الأوراق؟ هل تراني غبيّة الى هذه الحد؟

لم أنطق، اللمسات الأخيرة بالنسبة إنيّ أشقّ مراحل الرسم، إنها تستفزني وتهلكني معاً.

"مخبول... يا بنت ياعفيفة، وقعت على رجل مخبول"

سمعتها بوضوح تخاطب نفسها... وأضافت:

"يالتعاسة حظك... يا خائبة!"

وهي تطفيء سيجارتها... تسحق بقاياها... وأنا أذوب في أناملها المنتهية... أو المبتدئة بتويجات حمر.

– حمداً للّه... إذ وجدتك.

قالها السيد الرابح، الذي عاد لاهثاً، سحب كرسياً وإرتمى فوقه بلا أدنى كلمة ولا حتى إستئذان من مونا ليزا... وهو يهدر:

– رفضوا تسليمي اللوحات. يصرون على حضورك... هيا معي... هيا...

– ليس الآن... ليس الآن.

– بعد الآن يفوت الأوان... وإقرأ على معرضك السلام.

– الى الجحيم... وألف... ألف سلام... أو... لعنة... لايهمني.

– والقاعة التي حجزتها؟ والأموال التي صرفتها؟ والدعوات التي...

– أخي... لاتلهيني... أرجوك... ألا تراني أرسم...؟

– ترسم؟ ترسم... ماذا...؟

– اللوحة التي أحلم بها... منذ عشقت أناملي الفرشاة... أرسم البراءة والنقاء.

– البراءة والنقاء؟

وأطلق ضحكة بدت صدى لضحكة عفيفة.

– تالله ما أنت إلا مجنون، أو لابد أن أكون أنا المجنون لكي أرتبط معك بمشاريع وعهود وإلتزامات... هيا... معي... هيا... إنهض...

– مستحيل لو أطبقت على السماء أو مادت بي الأرض. لن أتحرك من مكاني قبلما أنهي لوحتي... لوحة العمر...

– سأمهلك نصف ساعة (قالها مستسلماً، وكان لابد أن يستسلم إزاء صرامتي) نصف ساعة فقط... وإن لم تأت معي بعدها... أحملك كافة الخسائر يا محمد... يا جبل.

– موافق... أرسل لنا قهوتين... وأنت خارج.

خرجت مونا ليزا من صمتها الذي لاذت به، منكمشة على نفسها، مثل أرنبة

مذعورة طيلة مكوث السيد الرابح.

– محمد؟ جبل؟ ألم تقل أن إسمك... ناردو... باردو... أو دفنشي... منشي... أو لاأدري ماذا؟ "يخيبك"، لقد حسبتك خواجة... هاهاها...

خصلتان في البشر عموماً، تروعانني، وفي الأنثى بشكل خاص ترعبانني، وتسيرانني، الدمامة والبلادة. وهذه الأنثى التي إجتازت الأولى بتفوق، توشك أن تخذلني في الثانية. فأصلي بصمت وأتوسل وأبتهل الى القادر القدير... يا إلهي لاتفجعني بها، مثلما فجعتني بالمضيفة فأنا لا أقوى على تحمل فجيعة أخرى، إن هذا القدر من الجمال الربّاني حرام أن لايُتوج بقدر مماثل من الذكاء والمعرفة. وهرباً من نفسي وشكوكي، ومخاوفي... أهرب إليها... ألوذبها... أدخل إليها.

– طالبة؟

– لا

– موظفة؟

– لا

– حدثيني عن نفسك، من تونس؟

– لا، ولن أقول من أين.

– ليكن، كيف تعيشين؟

– أعمل

– أجر يومي؟

– يومي... ليلي.

– ها؟

– وفي الساعة، حسب الطلب والرغبة.

– لا أفهم

– حقاً؟

– حقاً. صدقني... لاأفهم.

لم أكن اسأل... أو بالأحرى لم أكن معنياً بالأسئلة ولا بأجوبتها، بقدر ماكنت أتسائل وأتمعن في تقاسيم وجهها، ملهياً نفسي عن وساوس نفسي وظنونها التي باتت تتشكل وأفلشها وأنا أصغي بكل جوارحي ملتذاً بموسيقى صوتها المنسابة كشقشقة مياه عذبة في صحراء جافة، حارقة، لانسمة، لاقطرة، لاظل.

كأن وجودي قد استحال عبئاً... شرهة، شبقة، نهمة، قتلهم هذا المخلوق المذاب في كيان من الرقة والعذوبة.

شرعت اللوحة تتنفس... تتحرك تحت أناملي الجامدة. حية نابضة، بالربيع والخضرة.

- لا شكراً... لا أشرب القهوة.

- إذن بيرة ما رأيك بزجاجة بيرة.

- منكر؟

وإتسعت حدقتا عينها، وإختضت، حتى النادل تراجع.

- أعوذ بالله... أنا... لا أتعاطى المنكر لو ذبحتني.

- لا... المسألة لاتستوجب ذلك.

قلت مبتسماً، مستغرباً وأشرت الى الصبي بالإنصراف، تساءلت بنفاذ صبري:

- هل نظل هنا؟

تساءلت كالغائب عن الوعي:

- ماذا تقصدين؟ لا أفهم.

- لاتفهم؟ غبي أنت أم طفل؟

وإبتلعت الإهانة بصمت، كان لابد أن أبتلعها حرصاً على الصورة لئلا تسقط في الوحل الذي بات يتربص بها... ولا سيما وقد أخذت تهتز... وألوانها الطرية تختلط.

- عفوك، ذهني مشغول بعض الشيء، هلا أوضحتي لي؟

تأففت وأجابت:

- هل أُعجبكَ أم لا؟

تساءلت بهمس لم أر له أي موجب... كدت أصرخ:

- تعجبيني؟ تعجبيني حسب؟ أنت آية من الجمال... أنت...

قاطعتني:

- حرستي، هل تريدني؟

- نعم؟ تساءلت

- مرة أخرى لاتفهم؟ أرجوك لاتضيع وقتي أكثر مما فعلت... إذا كنت تريدني قم بنا الى داري وإلاّ فأتركني ودعني أكسب عيشي... يا أخي.

زعقت مصعوقاً تماماً:

- أأ... أتعنين... إنك...

وتلاشت اللغة... إندثرت من هول المفاجأة، من فضاعة اليقين التي شلّت لساني، وراحت يداي تتكلمان بمزيد من الصخب والضوضاء والإضطراب.

- عليك نور... ها قد فهمت... وعرفت... ولكن إهدأ... إهدأ ولا تلفت إلينا الإنظار.

وإذا لم أستطع أن أهدأ... توسلَت!

- استر عليَّ يا أخي... أرجوك.

آه ياربي أنجدني! لاتتخلّ عني! شعرت بدوار عاتٍ يلفني كالأعصار وبحرارة تنورية تحتويني فتدفق العرق بارد أمن كل مسامات جلدي...

وسَرَت في أوصالي رعدة... والصورة، الصورة الحلم... التي رسمتها من أعصابي من توقي الى الجمال، الى البراءة والنقاء... أخذت تتمزق، وألوانها الروحية تتشقق مثل أصباغ رديئة على وجه قوادة عجوز تتصابى... وفي رأسي تدوي لكماتها... طفل... غبي... مخبول... وكل تلك الصفات والنعوت الأخرى التي كانت تصفعني بها، كيف لم أدركها... كيف سكتُّ عليها ولم أصفعها... أصفح وجه هذه الرمية الخالية من الحياة والحياء... و... وتلميحاتها

العديدة الخفية والعلنية الى مهنتها... كيف غابت عني... لاشك إني غبي... وطفل وأستحق كل شتائمها. آه... ولكن كيف؟ كيف يمكن أن أصدق بأن هذا الوجه الملائكي وجه مو... مو... آه... لا... لا لن أهين دافنشي العظيم بعد...ولا قديسته الملاك... آه... لابد أن ثمة خطأ ما... في مكان ما... في الشمس... في البراءة... في الزهرة... في في العهر... في الظلام... في الهواء... في الكون... في... في... في.

- خلصني... ذلك الرجل هناك يدعوني...

وسأل صوتها المبحوح في إذني... رصاصاً مصهوراً...

بإحساس مدمى بالإهانة ورغبة عارمة في ردها... أفرغت كل ما في حبيبي من نقود أمامها، وتهيأت في الوقت نفسه للرد على أي فعل طائش قد تندم عليه... ثأراً لكرامتها المداسة بهذا الشكل الفظ... ولكنها لدهشتي البالغة... لملمت الأوراق الورقية والقطع المعدنية بمنتهى البساطة... ودفنتها في حقيبتها... وغادرتني... بلا كلمة.

إنتابني ألم شديد في مبدئي وشعرت بثقل غير مرئي يضغط على صدري وأصابع أخطبوطية تمسك بخناقي... وتحبس أنفاسي... تحاملت على نفسي بصعوبة شديد وتوجهت نحو الحمام، محاولاً التغلب على الدوار الذي شملني ومقاومة التيار العنيف المحصور في داخلي، إلا إني وقبلما أبلغه... خارت قواي، وفقدت السيطرة على نفسي والقدرة على التوازن... ورحت أتقيأ... فتدفق سائل أصفر مخلوط بمواد من بقايا الدخان والقهوة... وإمتلأ حلقي مرارة مقززه ... وطعم بغيض... ورائحة كريهة. أخرجت من جيب صدري المناديل الورقية أمسح شفتي،... ولكن مرأى بقع الدم عليها، ورائحتها الباعثة على الغثيان... أثارت فيَّ سيلاً من القيء... حتى خيل إليّ أن أحشائي تطفو فوقه... أحاط بي مدير المعرض وصاحب الفندق وآخرون... وملء سمعي تردد أصوات:

- الطبيب... الإسعاف.

وتناهى إليّ صوت النادل الصغير مبلولاً... بالدموع:

- ياربي ماذا جرى له... قبل قليل كان مثل الديك.

من خلال فتحات السور البشري المضروب حولي... لمحتها وهي تتأبط ذراع رجل أنيق... حسن الهندام، ويخرجان معاً.

بجهد قريب من المعجزة إستطعت أن أرتب بضع كلمات صامتة:

- إإ إحجزوا... لي... على... أول... طا...ئر...ة... الى ... الى...

تونس١٩٩٣

بضع صرخات من...

"صراخ الصمت الأخرس"

قد تكون "صراخ الصمت الأخرس" من أكثر كتاباتي - إن لم تكن أكثرها فعلاً - إنفلاتا من الوعي المبرمج، الموجَّة والموجِّه، وتمرداً على ضوابطه ومستلزماته وقيوده الظاهرة والخفية، ولكنها بالرغم من ذلك، وربما بسبب ذلك بالضبط قد جاءت من أشدها تعبيراً عن الوعي وقدرة على إخفاء هذا التعبير بين سطورها، بل وكلماتها. تحت أطنان من اللاقصد واللاخوف.

ففيها وفي كتابات أخرى، لايزال معظمها غير منشور ولا معروض، تركت القلم يجري على سجيته وفي عفويته اللامؤطره واللامحدودة... وتركت نفسي بكل ما تزخر به، من عواطف وإحاسيس، وخزين معرفي، ومعايشة... عملية للواقع، ومعاناة يوميه، تجري خلفه، يقودها... الى حيث يشاء هو، لا إلى حيث تشاء هي. الى عوالم ودنى، لا أعرف عنها قبل إكتشافها والدخول فيها شيئاً، في رحلة، مؤلمة. موجعة، ولكن في الوقت نفسه ممتعة ولذيذة، وذات طعم خاص، لاتزال نكهتها في الحلق على الرغم من قصرها، قياساً الى كتابات أخرى، إبتلع زمن الفراغ منهما! أو مايشبه الفراغ الأولي، منها سنوات وسنوات، وبدون قطرة واحدة من المبالغة. بينما لم تستغرق هي، "الرحلة" سوى ثلاثة أيام. ولكن بمعدل ست أو سبع، وأحياناً عشر ساعات، من اللهاث والجري والنشاط المحموم المتواصل، وغير المنقطع إلاّ بضرورات أقوى من طاقة الجسم على التحمل والإستمرار... وكانت الحصيلة عشرات الصفحات من الحجم الكبير، مئة صفحة "فولسكاب" مكتوبة حتى حواشها. وعشرات الألوف من الكلمات (ستة وثلاثين ألف كلمة) و... شخصان فقط بلا إسم ولا تاريخ ولا ماض، ولا مستقبل، ولا ... ولا ... وربما بكل أولئك وأكثر!

أطلقت عليهما صفتين رقميتين هما الأول والثاني، يثرثران يعانيان، يتعذبان يمتلأن، مئات الأفكار والحالات والتناقضات، يتخاصمان، يتصالحان، يتحابان، يتباغضان، يتعانقان، يتفارقان... دون أن يعرف أي منهما، لأيّ من تلك الحالات سبباً... ودون أن يخطط لها أو حتى يريد الوصول إليها. بينما يعرف المشاهد والقاريء، أكثر من سبب... لكل أو معظم مايجري لهما، ولكن دون أن يعرف هو الآخر، تحديده بالضبط... أو يخمّن، حتى مجرد تخمين، مسار الأحداث بينهما، ويعرف، أو حتى يتكهّن بما سيحدث أو تؤول إليه الأحداث، بصورة جازمة...

أهي رواية، رواية حوارية، أهي قصة، أهي مجموعة... قصص، متداخلة، متشابكة، مع بعضها البعض، أهي مسرحية أهي...؟ أهي...؟ أهي...؟

لم أحفل. ومازلت غير حافل، كثيراً بالتسمية... ولكن لابد من الإعتراف، بأن شعوراً عميقاً، عارماً، بالزهو قد ملأني ممزوجاً براحة جسدية ونفسية كبرى وأنا أفرغ من كتابة آخر كلمة فيها. إلا أني وبالرغم من ذلك فقد ركنتها جانباً، فوق رف مخطوطات، أو بالأخرى وأدتها، مع شقيقات لها كثيرات، في مقبرة المخطوطات العمودية، التي ماتني تعلو... تعلو...

* في عام ١٩٨٤ - أي بعدما يقارب العشرين عاماً من رقادها، أطلعت، من جملة من أطلعت، الصديق الفنان عوني كرومي، وإذ تجاوز، بقدرة قادر، رعبه المشروع من حجمها وعدد صفحاتها، شرع يتصفحها بدقة وأناة، فتوجس قلبي الخيفة، إذ توقعت إنه وبما أعهد فيه من الصدق والصراحة واللامجاملة، سيعيدها اليّ، ضنيناً بوقت يهدره بلا طائل، وآسفاً في الآن نفسه، على ماأهدر صديقه محي، من الوقت والجهد في تسويد هذا الكم الهائل اللامعقول من الورق و... ياخسارة الورق، مع أن الورق كان حينذاك، مبذولا ً، ولا يعاني حتى أية أزمة. ولكن على الضد من مخاوفي وتوقعاتي. وجدته قد إستغرق في قراءة پانتوميمية - إن صح التعبير، إذ كان لايكف أثناء القراءة، عن تحريك يديه، وملامح وجهه، وحركات رأسه وعينيه، توحي بأنه... بصدد تجسيد ما يقرأ من أفكار الى حركات وأفعال، وهو يواصل إلتهام صفحاتها إلتهاماً، ومالبث أن قرر إخراجها على مسرح الستين كرسياً.

وأعطى (أوامره!!) الى فناني فرقة مسرح اليوم، وفرقة المسرح الشعبي، بإستنساخها... وتقديمها للإجازة... و... و... طبعاً ليس بصفحاتها المئة، وإنما العشرين صفحة الأولى منها حسب. تاركاً، أو مؤجلاً الصفحات الأخر، الى فرصة أخرى، وربما الى فرص أخر.

فكانت مسرحية "صراخ الصمت الأخرس".

التي شاهدها الكثير. وكتب عنها وأشاد بها، العديد من الكتاب والفنانين والنقاد، داخل العراق وخارجه، والتي بلغ من تعلق عوني وشغفه بها، أن اعاد عرضها، بعد... بضعة شهورفي جمعية التشكيليين العراقين، وبعد بضعة أعوام. للمرة الثالثة، في عمان، عام ١٩٩١ - مفتتحاً بها. وبمسرحيتين أخريين، من إخراجه أيضاً، المسرح الشعبي الأردني... وللمرة الرابعة، وبعد خمسة عشر عاماً، أعاد عرضها في ألمانيا... بكادر جديد، ورؤية جديدة... وإخراج جديد، لم يكن في مستطاعي، ولن تكون، مشاهدتها... للاسف الشديد.

* فإليه...

الى ذلك المغامر الأبدي، المحلّق بأجنحة الكلمة الى ما وراء الكلمة. السائح دوماً في فضاءات الفعل والصورة، الباحث أبداً بمصباح ديوجين عن الخارق والمدهش. الرائي بعيون الجوهري وّهج الذهب بين ظلمات التراب... الذي منح "صمتي الأخرس" صرخته المدوية ووهب كلماتي المخنوقة حياةً ضاجّة بالحياة...

الى الخلاق الأمهر عوني كرومي...

بضع صرخات أُخر من صرخاتي المؤودات

الباحثات عن الحياة وعمّن يمنحهنّ الحياة

١- الغولة خرابكو...!!

عاد الأول بعد غيبة سنوات طوال، قضاها في الغربة والكدّ والمشقة، بحثاً عن السعادة والثروة، ولكنه عاد بدونهما، وبدون ذراعين أيضاً.

إحتفى به الثاني، الذي لم يغادر الوطن بالرغم من كل شيء، كما ينبغي للصديق الوفيّ أن يحتفي بصديقه الحق، غادر روتينية أيامه المقرفة، وخرج معه، للتنزة والتمشي على ضفة نهر ديالى كما إعتادا أن يفعلا كلمّا ضاقت بهما روحاهما وما أكثر ما كانتا تضيقان حتى تصبحا أضيق من خرم الإبرة، منذ أكثر من ربع قرن.

كان الأول حزيناً حتى النخاع، ليس لأنه قد عاد، "ويدٌ من أمام ويدٌ من خلفّ" كما يقول المثل العراقي، إذ أنه قد صار بلا يدين. وبلا يد واحدة أيضاً، ولكن بسبب فقده ذراعيه كلتيهما، وبلا مقابل، ولأسباب أخرى عديدة، لايعرفها بالضبط، فقد سدّ الحزن الثقيل، الذي لايفارقه، سبل الإهتداء إليها، كما يسدّ النفط الأسود الثخين المكشف مسامات الجلد والروحمعاً إذ يسيل من عروق المواطن ويشربه الأجنبي ويسمن به ويُثري.

أصاب الإخفاق كل المحاولا ت الجادة والهازلة، التي بذلها الثاني للترفيه عنه، وتخفيف وقع الكارثة على نفسه... بل فشل حتى في إخراجه من صمته الطويل الذي تقمط فيه، فقرر أن يستفزه بوقاحة:

- ما الذي دفعك الى السرقة هناك حيث، خارج الوطن

أجاب الأول بإقتضاب شديد:

- الجوع...

وعاد يتلّفع بصمته الثقيل، مما دفع الثاني الى الإستمرار في إستفزازه.

- ما كان ينبغي أن تجوع...

رماه الأول بنظرة شزراء، وشمخ بأنفه، إذ راح يرسل نظراته الى الأعلى، الى أشجار النخيل والبرتقال والليمون التي تحيط نهر ديالى، رافضاً بإباء... أن يوجه إليه كلمة... بعدما فضح نفسه بإعلانه عن مدى بلادته وغبائه.

إحترم الثاني حالة الأولى النفسية. فدخل هو الآخر الصمت. وأخذ يسير الى جانبه، بلا كلام، ولكنه لم يسر سوى بضع خطوات... حتى ضاق بصمته أو ضيق عليه الصمت الخنّاق، وشعر بأنه سيختنق إن لم يتكلم...

- ألا قل لي... يا صديقي العزيز...

إلتفت نحوه الأول، دون أن ينطق. ولكن ملامح وجهه أوحت له بأنه قد بات على إستعداد أن يحاوره، أو يستمع إليه، في الأقل...

- و... و... هناك، حيث كنت تعمل، هل يقطعون ذراعي كل من يسرق...؟

لم يخب توقعه، إذ أجاب الآخر سريعاً، وبنبرة طبيعية، لم تشبه أية شائبة من الامتعاض أو الإستياء، بل بدت له نبرة ودوداً جداً... وأن كانت تتخللها نغمة غير خفية من الأسى:

- بذلك... تقتضي شرائعهم...

أخذ الثاني يئن ويتوجع... آخ... آه... آخ..." تساءل الأول بإهتمام:

- ما بك... ماذا جرى لك فجأة؟

- فاض بي الألم... انني أتوجع... انني اتألم... بل أتمزق ألماً ووجعاً. من أجل أرامكو

- من أجل "خرابگو"؟ هذه الغولة التي بلا قلب ولا رحمة... ولا شفقة؟

إنفجر الأول، مصعوقاً وهو يصرخ به: هل أنت مجنون؟ بلا عقل...

تراجع الثاني، إزاء هذه الحدّة، وخشي أن يعقبها هجوم بالرأس...

- أنا... انا... أرثي لحالها... لاشك إنها الآن كائن. بلا يدين، بلا ذراعين بلا... قدمين، بلا ساقتين. بلا شفتين. بلا منخرين... بلا... بلا... بلا...

وسكت. منقطع الأنفاس، يمسح العرق المتصبب من سائر أنحاء جسمه... بالرغم من برودة الجو... وإمتلائه بالنسائم الربيعية. هزّ الأول رأسه بإستخفاف بالغ:

- أنت من ينبغي أن يُرثى لحاله. وأضاف بحكمة خبير، وخبرة حكيم ومجرّب: إن من تتحدث عنها يا هذا، مخلوق خرافي، بملايين الأيدي والأذرع والأرجل... والمخالب والأنياب والقواطع، تشرب، تعبّ... تأكل، تفترس تقضم حتى العظام، بلا تعب ولا كلل، ولا توقف ولا شبع كأنها جهنم نفسها، التي يقول عنها جلّ شأنه، ويوم نقول لجهنم، هل إمتلأت فتقول هل من مزيد... وهي...

قاطعة الثاني بنفاد صبر:

- مع هذا... مع هذا...!

ثار الأول وتمنى لو يملك كفين ليصفعه بهما... معاً... وصرخ:

- كيف... مع هذا...؟

أجاب الثاني موضحاً بقدر من التروّي واللإنفعال:

- إسمع، يا صديقي، أنت دفعت ذراعين، بكل ما فيهما من أوردة وشرايين وعظام ولحم وجلد وشعر ودم ثمناً لسرقة واحدة، لإسكات نباح جوع آنيّ، مؤقت ربما في داخلك... فما بالك بسرقات مخلوق خرافي كالذي تصف؟ كم سرقة يمكن أن يرتكب في اليوم الواحد؟ ها؟ كم؟ كم؟ أجبني لاتعنفني.

أجاب الآخر دون أن يخرج من (صَفنتهِ) كلياً:

- يستحيل تعدادها في اليوم الواحد.

صرخ الثاني آخ وهمَّ أن ينخرط في البكاء لولا أن الأول سارع ينقذه... وهو يقول...

- لو... لو... سألتني عن الثانية الواحدة، لربما إستطعت أن أعطيك أرقاماً تقريبية.

صاح الثاني بلهفة، وصبر نافذ:

- أعطني... أعطني وأنا أضرب الثانية في الستين وأصل الى الدقيقة. وأضرب الدقيقة في الستين وأبلغ الساعة وأضرب الساعة في ...

- هراء، ما الستون... وستين الستينات. عليك أن تضربها في الملايين، بل

البلايين... وربما، بلايين البلايين...

- سأضرب. سأضرب (وأسرع يخرج من جيب سترته، قلماً وأوراقاً وهو يقول في إضطراب وإستعجال) أضرب... أنا... قويّ فيّ الحساب" منذ... أيام الدراسة الإبتدائية... وأنت... تعرف ذلك... وتشهد بتفوقي الكبير...

- إنها... بعدد رمال الصحراء العربية. وصحاري الدنيا، زائداً عدد حصى الخليج العربي وخلجان العالم وبحاره وأنهاره، زائداً عدد الشعر الذي يكسو رؤوس سكان الكرة الأرضية وجلودهم وجلود حيواناتهم، زائداً عدد الحسرات والآهات والأكاذيب والخيانات... وهبات المطر. وأوراق الشجر. وقطرات البحر و...

- كفى... كفى... لقد صدّعت رأسي...

قاطعة الثاني متوجعاً ممسكا برأسه بين كلتا يديه... قهقه الأول ساخراً:

- تعبت؟ ولما... أبدأ...

- المهم، توصلت الى ما أريد... إسمعني... مع هذا العدد، غير القابل للعدّ من السرقات لابد أن تكون الآن قد غدت شيئاً بـ... بـ... بلاشيء - أي شيء... فأي كائن مهما كان خرافياً، أسطورياً، لابد أن ينتهي به الأمر الى الفناء والإندثار...

أجاب الأول... بدراية وعلم:

- إلاّ... السيدة المدللة... خرابكو...

بينما ثار الثاني، وقد فقد أعصابه تماماً: لماذا... لماذا؟ أي منطق هذا... هـ... هـ... هل ينبت لها مليون ذراع، كلما قطعوا لها ذراعاً واحدة؟

"عقّط" له الأول: إنهم لايقطعون لها إصبعاً واحدة... ولا يقلمّون لها ظفراً واحداً مع أن شروط النظافة توجب تقليم الأظفار كلما طالت عن حدّها... وشرعت تجرّح أو تخدّش...

بدأ الثاني يضرب الأرض بقدميه ويصرخ بهستريا:

- لماذا؟ لماذا لايفعلون... ما إمتيازها على الآخرين؟

همس الأول: إقترب مني... إقترب أكثر، أكثر أكثر، وإذ تلاش الهواء بينهما، أدخل الأول: فاه في أذن الثاني وعيناه نقطتا زئبق:

- اليد اليمنى. لاتقطع اليد اليسرى......

- لايمكن... مستحيل.

زعق الثاني مرة أخرى: لماذا؟ لماذا؟

حار الأول في أمر صديقه، الذي لايفهم. ولا يريد، أو يحاول، أن يفهم:

- لأنهما خارجتان، من جسم واحد...

- و... و... يداك، ذراعاك.

- خارجتان من جسم آخر. غريب عن الغولة، لايمت إليها بصلة ولا الى اقربائها، ولا حتى الى عبيدها وخدمها.

٢- فقدان الذاكرة!

كان الشارع الذي يسيران فيه، دون أن يعرف أي منهما أسمه، أو موقعه، ودون أن يهتما لذلك أدنى إهتمام، خالياً تماماً. لابشر ولا شجر أجرد كلياً، لاماء ولا ثمر.

كان الوقت ظهيرة، ظهيرة تموزية. شديدة القيظ. الشمس تطلق... سهاماً نارية، تنعكس على وجه الأسفلت، المجدور، المليء بحفر عديدة، مبثوثة هنا وهناك، فائضة بالمياه الآسنة، والوحول الدبقة. ترتد أشعة الشمس، إذ تسقط فوقها، أخرةً ملتهبة، تكاد تغطيهما وتخفيهما عن العيون، وهما يسيران ببطء وثوءدة وإتزان، غير مباليين إطلاقاً بالحر الذي يشويهما، ولا بالعرق السائل من كل مسامات جسميهما. مستمتعين، بشكل غريب وشاذ، بهذا المناخ الجهنمي، الذي لايطيقه حتى الحجر... فيهرب منه متدحرجاً الى أي ظل، وظل أي شيء...

- أنت يا صاحبي وصديقي الأوحد... مريض.

قال الأول دون أن ينظر في وجه صاحبه، ردّ الثاني دون أن يلتفت نحوه هو بثقة عالية بنفسه، تفوق ثقة الطبيب العالم، بعلمه:

- أنا، والحمدلله الذي لايحمد على مكروه سواه، في أتمِّ الصحة والعافية. وتجنب بحذق ومهارة، حفرة مياه آسنه، كاد يسقط فيها، فيخسر إحدى ساقيه، ويغدو مثل صاحبه الذي فقد كلتا ذراعيه، في حادثة لاقرابة ولا تشابه بينهما.

إحتدَّ الأول. وكان منذ حلاً في هذه المدينة التي لايعرفان إسمها ولا موقعها على الخارطة، أو على الأرض، قد صار حاد المزاج، مشاكساً، كثير الغضب لأوهى الأسباب وأتفهها، إلا إنه، هذه المرة، سيطر على نفسه ومسك زمام أعصابه بقوة، ولم يدعه يفلت منه، بالسرعة التي إعتاد بها الإنفلات، سابقاً.

خاطب صديقه، تحت غطاء، من الهدوء والرقة والرصانة. وإن كان غطاءً واهياً، يمكن أن يتمزق في أية لحظة، أو يُخترق بسهولة ويسر. مع الشرارة الأولى من نيران غضبه، التي توشك أن تشتعل، دون إرادة منه، ولا حتى رغبته في إشتعالها. وإتلافها لتأكل اليابس، وإذ لاتشبع تزحف نحو الأخضر، وتلتهمه إلتهاماً، دون أن يتركه لما يجب من الزمن... كي تيبس. أو يجف حتى:

- لاتعارض ياصديقي. أنت مصاب بمرض خطير، يدعي... يدعي... يدعي...

وأخذ يضرب رأسه بظهر صاحبه، وهو يردد مخاطباً نفسه...

- ماذا يدعي... يدعى ماذا... تذكر... يا هذا... تذكر... يا حمار... تذكر... آه. تذكرت... إسمه العلمي... أعني الأكاديمي... الإكلينكي... فقدان الذاكرة. بالضبط... فقدان الذاكرة...

إنتاب الثاني قلق مفاجيٌ... مشوب بفضول، ممزوج بمخاوف، إنبثقت من مكان ما في داخله:

-... ما... ما... و... فقدان... ما...ذا... ماذا...

- الذاكرة... فقدان... الذاكرة...

- و... وما هذا المرض... ما أعراضه.

غمر الأول فرح طاغٍ... نزل على نيران غضبه التي توشك أن تندلع، برداً وسلاماً إذ سمع هذا السؤال. الذي كان قد خطط له جواباً. لانظير له. توقف عن السير... سعل بضع سعلات، ألقى على صاحبه نظرة خاصة، تضفي عليه وعلى جوابه، كمية هائلة من الأستاذية والعلم والمعرفة...

- اعراض هذا المرض، ياسيدي، وتاج رأسي، يا محفوظ السلامة، هي... هي ما أنت فيه بالضبط.

وقبلما يدع فرصة لصاحبه، يطرح عليه سؤالاً آخر، لم يعد له جواباً، أو يتطلب جوابه غير الذي أعدّه في ذهنه، واصل كلامه بسرعة...

- لا يعيش معك شيء من ذكريات الماضي، ولا يزورك شيء من أحلام المستقبل أو آماله. واللحظة التي تحتويك، تنساها أول... ما تغادرك...

- انها لنعمه... ما أنا فيه نعمه كبرى...

صرخ الثاني ببهجة، صعق لها الأول، وعادت نذر الغضب بسرعة تلوح في الأفق، وسحبه السوداء الفاقعة، شرعت تطل برأسها من كلماته:

- بل... إنها النقمة... نقمة حقيقية. الحياة بلا ذاكرة حيّة نشطه، تصنع. لها جسوراً، قوية، متينة، تربط الأمس باليوم واليوم بالغد... هي العدم بعينه.
- على الضد، على الضد.

أصرّ الثاني على موقفه، هاملاً، ارهاصات العواصف والزوابع التي تترا ءى على وجه صاحبه، وإستمر يشرح له:

- بوجودها، أعني الذاكرة، تغدو الحياة مأساة، فاجعة حقيقية، إذ تمتد مخالب الماضي الدموية، من خلالها، فتمسك بخناق كل لُحيظه فرح قد تخطيء طريقها وتطرق بابك، لتسكنك بعض الوقت. كما أن أفواه المستقبل الشرهة النهمة، الشرسة جداً، تحدّ أنيابها، لتفترس وتلتهم كل هنيهة راحة تحتضنك.

كان الأول يصغي إليه بصبر يقضم رصيده...

- ها...؟ وبعد... وبعد...
- بينما يدونها، بدون الذاكرة التي نقصدها، يظل الواحد منا يتعامل مع اللحظة، بل ومع الزمن كله ببرا ءة... ونقاء... وتوليه، تحسده عليها قديسات الدنيا والآخرة، إذ يرينه أعذر... محتفظاً ببركاته الى الأبد.

نجح في كبح جماح غضبه، وهو يقول... بإنفعال يخنقه الهدوء... الذي يصطنعه... مضطراً:

- هراء!! في هذا الزمن الشاذ، المنحرف، لابكارة تبقى سليمة الى الأبد...

تسلح الثاني بعناد البغل:

- بل تبقى... خاصة إذا عرف المرء كيف يصونها ويحافظ عليها. وبالضبط إذا فقد ذاكرته، المعجونة بمآسي الماضي. ومخاوف المستقيل، وحنّط نفسه في اللحظة، لايعيش سواها، فيغدو إذذاك مثل طفل رضيع، شرع لتوه يتنفس هواء العالم خارج رحم أمه، ففي هذه الحالة...

ولم يدعه الأول يكمل عبارته... إذ طفح به الكيل، بعدما ظل يغلي، منذ

فترة غير قصيرة، كقدر مغلقة فوق نار غير هادئة، فصرخ به:

- كفى... كفى... لعلك لاتعرف، وإذا كنت لاتعرف حتى اليوم، فاعرف منذ الآن، أن واحداً من أشد الأمور التي تصيبى بالقرف والهستريا، هو التفلسف والفلسفة...
- ولكني لا أتفلسف ولا أعرف شيئاً عن الفلسفة... وأنا...
- إسمع... أنت تسمع حسب... لاتعتبرني ضعيفاً، أو غير قادر على إلحاق الأذى بك، لأني لاأملك ذراعين، اني قوى كالثور، بنطحةٍ من رأسي أبقَرُ لك بطنك.

تراجع الثاني... كما إعتاد أن يفعل، كلما رأى في التراجع السلامة...

- أنا... في الحقيقة... أنا...

قاطعة الأول، مواصلاً هجومه، بكل عنفه:

- أنت تفكر... وهذا وحده كاف أن أنسى كل صداقتنا، وأعتبرك واحداً من ألدّ اعدائي، وإذ أعتبرك كذلك، أمنح نفسي الحق، كل الحق، في شق بطنك وترك أحشائك الداخلية تندلق، بلارحمة ولا شفقة. ولا حتى، أي تأنيب ضمير... أسكت... أسكت... ولا تتماد...

لزم الثاني الصمت. ولكن الأول الذي هاج لم يلزمه، بل إخترق كل حدوده، وصرخ به آمراً، أسكت... أسكت، كلما خُيّل اليه إنه يهم أن يفتح ياه، مع أن الولد إبتلع لسانه تماماً، وراح يرنو إليه يرعب حقيقي ينمو... ويتسع. وهو يقلده مستهزءاً:

- الإنسان لحظة! الإنسان طفل، البكارة تبقى... كذا وكذا.

وصرخ فيه بقسوة: الإنسان ياهذا تاريخ. تاريخ متواصل الحلقات... متصل الفقرات. هذه تؤثر في تلك... وتلك تؤثر في هذه وتتأثر. أن ما تقوله هراء، محض هراء وإفتراء و... و... خراء...

شرع الثاني يتوسل به، يزرعه بالقُبل من قمة الرأس حتى أخمص القدمين:

- أرجوك. لاتقسَ على، أرجوك... إرحمني...

بينما يشمخ الأول بأنفه، ويتمادى في تعاليه وتكبّره، ويقول بصوت

متهدج، مدوي كما لو كان صادراً من كهف مهجور:

- لا... رحمة... بالخاطيء، لاغفران... للمذنب...

ويتمادى الثاني في إذلال نفسه وطلب المغفرة.

- لا... لاتغلق في وجهي... أبواب المغفرة... لاتغلق أمامي أبواب الرحمة.

شرع الأول يلين:

- لست أنا الذي أغلقها... ياسيدي...

- مَنْ؟ إذن مَن؟

تساءل الثاني وهو يوشك أن ينحرط في البكاء... بينما إنحرط الأول في البكاء فعلاً... وهو يقول بصوت متقطع. تخنقه الدموع:

- هم... هم... قساه القلوب، غلاظ الأفئدة، معدومو الروح... الذين قطعوا كلتا يدي، وأغلقوا في وجهي كل الأبواب، ولم يتركوا لي حتى يداً واحدة، افتح بها باباً... واحداً... لك...

وإنغمر في بكاء حاد متشنج متواصل، لم يستغرب الثاني حاله، فقد إعتاد منه هذه التحولا ت الإنقلابية، والحالات المفاجئة الصاعقة... التي يلقى بنفسه، في خضمها... بلا مقدمات. ولا سابق إنذار أو تحذير... فتركه، على راحته، يسفح دموعه المدرارة، بغسل بها همومه وأحزانه، ويرثي ذراعيه... ويصب اللعنات، تلو اللعنات على ملوك النفط وأمرائه، دون توقف ولا تنفس... لماسببوه له من عاهة دون وجه حق...

٣ - الجنون والعقل

قال الثاني يواسي صديقه، ويخفف عنه إحساسه الشنيع بالإحباط الشامل:

- لاتحزن يا صديقي. سيأتي يوم تعرف فيه نفسك، وإذذاك سوف تقدرها حق قدرها.

قال الأول، وطعم الفشل، في كل شيء، حتى إحترام نفسه يملأ فمه بمرارة لاحدّ لها:

- لا. لا... لاأحد يعرف نفسه، لاأحد بوسعه أن يعرف نفسه.

- بل هناك، هناك من يعرف نفسه.

أخبر الثاني بيقين إستفز الأول وأثار فضوله وإستنكاره في الوقت نفسه:

- أين؟ دلّني...

قالها بنبرة تحدٍّ، يمكن أن تفضي الى الشجار والعنف، بينما أجاب الثاني ببرود، لايعكس أية رغبة في تصعيد الموقف:

- ببساطة، ببساطة شديدة، في مستشفى المجانين.

خفف الأول من غلوائه، بعض الشيء. وأحلّ، محل التحدي، في نبراته، ماينمُّ عن التوسل، أو... أو الرجاء... والإلتماس:

- أودّ لو ألتقي... بواحد منهم...

أجاب الثاني، غير حافل بتوسلاته... بل ومستهيناً بها.

- لا. لاسبيل. ثم أضاف في وقار أبٍ ينصح إبنه الصغير:

- يُمنع العاقل من اللقاء بالمجنون.

- لماذا؟

تساءل الأول بدهشة. مشوبة بنفاد صبر، يكاد يحلّ محل فضوله:

- لأن... لأن... وسكت.

بينما إستحال وجه صاحبه الى علامة إستفهام. لم يعرف ماذا يقول، إذ لم يكن قد هيأ في ذهنه أي جواب لهذا السؤال المفاجيء، إضافة الى أن ملامح صديقه التي راحت تنتفض... ونظراته التي أخذت تتقد. قد جعلتاه يتوجس منهما... خيفة، أربكته بعض الوقت. وإذ تدارك أمره، ولملم نفسه... أسرع بقذف ماتشكل في ذهنه من كلمات، دون ترو. ولا إهتمام بمقدار ماتنطوي عليه من صدق، أو قدرة على إقناع صاحبه:

- لأن... لأن العاقل والمجنون، حين يلتقيان. يتبادل العقل والجنون موقعيهما الداريين... أعني... أعني... وضيفتيهما... ألأ... ألأ...

أسرع الأول يقاطعه، بإستهانة:

- ليتبادلا. ماالذي يحدث؟ أي ضرر في ذلك...

أجاب الثاني وهو يسبغ على كلماته... أقصى ما يملك من قدرة على إضفاء الإهتمام، مستخدماً كلتا يديه، وجميع أصابعه:

- هو هو هووه... كارثة... ياصديقي العزيز، كارثة أكبر وأخطر من تصادم جرمين سماويين...

نفد صبر الأول تماماً. فهجم عليه بوحشية، وشرع ينطحه بشدة وعنف. كما ينطح كبش مجنون شبق نعجة بائسة مسكينة، عجزت أن تريحه كما ينبغي:

- هراء، ماتقول محض هراء...
- آخ... آخ... لاتنطحني بهذه القسوة، لم أفعل مايستوجب هذه الوحشية.
- بل فعلت... فعلت مايستوجب وحشية أشد وأقوى وأعنف... ولكني بلا يدين. ولو كانت لديّ يدان، لهرستك هرساً، وعجنتك عجناً... وخبزتك خبزاً... وأكلتك أكلاً... وثم لفظتك نفايةً دسمة للذباب.

بسط الثاني كفيه ورفعهما نحو السماء، إذ صار في منجى من نطحاته:

- أحمدك يارب الحمد كله... أشكرك يارب الشكر كله... وها أنا... أصلي لك... و...

ولم يدعه الأول، إذ عاجله بنطحة قوية من رأسه... أسقطته أرضاً.

- هيا... قدنى إليهم... هيا...

تمرغ الثاني في التراب وهو يئنّ... ويسأله:

هل ضقت ذرعاً بعقلك... إعقَلْ... يا هذا... إعقل. ولا تفرّط بعقلك.

قال الثاني... وهو مايزال يخور كثور هائج... لوّح له أحدهم بلون أحمر:

- هذا العقل الذي يسكن رأسي، أو مكاناً آخر لا أدري أين يقع في جسمي، ذي الأمكنة العديدة، والدهاليز الكثيرة... قد أتعبني. وبات يوردني... المزالق والمهالك.
- ولكن غيابه لن يريحك، صدّقني... يا عزيزي... صدّقني فانا لك ناصح.
- لا. لا. أريده أن يطير... يطـ... يرـ...ررر... يطيـــ... رررر.

أخذ يتمايل يمنةً ويسرة، مثل درويش غلبه الوجد:

- هيا... خذني... هيا قُدني... هيا... هيا... هـ... يـ...يـ...!!!

تماسك الثاني... ونهض من سقطته... وصرخ:

- مستحيل... ماتطلبه... هو المستحيل بعينه.

نطحه الأول نطحه أخرى، أقوى وأشد... ولكن الثاني تجنبها في الوقت المناسب ولم تمسه إلا قليلاً... فصرخ الأول:

- المستحيل كلمة في قاموس المجانين...

وعاد الى رقصته الدرويشية اللولبية المتمايلة، وهو يردد:

- انا لاقاموس لديّ... أنا رجل بلا قاموس.

وزاد دورانه حول نفسه، دوراناً ذاتياً مستمراً. حول الثاني الذي راح يحاربه ويصفق له... ويدور مثله... مترنحاً، وهو يردد... بإيقاع خاص:

- أنت حيوان شره، بعت قاموسك من أجل اكلة...

أنت حيوان شره بعث قاموسك من أجل أكله...

أقلع الأول عن حركاته ودورانه... وراح يرقص... ويردد، مثل الثاني:

- بل من أجل أنثى... دسمه وثيرة. دسمة وثيرة، دسمة وثيرة...

ثم توقف فجأة عن الدوران والرقص وصاح به؛ بالإيقاع نفسه:

- هيا، قدنى إليهم... هيا خذني اليهم... هيا... هيا... هيا...

وبدأ ينطحه ثانية، ويدفعه أمامه، كما ينطح الكبش راعيه. ويدفعه أمامه، والكبش لايدري. والراعي لايدري. اين يسوق... ولا أين يُساق.

٤- الأمم المتحدة تكافح الجائعين!

- أتدري؟

سأل الثاني، طاب للأول أن يمازحه، إذ كان في مزاج رائق الى حد ما. وهي حالة نادراً ما تصيبه، ويجد نفسه متلسباً بها:

- لا. لا أدري.

عاد الثاني يسأل بإستغراب:

- ماهو الذي لاتدريه؟

أجاب الأول بلامبالاة:

- ذلك الذي سألتني عنه.

- وما هو؟

- لا أدري؟

- إذن كيف دريت إنك لاتدري. ربما كنت تدري لو تريثت حتى تسمع السؤال.

- ولكنك يا جحش... يا غبي... يا بليد... لم تطرح السؤال أساساً ولم أسمعه... فكيف أعرف جوابه...

- صدقت. (آمن الثاني وأضاف)... أردت أن أعلمك بأننا إجتزنا مخبزاً.

- مخبزاً، أين؟ متى؟ كيف عرفت؟

- من الحرارة، الحرارة الشديدة التي شوت صفحة وجهي اليسرى.

أجاب الأول متصنعاً الحكمة والتفلسف... والمعرفة...

- الحرارة... وحدها... ليست... دليلاً... كا... كافياً...

- أنت عنبد كالبغل...

- وأنت أحمق كالحمار... خفيف العقل، أو معدومه كالسمكة... و... و جائع.

- جـ..ا...ئع...؟ تساءل بهمس لايكاد يُسمع.

- جائع كالجاموس... الجائع وحده الذي يتعرف على المخبز إذ يمرّ به... لأن أحشاءه الداخلية... تبدأ تتراقص على أنغام الجوع. فأنت إذن جائع... جائع... حتى النخاع... وجو...عك... لا...

هجم الثاني عليه... وسدّ فاه...

- حسناً... حسناً. لاترفع صوتك، لاتصرخ... لاتدع أحداً يسمعك.

تساءل الأول بصوت مخنوق، يتنفس بصعوبة من بين فتحات أنامل صاحبه اللاصقة... بغية:

- نحن... نحن... لانخالف القوانين العامة... ولا الخاصة.

- بل نخالف. وندوس عليها، وفي أشد مناطقها حساسية وقدسية. وبأقدامنا وبأقدامنا المشبعة بالوحول والأقذار... تعال... تعال...

وجرّه نحوه بقوة:

- ثمه لجنة منبثقة من هيئة الأمم المتحدة، إسمها لجنة مكافحة الجوع، ماتسمع بنا حتى تطير إلينا على جناح السرعة... وتكافحنا.

تساءل الأول، الذي داهمه جوع شديد السرعة... و شرعت سكاكينه تمزّق أحشاءه:

حقاً...حـ... حقاً...؟

- ولهذا السبب تخصص لها الدول الأموال الطائلة والمعدات الفتّاكة واللوازم القانونية، من قوت شعوبها وحاجاتهم المادية والمعنوية...

إستحال الأول الى كتلة من الفضول، يجوّفها الخوف والجوع:

- تعني... تعني... أن الدول تجوّع ناسها... وتُشبعُ هذه اللجنة؟

- لكي تصبح قادرة على إفناء الجائعين في لمح البصر، ولا يعودوا ينابيع للقلق والأرق، والفوضى والإضطراب... لأثرياء العالم...

أخذ الأول يتلوى:

- و... ومع... هذا... لايزال العالم يفيض بالجوع والجائعين... آخ... آه... آخ.

وراح نطوي على نفسه حتى يكاد يتكرر، وهو يصرخ، متوجعاً... متألماً... بحرقة... أحاطه الثاني بذراعيه... كما تحيط الأم الرؤوم وليدها الخائف

البردان... برقة وحنان:

- ما بك؟ ماذا جرى لك؟ قبل هنيهة كنت في أحسن حال...

شرع الأول يبكي ويولول، والدموع تنحدر على وجنتيه ولا يستطيع حتى مسحها، أو تجفيفها:

- الجوع... الجوع أنشب مخالبة في معدتي... كشرّ عن أضراسه وأنيابه الذئبيه وأخذ يفترسها... يمزقها، يقطعها... آه... أنجدني... ياصديقي. أسعفني. الجوع... يأكل معدتي وأمعائي... و...

- أتركه... أتركه. يأكل... خبر مايفعل... دعه يأكلها حتى يأتي على آخرها.

زعق الأول:

- كيف؟ ياهذا... كيف؟

- لم يقل العلماء، ولا القدماء، عبثاً، أن المعدة بيت الداء، فهي حقاً مستنقع الأمراض والآفات والكوارث... والزلازل... والبراكين... و...

قاطعة الأول، إذا بدأ له إنه لاينوي التوقف، بقلق متصاعد:

- و... ولكن كيف أعيش بدونها... كيف أحيا من غيرها...

أجاب الثاني بثقة ويقين صارمين يفتقر إليهما حتى فتّاح الفال:

- أرغد حياة... أسعد عيش... أرغد عيش... أسعد حياة.

وفشل كل حماسه وتأكيده المبالغ فيه، أن يحملا اليه، ذرة واحدة من الإقتناع فظلّ يهز رأسه، رافضاً أن يتخلى عن معدته، مما دفع الثاني أن يسير أبعد في محاولا ته ويقول:

- فكرّ... فكر... ياحمار... أليست هي التي دفعتك الى السرقة حين كنت هناك في الغربة؟

طاطأ الأول رأسه موافقاً. فمنح الثاني، دون قصد، شحنة قوية من الأصرار والإستزادة في المحاولة.

- أليست السرقة هي التي إبتلعت كلتا ذراعيك؟

صرخ الأول وقد بلغ به الضيق أقصى مداه... وهو يضرب الأرض بقدميه:

- بلى... بلى إلامَ تريد أن تصل...

- الى ضرورة خلعها من بطنك.

وأضاف نبرة خاصة:

- إلا... إذا كنت راغباً في التضحية بالمزيد من أعضاء جسمك في سبيل صاحبة الجلالة. الملكة المتربعة على عرش بطنك.

بكى الأول بمرارة. ودموع غزيرة:

- لا. لا... كفاها... ما أخذت... مني.

- إذن دع الجوع يأكلها... أو... أو أسرع واخلعها من على عرشها... وقدمها لقمة سائغة للكلاب السائبة، هذه الخائنه القذرة، التي لاتساوى قلامة ظفر، من أظفارك العشرة، التي فقدتها كلها دفعة واحدة من أجلها... أو... أو... في سبيلها.

عاد الضيق يحاصر. ويعصر روح الأول:

- ولكن، كيف... يا إلهي... كيف؟ ماذا أفعل... ماذا ينبغي أن أفعل؟

- إفعل... كما تفعل سائر الشعوب إذ تضيق ذرعاً بملوكها، فتسوقهم الى ساحات الإعدام... أو تذبحهم كالنعاج وهم في حظائرئهم...

هزّ الأول رأسه بحيرة وقلة حيلة... بينما استمر الثاني. دون أن يفترّ حماسه الذي شرع يضعف صاحبه إزاءه. يؤججة ويُلقِم نيرانه المزيد من الحطب اليابس... المبلول بالزيت:

- خذ الشعب الروسي مثلاً الذي ذبح كل قياصرته، في لمح البصر، أجمل... ذبح... وقبله الشعب الفرنسي... قطع رؤوس كل ملوكه أنظف قطع دون قطرة واحدة من الدم... وجاءوا بغيرهم في غمضة عين.

إنفجر الأول إنفجاراً شديداً:

- وما الجدوى ياحمار... ما الجدوى يابغل... إن كل من يجلس في مكان المعدة، يصبح معدة.

ورفع رأسه الى السماء... وودّ من أعماقه... لو كانت يداه، ما تزالتان معه... ليرفعهما... أيضاً، نحو السماء، متوسلاً، مبتهلاً...

- آه. ليتك يارب... ياقادر ياقدير... يا من خلقت الإنسان في أحسن تقويم لم

تضع في جوفه هذه الجيفة، النتنه الشرهة الشرسة... المدعوة... المعدة... أو على الأقل... لم تمنحها هذه السطوة... والنفوذ... عليه...

صاح به الثاني بغضب متقد...

– إخرس يا هذا... أخرس... لا إعتراض على مشيئة الله، وأرادته، جلّت قدرته...

وحين همّ الأول أن يفتح فاه، دفاعاً عن نفسه، ونفياً لظنون صاحبه السيئة به، عاجله بصفعة قوية... وصرخة... مدوية:

– أقول إخرس، إخرس ولا كلمة... ولا حرف... ولا حس...

الجّزارون الشعراء . الشعراء الجّزارونُ!

كانا يسيران معاً. الثاني يتقدم الأول بضع خطوات. صاح الأول، الذي يتأخرُ عن الثاني بضع خطوات بصوت عالٍ لكي يسمعه بوضوح:

– الجزارون باتوا يملأون الدنيا...

قالها بلا أية مناسبة.

أهمله الثاني، لم يلتفت نحوه، لم يعلق بشيء، بالرغم من إنه سمعه جيداً. رفع الأول صوته، إذ حسب أن الثاني يسبقه بضع خطوات لم يسمعه ولهذا السبب لم يردّ عليه بشيء:

– إينما تلتفت تلقَ جزاراً.

إلتفت الثاني، هذه المرة، نحو بسرعة. صارخاً كمن عثر فجأة على كنز عظيم أو إكتشف سراً رهيباً من أسرار الكون:

– أنت جزار.

قالها كحقيقة ثابتة، وبيقين جازم، كمن يقول لأبيه. يارجل أنت أبي أو يقول لإبنه... ياولد أنت إبني.

– أنا ؟

إختضّ الثاني مرعوباً بإستنكار شديد، كأنه يدفع عن نفسه تهمة خطيرة تسوقه الى الإعدام، وأضاف بكلّ مايملك من قوة وحرارة وحماس وهو يضرب الأرض بقدميه:

– لست كذلك، لست كذلك البتة!

بينما أصرّ الثاني:

– ولكني تلفتُّ... ورأيتك. إذن لابد أن تكون جزاراً. وأبوك أيضاً جزّار.

أسرع ينفي بشدة:

- لا... لا... أبداً.

ثم أضاف وهو ينفخ أوداجه. ويضخِّم نبرة صوته:

- أبي... أبي شا... عررر.

أجاب الثاني بإستهانة، لاتناسب هذا الإهتمام الأعظم الذي يسبغه الأول على كلامه وهو يتحدث عن أبيه بإقتضاب شديد:

- لا فرق.

ثار الأول، وعاد يضرب الأرض بقدميه. مثيراً غباراً كثيراً وهو يكاد يُجَنُّ.

- كيف لافرق؟ الشاعر شاعر. والجّزار جزار... والفروق بينهما كثار و... كبار.

ردّ الثاني ببرود:

- لافرق، لافرق البتة، مادام كلاهما يذبح.

إستمات الثاني في الدفاع عن أبيه وشاعريته...

- بل ثمة فرق... وإختلاف. بل. بل... فروق كثيرة وإختلافات عديدة... في... في المذبوح...

أجاب الثاني بيقين لايتزعزع ولا يهتز، جواب العالم العارف بكل شيء...:

- وأيّ فرق ياحمار؟ هذا يذبح الخراف المسكينة والحيوانات البائسة، وذاك يذبح الكلمات البائسة والحروف المسكينة. وهي كلها كائنات لاحول لها ولا قوة...

هزّ الأول رأسه بحزن، يرثى هذه الكائنات:

- لاحول ولا ... قوة إلا بالله...

وأراد أن يضرب كفا يكف، متشبهاً بأبيه الذي رآه أكثر من مرة يفعل كذلك، كلما هرب من سكينه التي قضى ساعات في حدّها وتلميعها خروف أو عنزة... أو إستعصى على قلمه الذي قضى شهوراً وهو... يبريه ويحدّه حرف... أو كلمة... ولكنه إكتشف إنه بلا بدين وبالتالي بلا كفين... فاخترقه ألم حادّ أحدّ من سكين الجزار وأنفَذُ الى القلب من قلم الشاعر... فتفجّر في عينه ينبوع دمع... ممزوج بالدم، بينما واصل الثاني مستمتعاً بساديته وملتذاً بما يوقعه... بصديقه:

- الأثرياء يأكلون لحوم الحيوانات. وملوك النفط والأمراء يأكلون لحوم الكلمات. ثم يمسح أولئك شفاهم بمناديل ورقية صنعتها الشركات الأمريكية... وهؤلاء يجففون أفواههم بجلود بشرية غسلتها مياه البحار العربية، وطهتها رمال الصحراء العربية... وشوتها نيران الشمس العربية.

داخ الأول. وكاد يسقط على قفاه، فقد هاله وحزّ في نفسه الى أبعد حد أن يكتشف بأنّ أباه جزّار يذبح الكلمات. وشاعر يذبح الخرفان، ليطعم ملوك النفط الأوغاد وأمراءه الأنذال. أولئك اللصوص السفلة الذين سرقوا منه، في وضح النهار وأمام عيون كل البشر، كلتا ذراعيه.

لم يجد في كل مفردات لغته عبارة، ولا حتى كلمة ترتفع الى مستوى المقام، لقولها، فآثر الصمت... والدخول الى نفسه، يعضّها... يضربها دون توقف... وبلا رحمة.

جثم الصمت بينهما، جبلاً لاسبيل الى إختراقه... أو زحزحته لفترة طويلة... حتى ملّ الجبل نفسه. وشرع يتململ... فإنتهز الثاني الفرصة وقال لصديقه برقة. وهو يربت على ظهره بمودة:

- وداعاً... يا صديقي... وداعاً...

- وداعاً؟

صعق الأول وصرخ مفجوعاً، مذعوراً:

- مـ... مـ... ماذا... تعني؟

أجاب الثاني ببساطة، ودون أي إنفعال... أو تأثر:

- لا أطيق الحياة معك.

توسل اليه الأول. باكياً... منتحباً:

- أرجوك... أرجوك.

لم يحفل الثاني برجائه، ولا توسلاته.

عقد يديه خلف ظهره وراح يبعد عنه بخطوات سريعة واسعة... لحق به الأول لاهثاً... وأخذ يتقافز أمامه... ويرسل إليه... نظرات... إستجداء... مثل شحّاذ...

يكاد يموت... وهو واقف أمامه:

- أ... أ... أرجوك... إسمعني... إسمعني... إسمعني حسب... لا. لاتتركني... أنا... أنا... لست ثرياً... ووو... لا... أملك... أو... أمير پترول... ثم... ثم... أنت نفسك... لست خروفاً... ولا ... كلمة... و...

إكتفى الثاني بأن قال، بنبرة تقطر أسى... وهو يزيحه من أمامه:

- من يدري... ياهذا... من يدري؟؟

علي مردان يتفجر...
بدموع من حصىً وحجر

لم يَفِضْ بعلي مردان إحساس بالعزلة والوحدة، بهذا القدر من المرارة، كما يفيض به الآن، بالرغم من أنه وسط أناس عديدين، وفي حديقة غنّاء مزدانة بالزهور والرياحين، ومحاط بمجموعة من الأحبّة، يحومون حوله، في حركة دائبة لاتكاد تتوقف. وكل إهتمامهم يتبأور حوله. وكل عنايتهم تنصبُّ عليه، وحده دون غيره، فقد غدا شغلهم الشاغل ولم يعد لهم من شغل يشغلهم سواه...

وإهتمامهم هذا من نوع غريب، لم يحظ بمثله من قبل، هذا يرنو إليه عبر هالة من الإجلال والإحترام. ذاك يتلمس وجهه بقدسيّة ورهبة، آخر يتأمله بمهابة ويتفحصه من كل موضع، بدقّة متناهية، لايترك فيه صغيرة ولا كبيرة، كمن يدرس هيكل كائن خرافي منقرض. أو على وشك أن ينقرض، وقبلما ينقرض، فتفوته إذذاك فرصة الإحتفاظ بصور تفصيلية، شاملة عن كل مافيه، فيقترب منه حتى يتلاشى فيما بينهما الهواء. ثم يبتعد عنه بضع خطوات سريعة، ليدقق فيه النظر عن بعد. ويشرع بعدها بحديث متواصل، مع هذا أو ذاك، مشيراً إليه، بين آونة وأخرى إشارات خرساء، ثم يعترض على أنفه، ويعتبره كبير الحجم، فيسرع إليه، ويشرع يفركه له، بعض الوقت، ولا يلبث أن يعاود سيرته في الإبتعاد والإقتراب منه مرة أخرى. ومرات أخر. في حركة لولبية، دائراً حوله بعناية فائقة وتمهل شديد وإذ يصل الى قناعة ورضا، ينبري شخص آخر، معترضاً هذه المرة على شفتيه "لايعجب الأفندي منظرهما... إنهما غليظتان، بعض الشيء" خامس يتكلم ببطء مملّ محاولاً أن يضيفي أهمية إستثنائية على كلامه. لاشك أن دافعه الى إصطناعها هو إحساسه بإفتقاره إليها، في حد ذاته:

- أأأ. أنا أرى... إنه قد ظهر أكثر... شباباً... من...

يرد عليه ذاك الذي فرك لي أنفي قبل هنيهة، بإقتضاب وحسم:
– آنذاك كان كذلك.

وحين أضاف شخص ما من مكان ما، بقدر غير قليل من التفلسف:
– ألا... ترى ياأستاذ... أن صلعته... وا... واسعة...

أهمل ذاك الذي دعاه "الأستاذ" ملاحظته، وحسناً فعل الأستاذ... فأنا لست أصلع أصلاً، ناهيك عن كون صلعتي واسعة أو ضيقة. ولعلّ البياض الناصع الذي يصبغ شعري الكثّ، والذي تجعله أشعة الشمس الساقطة فوق رأسي، يلتمع، قد خدع نظره...

وتحدث آخر... وآخر، كأنهم في مباراة... وإشتبكوا مع بعضهم البعض في جدالٍ ونقاش، وحوار متبادل بعض الأحيان. وغير متبادل. من جانب واحد حسبُ، أكثر الأحيان، بأصوات عالية، صاخبة... حولي. معي، ضدي. ولكن بإهمال كلي لشخصي، ومن غير أن يكلّف أى واحد منهم نفسه بتوجيه أيّ من أحاديثه الدائرة عنّي... اليَّ لكأنني غير موجود بينهم تماماً، مع أنه أنا المعنيّ بكل أحاديثهم وأقوالهم... وجلُّ شجارهم إنما، يجري بسببي. ولكن لم كل هذا؟ وما الذي يجري بالضبط؟ ما سرّ كل هذا الإهتمام بي؟ وبملامحي وتقاسيمي وتقاطيعي؟ ثم... ثم... من هؤلاء الدائبون على تزييني وتجميلي... كأنني عريس يزفونه الى عروسه التي تنتظره. إني ياأولا دي أخطو نحو الثمانين والثمانون يا هؤلاء ليست فرحة. ضحك في سره إذ برق في ذهنه بيت شعر، قاله الشيخ رضا الطالباني وهو شاعر معروف بجرأته وإباحيتّه:

عومرم گەیشتا هەشتا (...) بەکارە هێشتا

بلغت الثمانين من عمري وما زال فعالاً (...)

ربما كان الحال كذلك في أيامك، ياشيخ رضا... هه هه هه، أما الآن... أضاف بنبرة حزينة – فالواحد منا يعطب وهو دون الخمسين، مابال هؤلاء الأخوة لايكفّون عني، ولا يتركونني لحالي؟... "دع أذني يا أستاذ... أو... أو... لاتفركها بهذه القسوة. ليكن حجم إحداها أكبر من حجم الأخرى ما شأنك أنت؟ هكذا خلقني ربي، هل تملك أنت لخلقه تغييراً، أستغفرالله؟ إهتّم أن كان ولا بدّ بعينيّ، فأني لا أكاد أتبين وجه أحد منكم ولا يسعني التعرف على أي منكم.

وعصفت به الدهشة إذ لقي نداؤه الصامت، صدى وإستجابه في نفس أحدهم كأنّ بينهما جسراً غير مرئي من التلاقي والتخاطب الروحي.
– أستاذ عيناه غائرتان.

تأمل الأستاذ ملاحظته:
– بسبب الجفنين. إنهما مطبقان أكثر مما ينبغي...

"إذن إفتحهما لعليّ أراكم... هيا هيا... ماذا تنتظر؟". وبمهارة وحذق ورقّة بالغة، راح يعالج جفنية... فهتف علي مردان من أعماقه "رحم الله... امك وأباك، يا أستاذ"

زالت الغشاوة عن عينيه وبات بوسعه أن يصبر كل من يقف في مدى نظره أو يمرّ من أمامه، ولكنه، بالرغم من ذلك، لم يتعرف على أيّ من الناس المحيطين به...

"شباب. شباب. إن نصف قرن من الزمن يجثم بيني وبينهم فأنىّ لي أن أعرفهم..."
– الآن... صار على مايرام. اليس كذلك؟

تساءل الأستاذ دون أن يوجه سؤاله الى أحد، ومن غير أن ينتظر جواباً ما...

عاد يتفحصه من جديد، عن قرب وعن بعد... ثم ألقى نظرة على ساعته اليدوية وأضاف بقلق:
– لقد تأخر فريق التلفزيون... سأذهب إليهم بنفسي...

وغادر بسرعة.

إنصرف الآخرون، الى الكراسي المكوّمة على بعضها، في الحديقة، وأخذوا يرتبونها وينسقونها... بينما راح آخرون، يهيئون منصّة كأنها للخطابة، أو لشيء آخر من هذا القبيل، ثم يجهّزون المايكروفونات ويخبرونها... بضربات من الإصبع، والنفخ فيها... وآلو... آلو... أينوون إقامة حفل؟؟ تساءل علي مردان بينه وبين نفسه... حفلُ ساهر. غناء وطرب. ومقامات... وموسيقي؟ أَم... أَم... لغرض آخر... لا أدري ماهو! آخ... لو... لو... يخبرني أحدهم... حسب. ولكن... أين هو هذا الواحد، المتفرغ للإجابة؟ الكلّ في خضّم العمل. الكل في

إعصار الحركة وبأقصى درجات المهمّة والنشاط... "آه... بعد كل ذلك الإهتمام الشديد والإحتفاء الغريب والعناية الفائقة بي... ها قد غدوت شخصاً مهملاً، وحيداً، مهجوراً، لاأحد يخاطبني لاأحد يتوقف عندي... لاأحد يستجيب لنداءاتي" إنتابه شعور بالإستياء والإمتعاض، فقرر هو الآخر، إهمالهم... إختفت أرضية حديقة چوارچرا "القناديل الأربعة" المعشوشبة... الخضراء،... الطرية، الندية، التي تتراءى خلالها قطرات الماء، إذ تعكس أشعة الشمس، نقاط زئبقٍ متلألئة، متراكضة لاتستقر على حال. فقد غطتها، أو كادت، الكراسي البلاستيكية الكثيرة، المبثوثة فوقه، بألوانها الزاهية، المتعددة.

من بين أغصان الأشجار الباسقة، التي تحيط بـ"چوارچرا" أبصر البدر يرنو اليّ، في خفر وحياء، يظهر تارة ويختفي أخرى، كلما حركت النسائم أغصان الأشجار وأوراقها الكثّة. موشحاً بغلالة رقيقة من سحائب شفافة بيض... فتكثف إحساسه بالوحد، إذ بدأ له، أنه، هو الآخر، حاله حال هذا الوجه المدور، السابح وحده في ذلك الفضاء اللامتناهي، وحيد مثله... وحيد بين هذا الزخم من الناس... فآنس إليه... وإنشدّ بأكثر من وشيجة. وكل وحيد، للوحيد أنيس وصديق وأليف... فراح يناجيه... مغنياً بنبراته الشفيفة... الحزينة... الحنون:

ئەی مانگ من و تۆ هەردوو هاوده‌ردین
هەردوو گرفتار یەک ئاهی سەردین

"أيها القمر كلانا، بالداء نفسه، مبتلى. وممزق الأحشاء بالحسرة نفسها"

داخله إحساس ينخره الخجل، بالأعجاب بنبرات صوته. لم يلبث أن رقّق نفسه وبات إحساساً صافياً، سليماً. يوشحّه قدر غير قليل من الفخر والزهو فما زالت نبراته نقية، وإذا كانت تشوبها بعض الخشونة، فإنها ليست الى الحد المنفّر، أو المؤذي للذوق. إلا إنه وبالرغم من إمتلائه بالإنسجام مع جمال صوته، توقف عن الغناء فجأة، إذ لم يعد في وسعه السير في خداع نفسه أكثر مما سار، وبات لزاماً عليه أن يقرّ بأن ماتخيّله، أو بالأحرى طاب له أن يتخيّله قمراً، بدراً، لكي يردّ مقامه الصعب "ئەی مانگ" ويمتحن خلاله، قدراته الأدائية بنفسه. ليس بدراً، ولا قمراً، إنما هو قرص الشمس، الملتهب المجمرّ، الآيل الى الغروب. وإن الوقت مازال مبكراً على بزوغ القمر... ولكن

قد فاض به الحنين الى الغناء، لمقاومة إحساسه الذي يغزوه من الداخل والخارج، بالوحدة، والإستماع الى صوته، الذي طال فراقه له. وكثرت أجنّة شكوكه فيه... "في الغناء – قال لنفسه – تسمو الروح، ويتلاشى الإحساس بالوحدة والعزلة، وهي تعانق بحميمية روح الكون. بكل ما يزخر به من بشر ونبات وحيوان وجماد..."

شرع المدعوون، وغير المدعوين من عشاق علي مردان، أيضاً، نساء ورجالاً، شباباً وشيباً، يتواقدون، وحديقة "چوارچرا" تستقبلهم بورودها، الجميلة الزاهية، الفوّاحة... بعطرها، وهي تنافس وجوه المستقبلين، الطافحة بالبشر، الناطقة بآيات الترحيب... وعلي مردان بشخصه المهيب وبتأريخه الفني الثرّ العريق. يرنو إليهم بحبّ يعجز لسانه عن التعبير عنه، فتطفر روحه من جسده، وتعانقهم، وتقبلهم، واحداً واحداً وواحدة واحدة، وفي عروقه النابضة بحبهّم، تسري نشوة عارمة، وفي داخله يهدر سيل من الجذل والبهجة... كل ذلك تحت سجف غير مرئية من الصرامة، ومن غير أن يرمش له جفن، أو يفترّ ثغرة عن إبتسامه، أو حتى يهتز في ملامحه عرق وهو الشاعر الرقيق. والفنان المذاب، في قالب من الأحاسيس الإنسانية والعواطف الجيّاشة، وفي أعماقه تتلاطم موجات من مشاعر الإمتنان والإجلال لكل هؤلاء الذين لبّوا الدعوة. إعتزازاً به وإقراراً بمكانته الفريدة، في دنيا الغناء والمقام بشكل خاص. دون أن تجد لها فتحة للإندلاق والإنهمار، ول حتى ثقباً صغيرا للتنفس. فراح جراء ذلك يهتز في علّوه ويختضّ في مكانه، غير قادر، إلا بشق الأنفس على تحقيق قدر من التوازن والثبات والإستقرار... تمور في روحه الملتهبة رغبة ناريّة أن يثب من مكانه، ويحتضن كل واحد منهم، في هذه الأمسية الخالدة، التي لم يعرف لها توأماً. ولكن آخ وألف آخ، فذلك هو المستحيل بعينه.

كظم غيظه، وكتم عواطفه. وطفق يخفف من وطأة أحزانه على روحه. يتأمل هذه الوجوه الكريمة، النبيلة، التي تترى. حاول التعرف عليهم. فراح يعصر ذهنه، يستحضر أيامه المواضي، وينفح الحياة في لياليه الخوالد. ولكن ذاكرته المرهقة أبت أن تسعفه، بينما تحججّ هو بأمر آخر، "الشمس تخترق عيني. ولا تدعني أراهم بوضوح" وإذ حالت الشمس وحجزت أغصان الأشجار أشعتها

عن عينيه، فترة غير قصيرة، لم تنفعه شيئاً.

"بسبب الزمن، قال لنفسه معزيّاً نفسه، خطى الزمن السريعة التي ماتني تسرع... كأنها في سباق خرافي مع كائنات هلامية لايدركها شعاع الضوء. قاطعةً الشهور والسنين في بحر ساعات وأيام حسب، خالقة بين الأحبة مسافات. صانعة في البشر والأشياء تغييرات وتغييرات، لاحصرّ لها ولا عدّ. حتى لايعود الأب يتعرّف على إبنه بسهولة، ولا الأخ يهتدي الى أخيه بيسر، بسبب مايتركه الزمن القاسي من ألوان وآثار غريبة على الوجوه والأشكال، والقوام والهامات، وحتى الروح، آخ، حتى الروح نفسها لاتنجو من براثن الزمن ومخالبه الحادة، وأنيابه الغادرة."

وهو هو نفسه قد جثم الزمن، بكل ثقله وضراوته، فوق هيكله المتداعي المنخور، وراح، بلارحمة وبالقسوة كلها يعضّه، ويضرسه أيضاً... فاسقطه، مريضاً، هزيلاً، حبيس جدران منزله تارة، وسجين جدران... مستشفيات بغداد... تارات أخر... فإنقطع مُكرهاً عن الناس، ناسه وأحبابه مثلما إنقطعوا عنه، إلا قلّة أبى عليهم وفاؤهم وحبهّم له إلا أن يتواصلوا معه ويظلوا يترددون عليه. فكانوا البلسم الشافي والطبيب المداوي... حتى فات الأوان، أوان كل شيء، ولم يعد الدواء ناجعاً، ولا الطبيب نافعاً، ازاء حكم القدر، غير القابل للرد أو النقض. ولا حتى للإستئناف والتأجيل... "ولكنهّم، مع ذلك، ظلوا سلوى لروحي الحزينة المتوجعة، وهي في أيامها الأخيرة وكانوا نعم الأنيس لها في وحدتها الطويلة... وعزلتها القاسية" آخ... آخ... حتى صوته، رأسماله الوحيد، وأعزّ مايملك من حطام الدنيا والآخرة، ذلك الصوت الساحر الرخيم، الذي كانت لقوته تهتز الجبال... ولإيقاعه السامي الأخّاذ، ترقص الطبيعة وتبتهج... والذي كان خطابه الأبلغ... ورسوله الأوفى الى قلوب الملايين من الناس والى عقولهم أيضاً... لم ينج من سطوة الزمن وجبروته، إذ نخر فيه دوده، فأضعفه وقلّص من مساحة إنطلاقه الشاسعة، وحدد من آفاق فضائه اللامحدودة. وزرع فيه خشونة وخرخشة ولودين، تتناسلان وتستفحلان على مرّ الأيام.

"ولكن وبإعتراف العديد من الأصدقاء والأعداء، مازال عاجزاً، عن تشويه

صوتي، وإخراجه من حقل الأصوات السليمة موسيقياً والمرغوبة جماهيرياً". ولكي يعززّ الرأي، ويجددّ ثقته بنفسه وصوته، قررّ أن يؤدي مقام "قەتار الله ويسي" الذي يتطلب أداؤه جهداً متميزاً، تبذله الأوتارالصوتية، ونفساً طويلاً، لاتملكه الا حنجرة متمرسة، متمرنة... على هذا النوع من الأداء، إضافة الى قوة. ونبرة أوپرالية، وحسّ موسيقي دقيق وعالٍ...

سعل بضع سعلات خرساء، كما إعتاد أن يفعل أيام زمان. ورفع صوته "ئازيزم... ئاي... ئا...ي... ئا..." وإختنق صوته، خنقهُ الحزن الذي تفجر من أعماقه "لا. لا... ليس هذا صوتي" وأضاف بنبرة خرساء تقطعها دموع غير مرئية "لم يعد صوتي الذي كان" وراح يغوص في ذاكرته التي هدّها الزمن، ويتذكر، بالرغم من ذلك. ولكن بحزن... صوته القوي الرنان الذي طالما أطرب الناس وأسعدهم... وسعى عبره الى تربية أذواقهم وصقلها، فالغناء الأصيل، الذي إشتغل عليه وتعاطاه وأدّاه بتفوق ليس للتطريب حسب. إنما هو فعالية إنسانية ونشاط خلاق في التعليم و... والتثقيف، وتربية الذائقة الفنية في الوقت نفسه، مثلما هو غسل للروح من أدران العادي واليومي والبلادة. وأجنحة سحرية. تحلق بها نحو العلا والسمو. ونار قدسية تخترق في أتونها النفس البشرية، لكي تتطهر من الأنانية والجشع وتختلق من جديد، نفساً إنسانية، صافية شفافة. صفاء البلور وشفافيته. "هكذا كان غناء سيد على أصغر وكاويز أغا" وكذلك أيضاً كان غناء علي مردان نفسه، الذي ظل لأكثر من نصف قرن يحيا في فضاء هذه العلاقة السامية. يثريها ويثري بها، يسقيها نزيف روحه وعقله ويرتوي بها. يغذيّها ويتغذى بها فتنمو وتثمر، كما ينمو هو بها ويثمر. والأيام تزيدها ثراء وعطاءً.

عشقته كُردستان، ورددت صوته، بكل إتساعها وأطرافها المترامية، بوهادها وجبالها، مثلما عشقه العراق كله، من أقصا الى أقصاه، حتى أولئك الذين لايفهمون مفردات غنائه، "ومتى كان الغناء الأصيل بحاجة الى أقدام من كلمات وحروف لكي يدخل القلب ويسكن الروح؟" قال لنفسه.

وكان يرتشف هذا الحب، بل يشربه ويعبّه بكل مسامات جلده. ونوافذ روحه المشرعة لحب الناس. ففي كركوك الحبيبة، حيث تبرعم، غناؤه، وأينع وأزهر،

وسقاه شعبها الودود رحيق العشق والوفاء، فردّ لهم، كما تردّ النحلة رحيق الزهور شهداً، لاتُنسى طلاوته، مُذاباً في ألحان عذاب، تنبع من حنجرة ذهبية. وبعدها في بغداد الكبيرة الوفية، حيث إستقام عودة وتجذّر في أعماق الأرض والقلب... وأثمر... وأتى أكله طيب المذاق، نادرهُ.

كان مريدوه الذين يترددون عليه إذذاك. تشكيلة بديعة، من المتنّورين الكرد، أكثرهم طلاب كليات، أساتذة، أطباء، مثقفون. أدباء، شعراء، وغالباً ماكانوا يجيئون بصحبة صحفي أو بالأحرى يقودهم إليه، صحفي، نشط ذكي، ذو مواهب متعددة أبرزها قدرته الخارقة على إحتساء الخمور، بكل أنواعها والوانها... وفي أيّ وقت، وكل وقت، ضحك علي مردان، إذ تذكر الحال التي كان يراه فيها، لقد كان على الدوام مبلولاً بالعرق، حتى لكأنه يسيل من مسامات جلده. تختلط روائحه النفاذه، بروائح تبوغ سجائره، المتعددة هي الأخرى، كل أنواع السجائر المتوفرة، أو التي يقدر هو أو أصدقاؤه، على توفيرها، بغداد... أريد و... سومر... روثمان إلخ... إلخ... "ماذا كان يدعي ياترى؟ ما إسمه"...

توغل علي مردان في طيات ذاكرته التي عقجتها السنون العجاف، ولكن لم يعد بنتيجة، فلامَ نفسه وقرّعها، "لا... لا... ياعلي، انه ليس من النوع الذي يمكن أن يسقط من الذاكرة ويطويه النسيان، كيف يُنسى ذلك الدفق الإنساني المتوهج؟ أ يركن الى ليل النسيان وظلامه؟ أصدقاوه كانوا ينادونه باخوس. وبعضهم، يبالغ في تقديره أو يتندر، فيسميه الإله باخوس... أما هو فقد كان يحمل إسماً كُردياً...

"آه لعنة الله على الشيطان" ماذا كان ياترى؟ جوتيار؟ بەختيار؟ غەمبار؟" تذكرت... بريندار... لا... لا زامدار... أجل... أجل. زامدار"... وأطلق ضحكة أخرى من ضحكاته الخرساء... تالله... لم أسمع بإسم يتناقض مع صاحبه كإسمه، فقد كان دائم البشاشة والمرح. حاضر النكتة والفكاهة... خالق ألوان من المقالب والمكائد البريئة والخبيثة، يسقط في حبائلها أصدقاءه بروح طيبة، ولكن ماكرة، يردد بين الحين والحين "فشەيه" لكل أمر لايعجبه... هراء... إنه هراء... لماذا أسمى نفسه زامدار... المجروح إن إسم باخوس أليقُ به، وأكثر

تعبيراً عنه... ولكن، إستدرك علي مردان بحزن...

"من يعلم بجروح القلب التي لاترى أو بتمزقات الروح التي يعاني منها سوى صاحبها... آه... لكم كان ذلك الشاب البدين يعشقني" ترى ماذا حلّ به؟ أين صفا به الدهر؟ أما زال في بغداد مغترباً... أم عاد الى عشّه في أربيل؟

"آه... تعساً لي، أنّب على مردان نفسه، يبدو أني من شدة إنشغالي بنفسي نسيت نفسي عن أصدقائي وضيوفي" أطلق نظراته، ماوسعه، في أرجاء چوارچرا... كانت الكراسي المبثوته فوق بساطها الأخضر، المؤطر بالزهور الملونة، قد إمتلأت بالناس إلاّ بعضاً منها. وهم مازالوا يتقاطرون زرافات ووحدانا... ومازال هو، حتى الآن عاجزاً على التعرف على أي منهم "آخ من الزمن وأهواله" المهم إنهم أصدقاء صوتي وعشاقه، وهم يعرفونني. وقد نزلوا عندي ضيوفاً أعزاء، فعلى الرأس والعين".

مرق أمام ناظره، كهلٌ في نشاط زئبقي، لايتناسب مع عمره، الذي يعلن عنه التاج الأبيض من الشعر الذي يحمله فوق رأسه... خفق له قلبه بسرعة "قلبي بين ضلوعي يشدّني إليه، يهفو نحوه، كما يهفو قلب الأم نحو وليدها الذي عشرت عليه بعد طول ضياع وغياب" إستأثر بإهتمامه من بين كل الشباب والفتيان الغادين... الرائحين، وهم ينظمون مستلزمات الحفل، أو يستقبلون القادمين برقّة، ولم يُطِل فيه النظر بضع ثوان، كان واقفاً في مدى نظراته، حتى شرع قلبه يضطرب، فصرخ بقوة ولكن بلا صوت "ئەبێ خوای گەورە" يا إلهي... إنه ولدي عەول قادر... "آه لكم تغيرت يا وليدي وتبدلت" كان قد فارقه شاباً يافعاً لم ينبت شارباه، وها هو يلتقى به وقد وضع الزمن فوق رأسه إكليلا من ثلوج سەفين" المندوفة... آه... لو يقترب مني، أجرّه اليّ، أجلسه في أحضاني... وأقبله، مثلما كنت أفعل قبل أربعين عاماً...

"قالا"

صرخ بصمت وأضاف، آمراً، وملتمساً "تعال يا ولدي... تعال الى أبيك".

من أكمل نعم الرب علي العبد أن يرزقه ولداً صالحاً، فيه يحيا و به وبأمثاله لاينقطع ذكر الرجل ولا يندثر أثره. "قم بواجبك يا ولدي. رحّب بضيوفنا، كما ينبغي... و... ومن هذا القادم لتوه، الذي هرع إليه عبدالقادر

يعانقه بكل هذه الحرارة، تنح ياقالا... قليلاً... لاتحجبه عن ناظري. دعني أره... أن هاجساً في داخلي ينبئني بأني أعرفه "ئاي خواي گەورە إنه... باكوري الحبيب، الجميل، الوسيم". تذكره على الفور، فقد تعهده برعايته شاباً يانعاً، وتلميذاً نابهاً موهوباً... ثم فناناً قديراً متواضعاً... آه. لكم تغير هو الآخر، الزمن... آخ من الزمن، إنه يبني ويهدم. يعمّر ويخرّب، يجلّل الهامة بالبياض، يجوّف الهيكل، يقوّس القامة. وأسرع يخاطبه... لاتأسَ يا باكوري... فإن الزمن، والحمدلله، مازال عاجزاً عن إمتصاص نضارة وجهك. أو إطفاء إشعاع عينيك الحلوتين، الذي يخترق زجاج نظارتك السميك...

وإذ بدأ له إنه يعاني صعوبة في السير، يتكيء على هذا تارة وعلى ذاك أخرى... وعلى نفسه ثالثة، حزّ في نفسه كثيراً وتألم لما آل إليه حال ذلك الفتى الرياضي الذي كان يسابق الغزلان "تعال... ياباكوري... العزيز... تعال أعانقك... أواسيك لما فعل بك الزمن الغدار..."أواسيك؟؟ وأطلق ضحكة أخرى من ضحكاته التي لايسمعها أحد، ولا تنفتح إذ يطلقها حتى شفتاه المطبقتان. وقال بأسى "من يواسي من؟ ياترى ماذا فعل بي الزمن الشرس المنكود أنا الآخر وهو يجول فوق جسدي المنهوك، منذ أكثر من نصف قرن، هارساً عظامي تحت حوافره التي لاترحم... آه... ليت ثمة. مرآة. لأتطلع خلالها الى وجهي الذي لابدّ أن يكون الزمن قد رسم فوق صفحته جداول وأنهاراً، ودياناً وتضاريس." وإنتفض. "لماذا المرآة هذه الزجاجة الباردة الجامدة، الخالية من الحياة. أما تكفي كل هذه الوجوه، الحيّة، الصادقة، التي تتكلم بأبلغ لسان، عن أصحابها وعنى أيضاً، وجوه أبنائي و أقراني التي تغضّنت، وتيبّس لحمها وبانت عظامها. وغدت تعكس صورتي أيضاً... أوضح مايكون الإنعكاس؟" وراح يواسي نفسه... من خلال باكوري، لاجدوى ياباكوري لاجدوى، الزمن قوة عاتية، لايملك الإنسان ازاءها الا الرضوخ والإستسلام لمقدارته... وإنتفض علي مردان. شِخْ ياباكوري كما تشاء ويشاء لك الزمن. ودعه يفعل بك مايريد، يصبغ شعرك بالبياض! يقتلعه من الجذور يحصده. يحصده، ويترك جلد رأسك عارياً، أملس. مصقولاً، ترتد عنه أشعة الشمس إذ تسقط فوقه، أكثر إشعاعاً أو ينيخ بثقله الخرافي وثقل همومه التي لاتعدّ ولا تحصى، فوق هامتك، فيحنيها ويقوّسها ويداعب بمخالبه المتوحشة صفحة وجهك، المشرقة

الملساء، ويخلّف فوقها آثاره المريعة... و... و... و... لايهم، كل ذلك لايهم البتة. المهم صوتك... أخبرني كيف حال صوتك؟ كيف نبراتك، أما زال جمال الأداء يشع منها. أما زال بوسعك قراءة المقامات العالية، كما تقتضي أصول ادائها السليم من التحرير الى التسليم. وإتقان الجواب والقرار، والميانات والبستة التي كانت تخرج من حنجرتك بطعم العسل... و... وثمة سؤال. تخجلني شيخوختي من الجهر به أمام الناس، إقترب منّي... إقترب ودعني أهمس به في أذنك... هاهاها كيف حالك مع النساء؟ أما زلت...

آه...

وقطع عليه إسترساله في الحوار الذي يجريه مع باكوري، أُحادياً ومن جانب واحد حسب. دخول رجل شامخ، أخرجه من نفسه، وسرق كل إهتمامه. "يقيناً أعرفه. أسعفيني أيتها الذاكرة المنخورة!"...

لم يطل به البحث في ثنايا ذاكرته. هتف سريعاً "سالار" إنه سالار الفنان المسرحي الشامل. الرجل الأنوف الذي لاتخطيء أنفه عين من مسافة مئات الأمتار... أو... أو "سيرانو" كما كان الظرفاء يدعونه، وقد صدق. فالرجل في شاعرية "سيرانو" وشفافيته وعلّو روحه. وقد إستطاع خلال فترة وجيزة أن يفرض إحترام الفن، حدّ التقديس في زمن وفي واقع كان الكثيرون يزدرون الفن، وينظرون الى الفنان نظرة إستصغار.

مازلت أذكر تلك الواقعة التي جرت له في السبعينات، حيث كانت الفوضى تضرب بأطنابها في مدينته السليمانية. والأمن مفقوداً. وكان هو عائداً الى منزله، ذات ليلة، فتصدى له ثلّة من اللصوص ليسلبوه. ولكن ماكادوا يقتربون منه حتى تعرف عليه أحدهم. فصرخ "كورينه... ماموستا سالارا" فأُسقط في أيديهم، وشلّهم الخجل، فأحاطوا به، بإعتزار بالغ، سوراً. يحرسونه ويحمونه، حتى أوصلوه الى منزله، وألسنتهم لاتكف عن الإعتذار والإستغفار...

تلك قوة سلطة الفن وعظمته، التي ينفرد بها الفنان الأصيل، تفرض إحترامها وطاعتها، طوعاً، حتى على الفئات المنحرفة، وتربيّهم وتعلّمهم.

إن سالار، والحمدلله، أضاف وهو مايزال يرنو إليه، لم يفرض إحترامه على

اللصوص حسب بل على الزمن أيضاً، الذي لايجرؤ حتى الآن أن يلعب به كما لعب بنا جميعاً. وعاد بذهنه القهقري الى أيام كان سالار يتردد عليه في بغداد، يجالسه ويستمع الى غنائه، بولَهٍ وإنتشاء، وما أكثر ما أنشدَّ أيضاً الى نبرات صوته الرجولي العريض. ترى ماذا لو غنّى أو قرأ المقام بصوته الأوبرالي الضخم، أما كان حقق لنفسه فيهما شأناً لايقل عن شأنه في المسرح،... آخ... ما هذه الرائحة الغريبة الشاذة التي هبت علينا؟

طفت الرائحة الكريهة التي هبّت، على شذا ورود چوارچرا... بل وعلى عطور النساء أيضاً... وغزته عبر فتحتي أنفه المفتوحتين الى آخرهما، بقوة... حاول أن يدير وجهه عن مهبها ولكنه أخفق ولم يستطع لرأسه حراكاً، وهمّ أن يتجنبها ويحمي نفسه منها. بسدّ فتحتي أنفه، بيده، غير إنه عجز، إذ إكتشف إنه بلايدين بلاكفين، بلا أنامل، فاستسلم يائساً من كل قدرة على مقاومتها، يتوجب عليّ أن أتحملها، إنه قدري... وأمري الى الله الواحد القهار.

ولم تلبث الرائحة، إذ ملأت أنفاسه وراح يعبّها على الرغم منه، أن سقطت على أرث كبير لها، وبعثت الحياة في تاريخ قديم، ورصيد دفين. مخزون منذ عدة عقود، إنها رائحة الخمور المتنوعة المذابة في روائح التبوغ المختلفة المتعددة، التي لايحتويها ولا يقذفها سوى شخص واحد "الإله باخوس"، زامدار، وحده الذي لاشريك له في مجاله وتخصصه!! تنحوا ياأولا د، تنحوا ياهؤلاء، دعوني أكحل عينى بمرآهُ فقد طال فراقي عنه وزاد شوقي اليه، وإني وبالرغم من روائحه كلها، في شوق للقائه والإستماع إليه، والى طرائفه ونكاته، ورؤية روحه الفكهة، الشفافة التي تنعكس في كل مايفعل ويقول... لكن... لكن... ماهذا؟ لقد نحت الزمن جسمه بقسوة... وإقتطع من جسمه لحوماً كثيرة، بلا رحمة، وخلّفه نحيفاً، هزيلاً، حتى سترته ترهلت على جسمه. وبدا كأنه يرتدي سترة أبيه على حد قوله، مازحاً، كلما رأى أحد أصدقائه يرتدي سترة أوسع من حجمه منتقاة من "تحت التكية". ناداه بصوته الأخرس. تعال، ياولدي، تعال أيها المجروح، في القلب والجسد والروح. تقدم... تقدم. لأجلك وفي سبيلك أتحمل رائحة خمورك وتبوغك، وروائحك الأخرى أيضاً. فأنت،

وبالرغم من كل شيء... محبوب، كما الشتيمة الفنية الذكية النادرة، وسرعان ما يأنس إليك المرء، كما يأنس الى العاهة التي لاتشوهه ولا توجعه، وأحسب أن الكل يتقبّلك، كما يتقبل الجسد روحه المثقلة بالآثام والرزايا التي يتمنى الجميع إقترافها... ويقترفها فعلاً، ويقترف الأبشع والأنكر والأدهى منها ولكن في السرّ والخفاء، وتحت أستار مهلهلة من الأخلاق والتقاليد، متحصنين صدقاً، أو كذباً ورياءً، في الأغلب. بإدعاءات النزاهة أو الخجل، في هذا الزمن الداعر الموبوء، الذي بات لايستحي ولا يخجل من أحد ولا حتى من نفسه!

لا أحد سواك، وسوى قلة من نموذجك النادر، جرأوا أو يجرؤن على الجهر بها، أو الإقتراب، أو حتى الإعلان عن الاقتراب من حدودها.

عاد "الأستاذ" المولع بفرك وجهه، مصحوباً بمجموعة شباب، يحملون كاميرات وپروجكتورات وأجهزة وآلات أخرى، وإنتشروا في أرجاء الحديقة، بينما وقف هو يلقي نظرة فاحصة على الحاضرين. ثم وكأنه تذكر أمراً في غاية الأهمية، أسرع نحوه مهرولاً، وقف قبالته. وقد بدا في حالة شديدة من الإنفعال "سيلعب بوجهي ثانية" قال علي مردان، متوجساً خيفة حقيقية منه "ترى ماذا سيفرك لي هذه المرة؟" صاح الأستاذ بمن حوله بحدة:

- ماهذا؟ الم تغطوه حتى الآن؟

"يغطونني؟ هل أنا عارٍ، إتق الله ياأستاذ" إقترب منه بعض القائمين على أمر الإحتفال بقلق، إنبرى من بينهم فاضل متسائلاً:

- نغطيه؟

- طبعاً تغطونه، صاح الأستاذ، كيف يزاح عنه الستار إذا ظل بلاستار؟

- صدقت... لقد فاتنا ذلك، أعذرنا ياأستاذ...

قال عرفان ذلك، وأسرع الى داخل الفندق. بينما ظل الأستاذ يضرب كفاً بكف "ولكن هل أنا عارٍ حقاً؟" همّ أن يلقي نظرة على نفسه، ولكنه لم يستطيع إذ ظلت عيناه محدقتين الى الأمام لاتتحركان ولا ترمشان. وإذ عاد عرفان بقطعة قماش... سارعوا اليه، وأخذوا يلفونها حوله، بينما وقف عبدالقادر على مبعدة، يرنو اليهم، وكان قميناً أن يدفعهم بعيداً عن أبيه لولا

يقينه أن ذلك جزء من مراسيم الإحتفال والطقوس الجارية، في هذه المناسبات، ثم أن الأمر كله لايستغرق سوى دقائق. ويعود الوالد الحبيب، يطل على عشاقه ومحبيه. ولكن علي مردان نفسه لم يكن يعرف هذه الحقيقة، فضاقت روحه بهذا الظلام الذي هبط على عينيه ومنعهما من معاينة أحبائه... "آه... لا... تسدوا عيني، لاتخنقوني... لاتقمّطوني... دعوني أتنفس. دعوني أتطلع الى أحبائي" وظل يصرخ... يستنجد ويستغيث. وما من منجد ولا مغيث، فإحتد أكثر وأخذ يمور بغضب داخلي مكبوت. يشتد ويتعاظم، يلقم ناره اللامرئية المتأججة في داخله، لامبالاتهم به وإهمالهم له، مزيداً من الحطب اليابس. فشرع يتململ ويهتز، و... ومالبث أن بدأ يختضّ ويوشك أن يتصدع حتى أن الأستاذ الذي كان يلّف حوله القماش بتأنٍ وتفنن... إرتد مصعوقاً. مأخوذاً. محبوس الأنفاس، فاغر الفم. يشير اليه إشارات خرساء، دون أن يقوى على إخراج كلمة صائتة من بين شفتيه اللتين ترتجفان على نحو غريب. مما أوقع كل من حوله في دهشة بالغة وإستغراب شديد... وحيرة هآئلة. سأل عرفان مرعوباً:

- ما... ما... بك... يا أستاذ ؟

لم يقو الأستاذ على الإجابة، وإذ تكلم بعد جهد جهيد... خرجت كلماته مهشمة، منقطعة الأوصال، لاتتماسك حروفها ولا تتصل ببعضها البعض.

- إإإ... إنه... يتـ..يتـ... يتحرك... وسقط القماش من يده. ولم يجرؤ أن ينحني ليلتقطه.

- مَن؟ مَن تقصد يا أستاذ ؟

أجاب الأستاذ مستعينا بالإشارات:

- هـ... هـ... هو... ما... ما ماموستا.

سدّ فاضل فاه برفق، غير مصدق مايسمع ويرى من إشارات.

- أسكت يا أستاذ... أرجوك... أسكت وإلا فزع الجميع... وفرّوا.

إلتقط عرفان القماش من الأرض. وربّت على ظهره، مشجعاً وقال وهو يناوله إياه ويعاونه حريصاً ألاّ يدع أحد من الحاضرين يدري بما يجري:

- هيا... هيا... يا عزيزي. الكل يرنو إليك... الكل في إنتظارك.

ولكن الأستاذ أبى أن يستلم القماش وقال وهو يتراجع ويرتجف:

- لا... لا... لن أقترب منه...

إنطلقت من بين الحاضرين، في الصف الأمامي، قهقهة عالية، مصحوبة بروائح خمور وتبوغ من أنواع شتى، يتخللها صوت مستهزيء:

- فشهيه!!

عرف الأستاذ أن زامدار يتعمّد الإساءة اليه، لاسيما وأن علاقتهما قد تردّت هذه الأيام. ولم تعد على ماكانت من الوئام. فردّ بغضب شديد:

- فشتية؟ ها...؟ فشتية؟ هاك... غطّه أنت يابطل!!

خطف القماش من عرفان وألقاه على وجهه بعصبية وإنفعال. فسقطت السيجارة التي كانت تترنح بين شفتي زامدار، بينما غادر الأستاذ الحفل... وهو يفور، غير حافل بالكرسي الذي عثر به ولا بالوجع الذي أصاب ساقه... إلتقط زامدار سيجارته، من الأرض، وأعادها بسرعة الى شفتيه اللتين لم تعتادا على الفراغ إلاّ ساعات النوم القليلة والنادرة جداً.

وهو يقول ببرود تام: مغرور، يحسب أن بوسعه بعث الحياة في الحجر.

ونصح الذين هرعوا خلف الأستاذ للإعتذار منه وثنيه عم عزمه:

- دعوه، لو فعلتم المستحيل لما عاد.

وأضاف بإعجاب لم يستطيع كبته:

- إنها ثورة فنان... وأضاف بصوت عالٍ حريصاً أن يسمعه الجميع، ويعرفوا رأيه الحقيقي فيه، بالرغم من كل ماحدث:

- وهو فنان... فنان أصيل... نادر المثال...

تناول زامدار قطعة القماش. وخطا نحو علي مردان مترنحاً. ولكنه لم يكد يدنو منه حتى توقف، أوقفه سؤال إنشق من مكان ما من أعماقه:

ماذا لو كان الأمر صحيحاً، وأن علي مردان يتحرك فعلاً؟؟

أوقعه هذا الهاجس في خوف وإرتباك، ولكي يتداركهما ويحجبهما عن الحاضرين...

أخرج سيجارة جديدة... وأخذ يشعلها من سيجارته التي لم تنتصف بعد.

وبيد مرتجفة ناول عرفان قطعة القماش. غطّوه، وأخذ يمتص أنفاساً عنيفة من سيجارته ويطلقها سحائب رقيقة، تلاشيها أنسام چوارچرا الأصيلية، وهو يشير اليهم ويوجههم، من موقفه، بأستاذية، بارعة، يُتقن إصطناعها وأداءها بطاقة تمثيلية، يغبطه الكثيرون عليها...

– برفق كاكه فازيل. برفق كاكه عرفان، لاتعصبوا عينيه. لاتسدوا أنفه...

لم يعبأ علي مردان هذه المرة، كثيرا، مادام بوسعه أن يرى ويتنفس، ثم إن الأمر كله لم يستغرق سوى دقائق بعدها ووفق مراسيم وطقوس إحتفالية خاصة، أزاحو، عنه القماش وعاد يتنفس الصعداء. ويكحّل عينيه بمرآى هذا الحشد الطيب من الناس... الزهو والامتنان... "من قال لاكرامة لنبيّ في وطنه؟ لعمري إنها لأكذوبة. الأوْلى أن يقولوا لاكرامة لنبي ولا لأيّ مخلوق إلا في وطنه، بين أهله وناسه" هاهي كردستان الحبيبة، أعود إليها بعد طول غياب، فتحنو عليَّ حنوّ الأم على وليدها، وتكرّمني تكريم الأبطال مثلما كانت بغداد الكريمة تفعل معي، والقاهرة أيضاً، منار الحضارة والفن و... وفلسطين العزيزة، الذبيح الجريح، التي غنّيتها وغنيت شعبها الشهيد في جنين وطول كرم، والقدس السليب، وفي ربوع الشام الغنّاء، ذات الربيع الدائم، فكل أرض طيبة حنون، هي وطن للفنان". إجتاحته إذ تذكر كل تلك الرحلات الى كل تلك الأوطان أوطانه أو بالأحرى وطنه، رغبة قوية في البكاء. فخراً وإعتزازاً، وأيضاً حباً وشوقاً، الى تلك الأمجاد الشواهد. الى تلك الأيام الخوالد، وذلك الماضي العتيد، المرصع بحب الناس. أينما رحل وحيثما حلّ. وبكى فعلاً، من فيض الإحساس بالسعادة بكى بحرقة، إلا إن دمعة واحدة لم تسقط من عينه، بالرغم من إنهما مفتوحتان الى آخرهما، مثلما لم يسمع أحد صوت نحيبه، مع إنهم قاب قوسين أو أدنى... وحده سمع صوت دموعه التي تنهمر، تغسل له روحه مما علق بها من حيف وبؤس وشظف العيش. وشح الأيام والحرمان. ويسقي في الوقت نفسه شتلات الأمل التي ترفع رؤوسها وتطل بورودها، عابقة بشذاها الحاضرين وقلوبهم.

توالى الخطباء، والمحدثون، يعرف بعضهم، وأكثرهم لم يحظ بشرف اللقاء بهم...

الكل يشيد به، ويسرد جوانب من فضائله، إنساناً ملتزماً، أخلاقياً كبيراً. حفظ شرف القراءة والأداء، متفرداً، رائداً للمقام، مبتكراً للعديد من فنونه. إستمع بزهو الى ماارواه المتحدثون عن أساطين المقام العراقي، من إشادة... وشهادة بدوره الطليعي البارز. روى سالار عن يوسف عمر إنه قد قال بحضوره وحضور آخرين "إن المقام هو علي مردان. وعلي مردان هو المقام. وهو أستاذه دون منازع" وأستمع الى باكوري، هذا التلميذ النجيب، الذي ينقط حديثه وفاء وتواضعاً، وزامدار أيضاً، الذي شرّق وغرّب، مستخرجاً حديثاً ثراً... جميلاً من خزين ذاكرته الوقادة... و... و... آخرون عديدون...

نفخت الأحاديث والكلمات... وذكريات الحاضرين عنه، الحياة، متدفقة في عروق تلك الليالي والأيام التي لاتنسى حين كان هو وأصدقاؤه يواصلون الليل بالنهار والنهار بالليل، في الأخذ والعطاء... في أجواء الفن والمقام والغناء. وفي فضاءات موسيقي الروح المعزوفة على أوتار القلب. وحلق به الحنين على أجنحته اللامرئية الى الحاضرين، بدقة وأمان، لعله يرى القبانچي الكبير. ويوسف عمر، وطاهر توفيق، وحسن زيرەک. وزهور حسين. ومريم خان. ونسرين شيروان... و... و... وكل أولئك الكواكب النيّرين، المشعّين في سماء الغناء وبقوة شوقه إليهم. وجموح مشاعره نحوهم، بدأ يستحضرهم...

يستحضر كل أولئك الذين لسبب أو لأسباب لايعرفها، لم يحضروا فوجد نفسه في حضرتهم وحضرة سيد علي أصغر، وحسن خيوكه. وعارف جزراوي ورسول گەردى، وشعّوبي، وجميل بشير والشباب الموهوبين حمه جزا، نصير شەمە. دلشاد، أنور قەرەداغى... و... و الشعراء الخالدين الذين تغنّى بقصائدهم، بێكەس، مەولەوى، خانێ، جزيرى، پيرەمێرد، گۆران... و...و... و...

ومن شدة فرحه وإبتهاجه بهم، وفرط إنشغاله بإستحضارهم وحضورهم... لم ينتبه الى أن چوارچرا، قد فرغت، وأن المدعوين قد إنسحبوا الى صالة الفندق، حيث الدفء والراحة والحوار الذي... سيتواصل حتماً، فيما بينهم، على موائد الطعام والشراب. وإذ إنتبه الى ذلك، إبتسم... وقال بروح سمحة!! هنيئاً مريئاً... كلوا وأشربوا هنيئاً مريئاً... وألف عافية" لم يخلّف فراقهم في نفسه إحساساً، بالفراغ، أو الوحدة، فقد كان مايزال ممتلئاً بالآخرين أصدقائه وأنداده

القدامي، يحلّق بهم الوجد معاً، في دنيا الطرب وفضاءات الروح اللامتناهية، يقرأ معهم، يستمع إليهم، يصغون إليه... وإذ غابت الشمس... وأقبل الليل، لم يهبط الظلام على حديقة القناديل الأربعة، حديقة چوارچرا... فقد كان ليلاً، مشرقاً... مضيئاً، أنار الحديقة بأربعة آلاف... أربعة ملايين، أربعين مليون قنديل وچرا... وبما لايعد ولا يحصى من الشموس، التي تمتص عتمة الليل الزاحف تشويها... وتعود تنشرها في أرجاء الحديقة وفي قلبه وروحه ضياءاً... دونها ضياءات ليالي نەوروز... لقد طاب اللقاء بوجودهم وأزهر... ولذّ الغناء والشراب فباتوا جميعاً... يغنون... يرقصون... يميسون نشوانين سكارى... وماهم بسكارى... فهم في حالة أكثر سمواً ورُقيّاً وجمالاً... من السكر...

في صالة الفندق، كان جلّ المدعوين، قد إنتهوا،أو أوشكوا أن ينتهوا من تناول شرابهم وطعامهم... وكفوا عن غنائهم العفوي الهادیء بدايةً والصاخب فيما بعد، والعائد الى الهدوء أخيراً، المتسم بتعدد الألوان والألحان، وتنوع الأصوات والأطوار. وإختلاف الإداءات والنبرات سليماً، جميلاً، بعض الأحيان... ونشازاً وقبيحاً معظم الأحيان وهو ينطلق من حناجرهم المخدّرة، على هواه، أو بالأحرى على هوى مقادير الشراب التي عبّها كل واحد منهم... كما توقفوا عن حواراتهم ومناقشاتهم الحماسية والحادة والعنيفة... وأيضاً، الرفيقة، اللينة المتراخية، التي لاتكاد كلماتها تغادر الشفتين المتعتبين... ولا تبلغ الآذان التي سدت الخمور... قنواتها.

حين غادروا متعتعين بالشراب لم يحفلوا بالليل الذي حلّ ببرده وظلامه، فقد كانوا ممتلئين بدفئهم الداخلي وإشعاعهم الروحي.

بعضهم يترنّح، لايقوى على التوازن الجسدي، حتى ليكاد يسقط على قفاه فيستنجد بأقرب كرسي أو حائط، أو صاحب، آخرون يسندون بعضهم بعضاً، حريصين ألاّ تزّل بهم أقدامهم، وهم جميعاً في قمة النشوة والسكر... والإمتنان لعلي مردان. في هذه الليلة الخالدة، الفريدة من العمر، التي دعوها. بإقتناع وإتفاق غير معلن... ليلة الخالد علي مردان".

فرغت الصالة إلاّ من باخوس ومريديه، هواة الأدب والفن، وعشاق الخمر وهو يطير بهم من أوڤيد الى بيّخهو. ومن أفلاطون الى ريّبين ومن لوكاش الى

غمبار... و من سوفوكل الى بيگرد، ومن رامبو الى زامدار نفسه، ومن أيلوار الى گوران... متنقلاً بين عشرات بل مئات الأسماء والمدارس والإتجاهات والتيارات، التي لا رابطة بينها ولا وشيجة. يطوف بلاحدّ، ولا قيد... وهؤلاء الفتية المتلهفون لمعرفة كل شيء، المبهورون به، يبحلقون فيه بعيون نصف مفتوحة. أتعبها النعاس. ويصغون إليه بعقول غيّبها الشراب. وأكثرهم لايصغون إليه، إنما يكتفون بالبحلقة فيه، وترديد كلمات أو عبارات متكسرة، تنطوي، أو توحي بالأعجاب، مما يلقم نيران حماس زامدار... وسيلان الكلام من فيه المتراخي، المزيد من الوقود... وزامدار نفسه، بعد قدح شرابه، الذي لايعرف رقمه في تسلسل الأقداح التي القاها في جوفه، لم يعد يهمه، إن كانوا يصغون إليه ويستوعبون مايقول. أم لا. قدر مايهمه أن يتقيأ، مايختزن في جوفه من كلام يتجدد ويتناسل ويتوالد... كل مساء، بل كل جلسة شراب في الليل والنهار.

ولا يكف عن ترديد لازمته "فشهيه" بين آونة وأخرى. وبمناسبة ودونها... كل شيء هراء حتى ما أقوله لكم... محض هراء...

ويفرغ كأسه في حلقة، الذي لم يفرغ إلا منذ ثوان حسب.

إقترب منهم النادل... وهو يقول بأدبٍ جم:

- اخوان... لقد عبرنا منتصف الليل والفجر يوشك أن ...

لم يدعه زامدار يطيل في إلتماسه. رفع كأسه الممتلئة دائماً، وأشار الى الآخرين أن يفعلوا مثله، وهتف ببغدادية متينة:

- "چعب" أبيض. في صحة الخالد علي مردان. وأضاف وهو يفرغ النصف الثاني من كأسه. ويشير الى النادل، وفي صحة هذا الشاب المؤدب الخلوق.

أعادوا الكؤوس، يابسة.

- هيا... يا شباب... وإنحنى أمام النادل... نرجو جميعاً قبول إعتذارنا...

أخفى قنينة العرق الجديدة، في حقيبته اليدوية، المنتفخة دائماً... بأوراق الكتّاب ونصوصهم... وعلب السجائر، وحين خرج حانت منه إلتفاتة الى أستاذة علي مردان، وبرقت في ذهنه فكرة لم يتوقف عندها ثانية واحدة

ليتأملها... بل أسرع، على الفور، الى تنفيذها... وأمر جماعته:

- تعالوا ياشباب نودّع ماموستا...

وإستدار نحوه فإستدار معه الآخرون، مباشرة، بآلية كأنهم فصيل جنود. وهم في حالة شديدة من الإعياء والسكر والنعاس...

وقف زامدار قبالته مترنحاً. وهمّ أن يلقى بنفسه عليه، يعانقه ويقبله. إلا أن اصدقاءه أمسكوا به بقوة... في الوقت المناسب. قبل فوات الأوان. إذ إنه سيسقط فوقه أشبه بجثة، فاقدة كل قدرة على التوازن والوقوف. فإتكا بظهره، على جذع شجرة. وبدلاً من أن يُحيّى أستاذه الروحي بإشارة، أو يتمنى له ليلة طيبة، ويودّعه ببضع كلمات ويرحل. أخرج قنينة العرق من حقيبته العتيدة، وبسخاء السكران وكرمه، قدّمها لأصحابه الذين أبوا أن يمسوها قبله. ولكنه أقسم بأغلظ الأيمان... والطلاق أيضاً، ألاّ يشرب قطرة واحدة، إلاّ بعد مايشرب أصغر واحد منهم... ناولها أحدهم، وأشعل سيجارة جديدة، وراح يأخذ منها أنفاساً عميقة... وهو يرنو الى علي مردان، بحزن مفاجيء، انبثق من مكان ما من وجدانه، دون أن يعرف له سبباً، ولم يلبث أن رفع عقيرته... بأداء واحد من أجمل وأقوى مقامات علي مردان، مغيراً ومحوراً فيه ما يشاء. وكما يشتهي... ومحدثا فيه من النشاز والإخلال بأصول الأداء وقوانينه... وإيقاعات الشعر وأوزانه. مالم ينزّل به الله من سلطان ولا جرؤ على إقترافه... حتى الشيطان:

ئەی (علی) من و تۆ هەردوو هاوەردین
هەردوو گرفتار یەک پێکی سەردین
تۆ وێڵ و ڕەنگ زەرد بەئاسمانەوە
منیش دەربەدەر بە (بار)ە کانەوە

و... وفجأة، بلا أية مقدمات، ولا سابق إنذار أو تنبيه، إنفجر كاكه باخوس ببكاءٍ حاد متشنّج... وبكلتا يديه راح يعصر عينه... ووجهه، حتى أن حقيبته التاريخية التي لاتفارقه أبداً، والتي لم يغلقها بعدما أخرج منها القنينة، سقطت من تحت إبطه، دون أن يشعر أو يحفل. فتطايرت قصاصات الورق المزروعة بالمحاولا ت الشعرية والقصصية والنقدية و... و... و... ماهي إلا ثوان حسب حتى سرت عدوى البكاء في الآخرين، وبدت حديقة چوارچرا التي

شهدت قبل سويعات فقط أجمل الطرب والغناء وأسعد الليالي وأشدّها إمتلاءً بالفرح والبهجة، على وشك أن تشهد أقبح النحيب والبكاء، عبر أبغض الأصوات اللامتآلفة، اللامنسجمة، في نشازٍ وإنتهاك لكل أصول الموسيقي والأداء، وأوقح إمتهان لقواعدها وقوانينها، لولا أن سارع زامدار نفسه الى تدارك الأمر، وتجنب وقوع كارثة تلوح في الأفق، بأن صاح بهم بغضب وإستنكار شديدين:

- ماهذا العويل؟ هل أنتم نساء؟

وسارع يمسح دموعه وهو يضيف:

- نحن الليلة في عرس، أجمل عرس، عرس أستاذنا الخالد علي مردان ألا تخجلون وأنتم في حضرته، تبكون وتنتحبون، ارقصوا... غنوا... اشربوا...

وإذ إفتقد القنينة... تساءل بقلق:

- أين القنينة...؟

خيّم على الجميع وجوم ثقيل. كاد يقتل في داخلهم بقايا السكر والنشوة. لم يجرؤ أي منهم أن يقول الحقيقة وهي أن القنينة فرغت "چعب أبيض" على طريقة باخوسهم. لولا أن أنقذهم صوت من خلف الأشجار أحياهم وأحيا فيهم النشوة والأمل بالمزيد من السكر والسهر.

- معي. القنينة معي أستاذ!

كان أحدهم قد تسلل خلال إحتفالية الدموع والنحيب وإبتاع قنينة جديدة، إبتسم زامدار. وقال مزهواً بأصدقائه، فخوراً بهم، متباهياً بحسن تدبيرهم وذكائهم "ئەی کورینة"... آه ياشباب، وسرعان ما رفع عقيرته بالغناء، بعد الجرعة الأولى، من فوهة القنينة، تبعه الآخرون في الغناء وجرعات العرق المتتالية... غنى لعلي مردان ثم تحول الى عبدالوهاب ثم إنتقل الى الأطرش... وخالقي، ومواملي، وشەمال صائب... وحتى فيروز القديسة والملاك الرقيقة، لم تنج من مكائده وبراثن صوته الخشن وفوضى أدائه وأداء جوقته الصاخبة...

أفاق علي مردان من أحلامه مقذوفاً، من سمائها اللامحدودة الى واقع فوضى الألحان والأصوات والصخب، وروائح الخمور والتبوغ المتنوعة، إلا أنه لم يغضب ولم يمتعض، إذ وجد أن باخوس هو الممّرض والقائد، إبتسم مشفقاً،

وراثياً تلك الأصوات الأصيلة والالحان الراقية التي تتكسر وتتهشم، بلا رحمة، عبر قنوات هذه الحناجر غير المدربة وغير المتمرسة، ولكن بدون سوء قصد، بل ببراءة وعفوية. وحاول بغيرته المشروعة وحرصه الشديد على الأداء السليم، أن يصلح من أدائهم المختل، مايمكن إصلاحه. ولكنه وجد ذلك مستحيلاً، فإكتفى بالإستماع إليهم. ومن حين الى حين، مشاركتهم همساً، ولشوانٍ حسب، كلما رأى مشاركته إياهم، لاتعد كفراً... يُدخل الإنسان ناراً... أشد من نار جهنم.

والشباب من حوله يزدادون نشوة وسكراً، وزامدار يصب على نيران حماسهم وسكرهم المتصاعدة المزيد من العرق... والمزيد من كلمات التشجيع واثارة النخوة وهو نفسه، بالرغم من سنواته الستين، وهيكله المتداعي وإنهاكه الجسدي وسكره الشديد، بدأ كأنه في سباق ماراثون مع الشباب، وطاب له أن ينافسهم بل وأن يتفوق عليهم...

- لا يقولنّ أحد منكم يا شباب، إنّ باخوس يمكن أن يتعب، أو ينهزم أمام أبنائه وأحفاده. هيا اشربوا وارقصوا... الليلة ليلة علي مردان الخالد...

فيزداد الشباب التهابا وحماساً، وإيغالاً في الشراب والصخب ويزداد هو لهاثاً... وسكراً... ولا مبالاة... بما يجري حوله...

وكان عمال الخفارة في الفندق، وبعض النزلاء الذين طار النوم من عيونهم، يتطلعون إليهم من خلف زجاج الصالة، بعضهم بفضول وحب إستطلاع وأكثرهم بضجر وإمتعاض وفراغ صبر، ورغبة مكبوتة في إلقائهم خارج الفندق... ولكن إحترامهم لشخص زامدار ومكانته الأدبية، يمنعهم من التصدي لهم.

"سوف ينال منهم التعب ويخلدون الى الهدوء، ويغادرون الى بيوتهم" بذلك كانوا يصبّرون أنفسهم ويؤملونها.

إلا أن سكنة المنازل المحيطة بالفندق، الذين ألجأهم إنقطاع التيار الكهربائي المزمن الى النوم فوق السطوح، الذين بوغتوا بهذا الصخب الذي لم يألفوه من قبل، والذي أخرجهم من عزّ النوم. كان لهم رأي آخر وتصرف آخر، إذ أستشاطوا غضباً وأخذوا يصرخون بهم ويأمرونهم بالكف عن ضجيجهم

وإقلاق راحتهم وإتلاف النوم في عيونهم. ولكن الشباب كانوا يزدادون ضراوة في صخبهم وفوضويتهم... فصاح أكثر من واحد من الجيران:

- لاجدوى مع هؤلاء السكارى، لابد من إستدعاء الشرطة.

وقبلما يبادروا الى تنفيذ تهديدهم، حذروهم بضع مرات آخر، ولكن أحداً منهم لم يحفل، فقد كانوا جميعاً قد بلغوا حالة إستثنائية من الإنسجام... أو بالأحرى الإندماج مع أنفسهم، ومع بعضهم البعض، لايسمعون غير أصواتهم هم، التي بالرغم من كل ما فيها قد أغلقت كل منافذ الإتصال بالعالم الخارجي، وقد سدّت الخمر آذانهم وأغلقت عيونهم، وألغت كل قدرة عندهم على التجاوب مع ماهو خارج أنفسهم، حتى إنهم، حين داهمتهم الشرطة، لم ينتبهوا إليهم، بالرغم من كل ما رافق مجيئهم من ضجيج وصخب وضوضاء.

حين أبصرهم زامدار من خلال عينيه اللتين أطبق أجفانهما النعاس والخمر والتعب، إلا قليلاً، حسبهم أصدقاء جدداً وفدوا الى مجلسهم في الهواء الطلق... فأسرع إليهم، هاشاً باشاً، ملوحاً لهم بقنينته التي إنتصفت بكلمات تخرج من شفتين لاتكادان تتلامسان

- ئەی بەخێربێن... أهلاً وسهلاً... خـ... خـ... خذ أيها الصديق... مـ... مـ... مصّة... تناول... أيها الزميل... جرعة... هيا... هيا... وحقّ باخوس... وزامدار... تشربون... اشربوا... هيا اشربوا يا إخوان...

عاجلة أحد أفراد الشرطة بضربة قوية من هراوته، فتهشمت الزجاجة وسفح العرق، وأصابت الشظايا وجهه، وجرحته من أكثر من موضع... ولكن الذي هال زامدار... ليس الدم الذي أخذ يسيل من صفحة وجهه، وإنما العرق، كل ماتبقى عندهم من العرق، قد أُهدر، على هذا النحو الظالم. فجُنَّ جنونه، وهجم، بكل ماتبقى فيه من غيظ وقوة، على الشرطي، ولكن... ضربة عاجلة أخرى من شرطيٍ آخر، أسقطته أرضاً... مضرّجاً بالدم... فصرخ علي مردان، يحتجُّ مذبوحاً على مايرى، ولكن أحداً لم يسمع صرخته، فأندفع الشباب هاجمين على الشرطة، وإشتبك الطرفان هنيهة قصيرة، في معركة غير متكافئة، تساقط إثرها الشباب، مثل باخوسهم، مضرّجين بالدم، صرخ علي مردان، مرة أخرى، بالشرطة وهو ينزف دماً "لا ياظلاّم... لاتضربوهم، إنهم أولا

دي إنهم أصدقائي" لم يستجب أي منهم لصرخاته، بل تمادى بعضهم وشرعت ضربات هراواتهم تصيبه هو نفسه. مما دفع بزامدار والشباب أن يتحاملوا على أوجاعهم وآلامهم... ويحيطوا بأستاذهم الخالد، سوراً بشرياً يتلقون الضربات بظهورهم، يتصدون لها بصدورهم، يدفعونها بأيديهم، يحمون علي مردان، بكل مايستطيعون. بكل مايقوون عليه، والشرطة لاتتوقف عن توجيه الضربات العنيفة اليهم بل ويزدادون عنفاً وتوحشاً، لاسيما بعد صياح واحد منهم، محاولا ً أن يبدو أكثرهم علماً ومعرفة:

– كفرة... أوغاد... عبدة أوثان وأصنام. في القرن الحادي والعشرين وثمه أناس بيننا يعبدون الأوثان والأصنام. اجلدوهم... ارجموهم... لاترحموهم...

كان علي مردان يتمزق، وهو يرى أولا ده يتساقطون متسربلين بدمائهم وليس بوسعه أن يفعل شيئاً للدفاع عنهم. ولا حتى دفع الأذى عنهم، فتفجرت عيناه، دموعاً مدراراً، من حصى وأحجار، حين شرع أفراد الشرطة يلتقطونهم، أشبه بالجثث. ويضعون الأصفاد والأغلال في أيديهم... وأقدامهم... وحتى أعناقهم... ويجرونّهم جراً، إيغالا في إذلالهم، وإمعاناً في تحقيرهم.

ففاض به الألم ولم يعد يطيق النظر إليهم وهم في هذه الحال، فرفع عينه الى السماء داعياً إياها... أن تطبق على الأرض بكل من عليها... ومافوقها، بما فيهم هو نفسه، بيد أن السماء هي الأخرى لم تستجب لدعائه، ظلت على حالها غير مبالية بالشرطة. وآلام أصدقائه. قيد شعرة، بل رآها... كأنها، تزداد اشراقاً... ونجومها المتوالدة، التي لاتكف عن التوالد والتكاثر، تزداد توهجاً وعدداً.

وإذ لمح القمر، أنيسه الدائم يجول بوجهه الشاحب الحزين، بدا له لسبب ما إنه يبكي حاله وحال أولا ده وماجرى لهم... فأخذ يشكو له... مرّ الشكوى، وهو مايزال يبكى:

"لقوا فعلوا بأولا دي... مالم يفعله الكفّار ببلال... آخ... آخ..."

وظل يتوغل في جروحه التي لن تندمل، بعد اليوم، يحلجها، ينبش فيها... وبنبرات يخنقها الدم والدمع الذي يتساقط حصى وحجراً... شرع يغنى... يغنى

أقوى من أقوى ما غنى ولكن بلاصوت... ولا نبرة... وللا... أحد... لنفسه حسب... ولوحدته التي قمّطته... فقط...

٢٠٠١-٢-١١

إشارات

* *نثارات حلم...، الأقلام*، ع ٩/ ١٠-١٩٩٢

* *الموت سداسياً*، نشرت في *مجلة الأقلام*، ع ١١- ١٩٧٠.

* *القوقعة*، نشرت في *جريدة التآخي*، ٣-١٠-١٩٦٧- تشرين١ تحت إسم "*الموت... كالآخرين*"

* *الجراد*، نشرت في *جريدة التآخي*، ع ٣٤٢-١٩٦٨- تموز

* *الشمس... الشمس*، *مجلة كل العرب* - ع ٢١٧-١٩٨٦

* *رماد فوق الجرح*، *الأقلام*، ع ٨-١٩٨٧

* *البيت*، *الأقلام*، ع ١٢/١١-١٩٨٨

* *الكلب العجوزمغمض العينين*، *الأقلام*، ع ٦/٥-١٩٩٣

* غيوم بلا مطر، *مجلة ألق* - ع١- ١٩٩٩

* *بضع صرخات من صراخ الصمت الأخرس*، *جريدة الجمهورية* - ١٩٩٥/٧/٢٢

للكاتب

اولاً: المسرحيات - المنشورة والمعروضة

١- (١٤ - نيسان) - نشرت في مجلة «صوت الطلبة» - بغداد - ١٩٥٩

٢- الحرباء * قدمتها فرقة «مسرح بعقوبة» - بعقوبة - ١٩٦٩ * اخرجها الفنان جيلة عبد الحميد * قدمتها فرقة «مسرح الصداقة» - بغداد - ١٩٦٩

٣- الاشارة * نشرت في جريدة «التآخي» - بغداد - ١٩٦٥ * قدمتها فرقة «مسرح المجددين» - بعقوبة - ١٩٦٨ * اخرجها الفنان سالم الزيدي

٤- السرّ * مطبعة «الغري» - النجف - ١٩٦٨ * قدمتها فرقة «نقابة المعلمين» - قاعة الخلد - بغداد - ١٩٦٨ * قدمت في معظم انحاء العراق * ترجمها الى اللغة الكردية الفنان نوزاد قادر * قدمتها فرقة «نقابة عمال الميناء» - السليمانية - ١٩٧٥ * اخرجها الفنان جليل زەنگەنە

٥- الجراد * من مطبوعات مطبعة «دار الساعة» - بغداد - ١٩٧٠ * نالت جائزة «الكتاب العراقي» - المربد - ١٩٧٠

٦- السؤال - او «حكاية الطبيب صفوان بن لبيب وماجرى له من العجيب والغريب» * قدمتها فرقة «مسرح اليوم» - بغداد - ١٩٧٥ * اخرجها الفنان الراحل الكبير الاستاذ جعفر علي * نالت جائزة «احسن نص مسرحي» ١٩٧٥ - ١٩٧٦ * طبعتها وزارة الثقافة والاعلام - بغداد - ١٩٧٦ * عرضت في انحاء عديدة من العراق * ترجمت الى اللغة الكردية * قدمتها فرقة «جمعية الفنون الكردية» - اربيل - ١٩٧٧ * اخرجها الفنان پيمان بي گود * قدمتها فرقة «مسرح الطليعة - الكويتي» - الكويت - ١٩٨٠ * اخرجها الفنان التونسي المنصف السويسي * شاركت بها الفرقة في مهرجان * قدمها مسرح «سيد درويش» - الاسكندرية - مصر - حزيران - ١٩٨٦ * اخرجها الفنان المصري محمد غنيم * قدمتها «جامعة الزقازيق» - جمهورية مصر العربية - اذار - ١٩٨٦ * اخرجها الفنان المصري صلاح مرعي * قدمتها فرقة «مسرح البحر» - الجزائر - ١٩٨٧ * قدمتها فرقة «مسرح الجامعيين» - البحرين - ١٩٨٨ * قدمت في انحاء اخرى من العالم العربي

٧- الاجازة * قدمتها فرقتا «مسرح بعقوبة - ومسرح ديالى» - بعقوبة - ١٩٧٧ * اخرجها الفنان سالم الزيدي * ترجمها الى اللغة الكردية الشاعر شێركۆ بێ كەس * قدمتها فرقة «مسرح الطليعة» - السليمانية - ١٩٧٨ * اخرجها الفنان احمد سالار * ترجمها الى اللغة الكردية مرة اخرى، الفنان «چەتو حسن» * قدمتها الفرقة «القومية للتمثيل» - اربيل - ١٩٨٩ * اخرجها الفنان تحسين شعبان * قدمتها الفرقة ثانية - في مهرجان «المسرح العربي» - بغداد - ١٩٨٩

٨- **في الخمس الخامس من القرن العشرين يحدث هذا!!** * نشرت في مجلة «الاقلام» - بغداد - اذار - ١٩٧٩ * قدمتها فرقة «مسرح اليوم» - بغداد - ١٩٧٩ * اخرجها الفنان عادل گورگيس * اعادت الفرقة عرضها في بعقوبة - ١٩٧٩ * نالت جائزة «النص العراقية» ١٩٧٩ - ١٩٨٠. * ترجمت الى اللغة الكردية. * قدمتها فرقة «الفنون الجميلة»- اربيل- ١٩٨٠. * أعادت عرضها في بغداد- ١٩٨٠. * قدمت في المغرب- ١٩٨٧. * قدمت في السودان- الخرطوم- ١٩٩٨. * قدمتها لجنة «مسرح الرشيد» - بغداد. * اخرجها الفنان سالم الزيدي.

٩- **اليمامة** * صدرت عن «اتحاد الكتاب العرب»- دمشق- ١٩٨٠.

١٠- **مساء السلامة ايها الزنوج البيض** * نشرت في مجلة «الثقافة»- بغداد- تشرين- ١٩٨١. * قدمت في المغرب - الدار البيضاء- ١٩٩١. * قدمتها لجنة «المسرح العراقي»- فرقة «مسرح ديالى»- ١٩٩٩. * قدمتها لجنة «المسرح العراقي»- منتدي المسرح- بغداد- ١٩٩٩. * اخرجها الفنان سالم الزيدي. * ترجمها الى اللغة الكردية الفنان ازاد برزنجي. * قدمت في معهد «الفنون الجميلة»- السليمانية- ١٩٨٨. * اخرجها الفنان ازاد برزنجي.

١١- **العلبة الحجرية** * قدمتها فرقة «مسرح اليوم»- ١٩٨٢. * اخرجها الفنان يوسف رشيد. * نالت جائزة افضل نص- ١٩٨٢-١٩٨٣. * نشرت في مجلة «الاقلام»- بغداد- آذار- ١٩٨٣. * قدمتها الفرقة «القومية للتمثيل»- بغداد- ١٩٨٨. * شاركت في مهرجان «المسرح العربي»- ١٩٨٨. * اخرجها الفنان فتحي زين العابدين. * قدمت في المغرب- الرباط- ١٩٩٨. * اخرجها الفنان المغربي عبدالكبير الركاكنة. * قدمتها الفرقة القومية مرة اخرى، في مهرجان المسرح العراقي الخامس بغداد- نيسان- ٢٠٠١. * اخرجها الفنان فتحي زين العابدين.

١٢- **لمن الزهور؟** * نشرت في مجلة كاروان- اربيل- حزيران- ١٩٨٣. * قدمت في مهرجان «بغداد الاول للمسرح العربي» - بغداد- ١٩٨٥. * اخرجها الفنان عزيز خيون. * ترجمها الى اللغة الكردية الكاتب ازاد برزنجي. * نشرتها مجلة «بيان»- بغداد- اذار- ١٩٨٩. * قدمها معهد «الفنون الجميلة»- السليمانية- ١٩٨٩. * قدمها منتدى المسرح- بغداد- ١٩٨٩.

١٣- **صراخ الصمت الاخرس** * قدمتها فرقتا المسرح الشعبي ومسرح اليوم- بغداد- ١٩٨٧. * اخرجها الفنان الدكتور عوني كرومي. * اعيد عرضها على قاعة الفنانين التشكيليين- بغداد- ١٩٨٨. * قدمت في عمان- الاردن- ١٩٩١. * اخرجها الفنان عوني كرومي. * نشرت في مجلة «فنون» الاردنية- العدد (١١-١٢)- ١٩٩٢. *

ترجمها الى اللغة الكردية الفنان كريم بياني. * نشرت في مجلة «سينما ومسرح»- اربيل- آذار- ١٩٩٩. * قدمتها فرقة «رڤند»- برلين- المانيا- ١٩٩٩. * اخرجها الفنان عوني كرومي.

١٤- **حكاية صديقين** * نشرت في مجلة «الاقلام»- بغداد- كانون الثاني- ١٩٨٦. * قدمتها فرقة المسرح الفني الحديث - شباط- ١٩٨٨. * شاركت في مهرجان «المسرح العربي»- ١٩٨٨. * اخرجها الفنان سامي عبدالحميد. * قدمت في البحرين- المنامة- ١٩٩٠.

١٥- **الحارس** * نشرت في جريدة العراق- تشرين الاول- ١٩٨٧. * قدمتها فرقة «نقابة الفنانين» ميسان- شباط- ١٩٨٨. * اخرجها الفنان مكي حداد. * شاركت في مهرجان «المسرح العربي» - ١٩٨٨. * نشرتها مجلة «البيان» - الكويت - ١٩٨٩. * ترجمها الى الكردية إسماعيل نور. * نشرت في «روڤار» العدد ٦ - ٢٠٠٠. * عرضت في أربيل.

١٦- **الأشواك** * نشرت في مجلة «الأقلام» بغداد - شباط - ١٩٨٨. * قدمتها الفرقة القومية للتمثيل - بغداد - آذار - ١٩٨٩. * شاركت في مهرجان «المسرح العربي» - ١٩٨٩. * أخرجتها الفنانة منتهى محمد رحيم. * نالت جائزة النص العراقي ١٩٨٩-١٩٩٠.

١٧- **تكلّم يا حجر** * نشرت في مجلة «الأقلام» بغداد - آذار - ١٩٨٩. * قدمتها الفرقة القومية للتمثيل - آذار - ١٩٨٩. * أخرجها الفنان وجدي العاني. * شاركت في مهرجان «المسرح العربي» - ١٩٨٩. * ترجمها الى اللغة الكردية الكاتب محمد عبدالرحمن زەنگەنه. * قدمت في أربيل - ١٩٩٩. * أخرجها الفنان طلعت سامان.

١٨- **كاوه دلدار** * مطبعة وأوفسيت حسام - بغداد - ١٩٨٩.

١٩- **العقاب** * نشرت في مجلة «الأقلام» - شباط - ١٩٩٠. * ترجمها الى اللغة الكردية الشاعر جمال غەمبار. * نشرت في «روڤار» العدد ٦ - السليمانية - ٢٠٠٠.

٢٠- **القطط** * نشرت في مجلة «الأديب المعاصر» - ميسان - ١٩٩٢. * قدمتها فرقة «مسرح ١٤ تموز» - ١٩٩٥. * أخرجها الفنان حسين جوير.

٢١- **موت فنان** * نشرت في مجلة «الأقلام» - آذار - ١٩٩٤.

٢٢- **هل تخضر الجذوع؟** * نشرت في جريدة «العراق» - تموز - ١٩٨٧.

٢٣- **مسرحيات** * صدرت عن دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ١٩٩٤. * ثلاث مسرحيات في كتاب نالت جائزة أحسن كتاب، ١٩٩٤.

٢٤- **مساء السلامة أيها الزنوج البيض** * صدرت عن الأمانة العامة للثقافة والشباب - ١٩٨٨. ثلاث مسرحيات في كتاب

٢٥- **أردية الموت** * نشرت في مجلة «عشتار» غزة- فلسطين - عدد "٨" - ١٩٩٦.

٢٦- **سيأتي أحدهم** * نشرت في مجلة «الرواد» العدد الأول - ٢٠٠٠.

٢٧- **المائدة المستطيلة** * نشرت في جريدة «الزمن» نيسان - ٢٠٠٠.

٢٨- **رؤيا الملك** * من إصدارات وزارة الثقافة - ١٩٩٩. * قررت كلية التربية - جامعة ديالى إعتمادها مادة علمية في موضوع تحليل النصوص الأدبية نظراً لأهميتها الأدبية والفنية. * نالت جائزة الإبداع في الأدب المسرحي - ١٩٩٩.

٢٩- **مسرحيتان** * صدرت عن دار الحرية - بغداد - ٢٠٠١.

٣٠- **العانس** * نشرت في مجلة «ألق» عدد ٣ - ٢٠٠١.

ثانياً: الروايات

١- **هم أو يبقى الحب علاقة** * إتحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٧٥.

٢- **ناسوس** * دار الساعة - بغداد - ١٩٧٧.

٣- **بحثاً عن مدينة أخرى** * إتحاد الكتاب العرب - دمشق - ١٩٨٠.

٤- **الموت... سداسياً** * مجلة «الأقلام» - بغداد - ١٩٧٠.

ثالثاً: القصص

١- **كتابات** * من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٨٤. * ترجمها الى اللغة الكردية القاص غفور صالح. * صدرت في كتاب عن دار الثقافة والنشر باللغة الكردية - بغداد - ١٩٨٦.

- العديد من القصص والمقالات والدراسات النقدية والفكرية حول قضايا الأدبين العربي والكردي، التي نشرت في الصحف والمجلات المحلية والعربية والتي لم تجمع حتى الآن في كتاب.
- مسرحيات وروايات وقصص مازالت غير منشورة (مخطوطة).

الفهرست

نثارات حلم تبحث عن حالم 5

محاولة إقتناص حلم.....39

الموت سداسياً 80

القوقعة 131

الجراد.....147

الشمس... الشمس 162

رَماد فوق الجرح.....166

البيت.....179

الكلب العجوز مغمض العينين 199

غيوم بلا مطر! 216

بضع صرخات من صراخ الصمت الأخرس.....237

1- الغولة خرابكو!! 240

2- فقدان الذاكرة!.....245

3- الجنون والعقل 250

4- الأمم المتحدة تكافح الجائعين.....253

5- الجّزارون الشعراء... الشعراء الجزّارون.....258

علي مردان يتفجر بدموع من حصىً وحجر.....262